الخفافيش

وقصص أخرى من أفغانستان

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

426

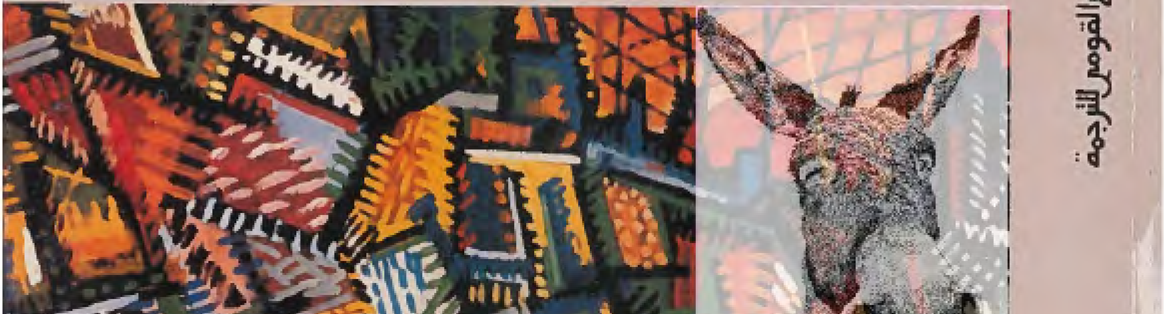

ترجمة : محمد علاء الدين منصور و عبد الحفيظ يعقوب حجاب

132 x 196
5576

المشروع القومى للترجمة

الخفافيش

وقصص أخرى من أفغانستان

ترجمة وتقديم
محمد علاء الدين منصور
و
عبد الحفيظ يعقوب حجاب

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٢٦
- الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان
- نخبة من المؤلفين
- محمد علاء الدين منصور ، وعبد الحفيظ يعقوب حجاب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

اسم الكتاب : كتا بفروشى ديوانه
داستانهاى امروز أفغانستان
اسم جامع القصص : دكتورم حيدريان
دار النشر : نونك مشهد - سعدى بازچه

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

– مقدمة المترجمين 7

(١) سبوزمى زرياب

- السفر براً 21
- بائع الكتب المجنون 33
- اصطياد الملائكة 53
- رستم وسهراب 67

(٢) أعظم رهنورد زرياب

- الرجل الجبلى 87
- النهر 119
- ليتنى كنت حمامة 135
- مدير المجلة 161
- الخادمة 187
- مدرس الرسم 199

(٣) أحمد نظرى آريانا

- الخفافيش 215
- الفريسة 239
- ألن تزوجنى ابنتك ؟ 251

(٤) خليل الله خليلى

- أسطورة ابنة أمير باميان 269

(٥) سيد مخدوم رهين

- اللوح الخشبى التذكارى 281

(٦) محمد أكرم عثمان

- شق الجدار 293
- حين يُزهر البوص 303

مقدمة المترجمين

نشرف بأن نقدم أول إصدارات المجلس الأعلى للثقافة من الأدب الأفغاني الحديث في ثوب هذه القصص القصيرة الأفغانية المعاصرة ، كتبها نخبة من الأدباء الأفغان باللغة الفارسية الدرية التى لا تختلف كثيراً عن اللغة الفارسية فى إيران أو اللغة الفارسية فى تاجيكستان .

اللغة الفارسية الدرية فى أفغانستان لها تاريخ طويل فى ميدان نظم القصة ، يحسن أن ينفرد أخى وشريكى فى الترجمة الدكتور / عبد الحفيظ يعقوب بأن يقدم لنا فكرة موجزة عنها فى هذا الإطار ؛ خاصة وأنه قد سبق إلى دراسة هذا الميدان ، وله جملة من الأبحاث القيمة فيه.

يقول الدكتور عبد الحفيظ : " إن القصة القصيرة عبارة عن نهج فنى حديث يمثل موقفًامن الحياة ، وهى بنية فنية تنقل سلسلة محدودة من الأحداث أو الخبرات أو المواقف وفق نسق متوافق يخلق إدراكًا خاصًا به.

وبمعنى آخر هى الفن الأدبى الذى يجعل لها تركيبًا معينًا ، تتحرك خلاله الشخصيات ، وتتمو الحوادث ، وتترابط العناصر

القصصية على خطة مقصودة وتدبير محكم من خارج حياة القصة نفسها ؛ أى بقصد من القاص وتدبيره ووعيه .

على الرغم من هذا فلا يزال عدد كبير من النقاد يتذبذب بين مصطلحى الأقصوصة والقصة القصيرة للدلالة على ما يعرف فى الإنجليزية باسم (Short Story) وفى الفرنسية (Contè) وفى الفارسية (داستان كوتاه).

وتختلف القصة القصيرة عن القصة بصفة أساسية فى كونها تتميز بوحدة الانطباع ؛ فهى تمثل حدثًا واحدًا يقع فى وقت واحد ، وتتناول شخصية مفردة ، أو حادثة مفردة أو مجموعة من العواطف التى أثارها موقف مفرد ، ولابد أن تشمل القصة القصيرة العناصر التى تشكل أصول هذا الفن شأنها فى ذلك شأن الرواية ، وهى الحبكة الفنية والشخصيات والسرد والحوار والزمان والمكان ، ثم الفكرة الأساسية التى تعالجها القصة القصيرة كمشكلة تبحث عن الحل ، أو ظاهرة اجتماعية يتعرض لها المؤلف ، وهكذا تعد القصة القصيرة صورة صادقة ناطقة تعبر عن الحياة والمجتمع من شتى المناحى وكافة الوجوه.

إن لأدب الفارسى القديم باعتباره أحد الآداب الشرقية قد عرف ألوانًا عديدة من القصص ، وهناك العديد من المسميات العربية والفارسية لهذه الأنواع القصصية مثل (قصة ، وحكاية ، وحدوتة ، وسركذ شت، وداستان ومقامة ، وغيرها) وكانت جميعها مترادفات لمعنى واحد هو الحكاية أو القصة القصيرة.

وعلى هذا الأساس فإن القصة القصيرة - كفن أدبى فى اللغة الفارسية - ما هى إلا امتداد للأنواع الأدبية التى وجدت فى الآداب الشرقية .

ومع بداية العصر الحديث وانفتاح الشرق على الغرب ظهرت مفاهيم ومعايير جديدة تحدد أسس هذه الأنماط الأدبية ، وأخذ الشرقيون - ومنهم الإيرانيون - يتعرفون عليها وعلى الأنماط الأدبية ، ومنها : القصة القصيرة ، والقصة الطويلة ، والرواية ، وأخذت هذه الأنماط بمفاهيمها وأسسها الجديدة عن طريق ترجمة نماذج من هذه القصص تعرف طريقها إلى الأدب الفارسى والآداب الشرقية الأخرى.

وللقصة القصيرة أهمية كبرى فى الأدب الفارسى الحديث سواء فى إيران أو أفغانستان تاجيكستان ؛ فهى أخصب ميادينه ، وقد راجت رواجًا كبيرًا فى إيران بصفة خاصة على امتداد العقود الثمانية الأخيرة ، ولعل ذلك يعود إلى ما يلى :

- تناولها للواقعية واهتمامها بالقضايا الحيوية والقضايا المعاصرة.

- تحكى عن التجربة الفردية والجماعية.

- سهولة تأليفها والاطلاع عليها .

وكان نتيجة لذلك كله أن ازدهرت القصة القصيرة فى الأدب الفارسى ؛ مما أدى إلى اكتسابها طابعًا خاصًا بها وبمؤلفيها ؛ إذ كان لكل واحد منهم تميزه وتفرده وتأثيره الخاص على القراء كمًا وكيفًا .

تعد كتابات على أكبر دهخدا فى بداية القرن العشرين – وهى مجموعة مقالات " جرند وبرند " (ثرثرة) – وكانت عبارة عن حكايات قصيرة ساخرة وبلغة تقترب من العامية هى الإرهاصات الأولى لظهور فن القصة القصيرة بمفاهيمها الحديثة فى الأدب الفارسى الحديث ، وعلى هذا الأساس فهى تمثل حلقة فاصلة بين الحكاية التقليدية والقصة الحديثة ، وأن القصة القصيرة الفارسية المعاصرة ما هى إلا امتزاج بين الشكلين التقليدى القديم والحديث الوارد من الغرب .

على أية حال فإن ميلاد القصة القصيرة الحديثة فى الأدب الفارسى بدأ مع ظهور المجموعة القصصية " يكى بود ، يكى نبود " (كان ياماكان) للكاتب الإيرانى محمد على جمالزاده ، والتى ظهرت عام ١٩٢١م الموافق ١٣٠٠ هـ ش .

أما فيما يتعلق باللغة الفارسية فى أفغانستان بصفة خاصة ، فإن قصة " الجهاد الأكبر " تعد أول القصص الفارسية التى كتبت فى أفغانستان وفقًا للمفاهيم الفنية الحديثة ، وهى قصة تاريخية لا يعرف كاتبها ، ويدور موضوعها حول الحروب الأفغانية الإنجليزية ، وقد نشرت فى مجلة المعارف عام ١٩٢١م.

وفى هرات عام ١٩٠٣م طبعت أول قصة أفغانية فى كتاب خاص بها ، وكانت تحت عنوان "حقوق الأمة أو صوت طلاب العلوم " بقلم محيى الدين أنيس الصحفى الأفغانى المعروف فى ذلك الوقت ، وهى فى مجملها قصة تعليمية أخلاقية ، ومن ناحية البناء الأدبى تعد مزيجًا ما بين القصة والمسرحية ، ثم قام الكاتب الأفغانى (عبد القادر أفندى)

بكتابة قصة تحت عنوان " تصوير غيرت " ، وتعد أول قصة لكاتب أفغانى تنشر فى الهند ، وهى قصة ساخرة ينتقد فيها الكاتب العديد من الظواهر السياسية والاجتماعية فى ذلك الوقت ، وهناك قصة أخرى نشرت عام ١٩٢٥م فى مجلة " أمان الأفغان " للكاتب الأفغانى سلطان محمد ، وهى فى صورة مذكرات يومية ، ويبدو بوضوح تأثر كاتبها بكلستان سعدى الشيرازى ، وبصفة عامة اتسم الأدب الفارسى فى أفغانستان بالرومانسية خلال العقد الثالث من القرن العشرين ، ومن أبرز كتاب تلك الفترة الكاتب " عبد العلى مستغنى " (١٩٤٣ - ١٨٨٦) .

ومع بداية العقد الرابع من القرن العشرين سادت الواقعية والقضايا الاجتماعية على موضوعات الأدب الفارسى فى أفغانستان ، ومن أبرز كتاب هذه الفترة سليمان على جاغورى صاحب قصة بيكم (الأميرة) ومحمد إبراهيم عالمشاهى صاحب " شام تاريك " (الليل المظلم) و " صبح روشن " (الصباح المضىء) وينتقد هذان الكاتبان فى قصصهما الظلم الاجتماعى والاستبداد ؛ فجاغورى الذى ينتمى إلى طائفة الهزارة الشيعية فى أفغانستان يصف فى قصته " الأميرة " الحياة القاسية التى يعيشها الهزارة فى إحدى القرى الواقعة فى قلب أفغانستان .

أما محمد إبراهيم عالمشاهى فقد درس القانون فى تركيا ، وهو من أوائل الكتاب الأفغان الذين هاجموا فساد الأجهزة الإدارية الحكومية ، وخاصة فى الأقاليم والمناطق الريفية .

وهكذا – وبصورة تدريجية – صارت لكتابة القصة سوق رائجة فى أفغانستان ، ومن أشهر الكتاب فى تلك الفترة (محمد عثمان صديقى) و (عزيز الرحمن فتحى) و (جل محمد روندى) و (جلال الدين خوشنوا) و (عبد الرؤوف برشنا) الذى اهتم بالقصص الشعبى ، وتعتبر أعمال أمين الدين أنصارى التى بدأت تروج فى تلك الفترة من أفضل الأعمال القصصية وأقواها ، وذلك من حيث الشكل والمضمون ومراعاة الأصول الفنية الحديثة لكتابة القصة .

ومن رواد القصة القصيرة فى أفغانستان (على أحمد نعيمى) و (عبد الرحمن بجواك) وكذلك (نجيب الله توروايانا)الذى يتميز بكتابة القصة الأفغانية الواقعية ؛ فمعظم أعماله تدور فى إطار التاريخ الأفغانى ومعظم أبطاله شخصيات لها وجود فى تاريخ أفغانستان مما جعل البعض يعتبر أعماله نماذج للقصة التاريخية ، وهناك أيضًا (قيام الدين خادم) و (ضياء قارى زاده) اللذان اهتما فى أعمالهما بقضايا الوطن والسلام والدعوة للعمل والمساواة بين المرأة والرجل .

ومن الكتاب الأفغان البارزين فى تلك الفترة (محمد حسين غمين) و (عبد اللطيف آريان) و (عبد الرشيد لطيفى) ولكل منهم مجموعة من الأعمال المتنوعة ما بين الحماسية والتاريخية والغنائية ، ويسود المذهب الرومانسى أعمالهم.

ولا شك أن الأحداث السياسية والاجتماعية التى شهدتها إيران عقب انقلاب (مرداد ١٣٣٢هـ) الموافق (١٩٥٣م) أثرت إلى حد بعيد على الحركة الثقافية والفكرية والأدبية المعاصرة فى أفغانستان ، فقد تأسس فى تلك الفترة الحزب الشيوعى فى أفغانستان على غرار حزب

توده الإيرانى ، ومن ناحية أخرى لاقت الأعمال الأدبية الإيرانية صدى وقبولاً واسعًا لدى المفكرين والأدباء الأفغان ، وعلى سبيل المثال فإن أكثر من ٩٠٪ من الكتب الموجودة فى جامعة كابل فى تلك الفترة مطبوعة فى إيران.

ومع منتصف العقد السادس الميلادى من القرن العشرين فصاعداً اختصت القصة القصيرة فى أفغانستان بالواقعية الشديدة ، ولم يعد الكتاب الأفغان يهتمون بالصور الخيالية والشخصيات الأسطورية فى كتاباتهم ، واختاروا أبطال أعمالهم من الشخصيات العادية التى تعيش بين الناس ، وانتقل الكتاب بقضايا الأدب وموضوعاته من التقليدية والخيال والمثالية أحيانًا إلى الواقعية الشديدة الشاملة وخدمة قضايا المجتمع ، وجعل المحاور والموضوعات الرئيسة لأعمالهم تدور فى إطار الأحداث المهمة والمحورية ذات التأثير المباشر على مسيرة الوطن وحياة المواطن العادى ؛ أى أنهم جعلوا المواطن العادى محور اهتمامهم ، ودافعوا عن قضاياه ، واختاروه ليكون بطلاً لمعظم أعمالهم .

وقد ازدادت هذه الظاهرة عمقًا مع الانقلاب الدامى الذى وقع عام ١٣٥٧ هـ ش الموافق ١٩٧٨م وما تلاه من أحداث تمثلت فى قيام الحكومة الشيوعية ثم بعد ذلك الاجتياح السوفيتى لأفغانستان واستمرار عمليات المقاومة والجهاد ضد الوجود السوفيتى والحكومات الشيوعية المتعاقبة .

ويعتبر (محمد شفيع رهكذر) الصحفى الأفغانى ورئيس تحرير صحيفة (أنيس) واحداً من أبرز الكتاب الأوائل الذين هجروا

الرومانسية إلى الواقعية ، وتدور أحداث قصته " الحاكم " ما بين عامى ١٩٣٠ - ١٩٤٧م .

وتتحدث القصة عن التباين والاختلاف بين نمطين من الحكام : أحدهما عادل ، والثانى ظالم ، وقد صدرت أول طبعة لها عام ١٩٥٦م.

لقد وجد الكتاب الأفغان فى الفترة الأخيرة أنفسهم فى مواجهة تغييرات متلاحقة ومفاجئة وعنيفة ؛ فحاولوا معايشة هذه التغييرات والمشاركة فيها بأقلامهم ؛ فكانوا جميعًا ضد الاستبداد ، وهاجم معظمهم النظم الشيوعية التى كانت تحكم البلاد.

ومن مشاهير هذا التوجه ورواده ببرك أرغند وعالم افتخار وأسد الله حبيب الذى تعتبر أعماله بصفة خاصة نموذجًا للقصة القصيرة الأفغانية المعاصرة من ناحية الشكل والمضمون.

ولد أسد الله حبيب فى كابل عام ١٩٤١م ، وتخرج من معهد الدراسات الشرقية بجامعة موسكو عام ١٩٧٣م ، وله إسهامات متعددة فى مجال القصة والكتابة المسرحية ، كما أن له مجموعة قصصية قصيرة بعنوان " سه مزدور " (العمال الثلاثة) ، ويتميز أسد الله حبيب بقدرته الفائقة على تصوير وتجسيد الحياة الاجتماعية فى الريف الأفغانى.

وفضلاً عمن ذكرناه من كتاب ؛ فهناك كتاب آخرون هم أصحاب المجموعة القصصية القصيرة التى بين أيدينا وبعضهم ذائع الصيت والبعض الآخر ما زال مغموراً وهم حسب ورود قصصهم فى هذه المجموعة القصصية كما يلى :

سبوزمى زرياب :

ولدت عام ١٩٥٠م بمدينة كابل ، وأتمت دراستها الابتدائية والمتوسطة وما قبل الجامعية فى مدرسة الملالى ، وحصلت على درجة الليسانس فى اللغة الفرنسية من كلية الآداب بجامعة كابل ، ثم سافرت إلى فرنسا لاستكمال الدراسات العليا حتى حصلت على درجة الدكتوراه فى الأدب الفرنسى الحديث ، عادت بعدها إلى أفغانستان ، وواصلت أبحاثها ، واشتغلت بالتدريس لعدة سنوات.

كانت سبوزمى زرياب قد بدأت كتابة القصة منذ أن كانت طالبة ، وكانت توقع قصصها باسم " سبوزمى رؤوف " ، والقصص القصيرة التى وردت لها ضمن هذه المجموعة القصصية هى :

- السفر براً
- بائع الكتب المجنون
- اصطياد الملائكة
- رستم وسهراب

أعظم رهنورد زرياب :

يعد أعظم رهنورد واحداً من أبرز الكتاب المعاصرين فى أفغانستان ، ولد عام ١٩٤٤م بمدينة كابل ، وحصل على درجة الليسانس فى الصحافة ، كما درس فى إنجلترا ، وقد بدأ رهنورد زرياب كتابة القصة منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، وله إسهامات كبيرة فى مجال الأدب ، ومن أعماله المطبوعة ما يلى :

- آوازى ازميان قرنها

مجموعة قصصية طبعت عام ١٩٨٣ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

- مرد كوهستان

مجموعة قصصية طبعت عام ١٩٨٤ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

- دوستى أز شهر دور

مجموعة قصصية طبعت عام ١٩٨٦ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

- نقشها وبندارها

مجموعة قصصية طبعت عام ١٩٨٧ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

- تصوير

مجموعة قصصية كتبها باللغة الروسية عام ١٩٨٣ موسكو .

- بيراهنا

مجموعة قصصية ترجمها إلى الفارسية طبعت عام ١٩٨٦ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

- كَنِك خوابديده

مجموعة أعمال ودراسات نقدية نشرها عام ١٩٨٨ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

– حا شيه ها

– مجموعة مقالات أدبية نشرها عام ١٩٨٨ ، كابل ، جمعية الكتاب الأفغان .

ومن القصص الواردة له فى هذه المجموعة :

– الرجل الجبلى.

– النهر.

– ليتنى كنت حمامة.

– مدير المجلة.

– الخادمة.

– مدرس الرسم.

أحمد نظرى آريانا :

ولد أحمد نظرى آريانا عام ١٩٥٠م فى مدينة هرات الواقعة غرب أفغانستان ، وبعد أن انتهى من مراحل التعليم الأولية ، التحق بدار المعلمين فى هرات ، واهتم بدراسة الجوانب التربوية والتعليمية ، وبعد أن أنهى دراسته العليا فى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة كابل عمل مدرساً بالمؤسسة العليا لإعداد المعلم فى هرات.

كان أحمد نظرى قد بدأ كتابة القصة منذ عام ١٩٦٧م ، ويعكس فى أعماله القصصية المعاناة الشديدة التى يعيشها الشعب الأفغانى نتيجة للفساد المستشرى فى المجتمع من كافة الوجوه ، وتعتبر أعماله تجسيداً للواقع المرير الذى يعانيه المجتمع الأفغانى.

ومن القصص الواردة له فى هذه المجموعة :

- الخفافيش.
- الفريسة.
- ألن تزوجنى ابنتك؟

خليل الله خليلى :

ولد خليل الله خليلى فى مدينة كابل عام ١٩٠٦م ، وأتم دراسته فى كابل وتنقل بين العديد من الوظائف والمناصب الحكومية ، وكان سفيراً لأفغانستان ، وقت وقوع الغزو السوفيتى لأفغانستان ؛ فاستقال من منصبه احتجاجًا على هذا الغزو ، وانضم للمجاهدين يناصر قضيتهم ويساندهم حتى توفى فى مدينة بيشاور ودفن بها فى مقابر المهاجرين الأفغان .

ولخليل الله خليلى نشاط أدبى وعلمى كبير ؛ فهو شاعر أفغانستان المعاصر وواحد من أعلام الأدب الفارسى الحديث والمعاصر ، وله فى هذه المجموعة القصصية قصة قصيرة بعنوان" أسطورة ابنة أمير باميان" .

سيد مخدوم رهين :

واحد من أبرز الكتاب الأفغان المعاصرين ، وله فى هذه المجموعة القصصية قصة قصيرة تحت عنوان " اللوح الخشبى التذكارى " ، وهى قصة واقعية تدور أحداثها حول قيام الحكومة الشيوعية فى أفغانستان ، ويهاجم الكاتب فيها الحكم الشيوعى ، ويذكر خلالها بعض الأحداث والمشاهد الدالة على ما ارتكبه هؤلاء الشيوعيون من مظالم ومذابح فى حق الشعب الأفغانى البرىء.

محمد أكرم عثمان :

ولد محمد أكرم عثمان عام ١٩٣٧م بمدينة هرات الأفغانية ، وقد درس القانون والعلوم السياسية فى جامعات أفغانستان وإيران ، ومنذ عام ١٩٦٥م بدأ فى نشر أعماله الأدبية فى الصحف والمجلات الحكومية ، وقد طبعت بعض قصصه فى إيران وروسيا وألمانيا ، وأول مجموعاته القصصية القصيرة كتبها باسم مستعار هى " كوزهكر " ، وقد نشرتها جمعية الكتاب الأفغان فى كابل عام ١٩٧٤م ، وله إسهامات فى مجال كتابة الرواية.

وتضم هذه المجموعة القصصية قصتين قصيرتين لمحمد أكرم عثمان هما " شق الجدار " و " عندما يزهر البوص " ، وهما من مجموعته القصصية القصيرة التى كتبها تحت عنوان " شق الجدار " .

وبصفة عامة فإن هذه المجموعة القصصية القصيرة تعد قصصاً متواضعة من الجانب الفنى .

أما من حيث المضمون فهذه القصص فى مجموعها قصص واقعية ذات أبعاد اجتماعية وسياسية وثقافية متعددة تتناول الواقع الأفغانى المرير الذى عاشه ويعيشه الشعب الأفغانى بكافة طوائفه ، ويلاحظ أن كتاب هذه القصص أسهبوا فى وصف مظاهر البؤس والشقاء الذى يعانى منه معظم الشخصيات الرئيسة لهذه الأعمال ؛ مما جعل الجو العام لمعظم هذه القصص جوًا يبعث على الكآبة والحزن العميق ، خاصة وأنها تنتهى فى الغالب نهاية مأساوية قاتمة ؛ فهى ما بين موت أو يأس وانقطاع أمل ؛ مما جعلها تعبر وبصدق عن لسان حال الواقع الأفغانى المرير ، والذى ندعو الله ألا يطول به هذا الوضع ويعود الشعب الأفغانى مرة أخرى إلى موقع الريادة ، وهم الذين كانوا للفتح قادة وفى العلم سادة.

المترجمان

السـفر براً

منذ الصباح الباكر هناك قدح من الماء وإناء للبخور (مبخرة) موضوعان فوق رف كالح عال بالبيت ؛ حيث كانت تسود هالة من الترقب والوسوسة مما يبعث على الحزن.

وعلى مسمار ضخم بجدار الحجرة عُلقت ثياب عسكرية رثة تثير الحزن فى النفس ، وأسفل الجدار ، وعلى أرضية الحجرة ، توجد أحذية بالية قديمة.

لفّت المرأة رداءها " حجابها " حول عنقها ، وجلست على ركبتيها متجهة صوب القبلة ، ورفعت يديها العاجزتين " المرتعدتين " ، وراحت تتمتم ببضع كلمات عربية ، وراحت تنفث حولها ، لكن نظرها تشبث ولم يبرح قدح الماء وإناء البخور ، ثم نظرت بدهشة وذهول إلى الثياب المعلقة بالمسمار ، وراحت تقول فى هدوء :

- إلهى أعنِّى ونجِّنى من ظلم الظالم ومن الكافر والكفرة فى كافرستان ، وكانت دموعها تنهمر من عينيها فتضيع بين تجاعيد وجهها ، وجففت دمعها ، ونهضت وكأنها تذكرت شيئًا ، وتلاطمت درفات نوافذ الحجرة محدثة صوتًا وضجيجًا ، وفتحت المرأة الصندوق

" الخزينة " ، وأخرجت من الصندوق الحديدى الضخم سروالاً قطنيًا ، وأخرجت حجابها الذى ابيضّ من شدة قدمه وارتدته ثم وضعت قدمها فى الحذاء وأسرعت تغلق درفات المنزل المليئة بالتعوجات و الانثناءات ، ووقفت عند حافة البئر وملأت الدلو ، ودون أن تعلم – وبغير وعى – غسلت يديها وراحت تنادى قائلة:

– أيتها الأم خديجة سأذهب للزيارة إذا عاد صغيرى أكرم أخبريه ، وكانت كلمة أكرم الصغير ذات وقع خاص على أذنيها فراحت تكررها صغيرى أكرم صغيرى أكرم...

وتنامى إلى سمعها صوت امرأة أخرى يأتيها من خلف النافذة

– إلى أين أنت ذاهبة ؟ أو تعلمين ما الخبر فى المدينة ؟

– نعم أعلم ، ولكن قلبى لم يعد قادراً على الصبر ، أنا ذاهبة لزيارة المقربين والعارفين وأمسك بتلابيبهم حتى...

ولم تكمل جملتها حتى احتبست بحلقها الكلمات ، وكانت تريد أن تجهش بالبكاء إلا أن الزيارة كانت ما تزال حية ومتقدة فى ذهنها ، شعرت براحة مؤقتة وفتحت عينيها ، وراحت تعبث بالحصوات الموجودة حول البئر ، وقالت فى نفسها – بنغمة هى خليط ما بين اليقين والشك أو الطمأنينة والوسوسة :

– إنه منحوس الحظ .

– لن أبكى مرة أخرى .

وتوجهت صوب الباب بقدم راسخة ، وفتحت زنجير البوابة الضخم الذى كان قد اسود بفعل الزمان ، وأحدث الباب صوتًا خشنًا ، وقد تحرك الزنجير الملتف حوله ، وخرجت المرأة ، ولكنها استدارت مسرعة مرة أخرى ، وأطلت برأسها من فوق الباب داخل البيت ونادت:

– تعالى أيتها الأم خديجة وأحكمى إغلاق البوابة .

واستدارت خارجة ، وراحت تقطع الحارات الضيقة واحدة تلو الأخرى ، وكانت المتاجر مغلقة ؛ مما كان يبعث إحساسًا بالاضطراب والخوف والوجل فى كل مكان ، رأت المرأة على بعد عدة أقدام منها بعض الرجال واقفين يتحدثون ؛ مما أثار فضولها وحبها لمعرفة الخبر ؛ فانعطفت باتجاههم واقتربت منهم ، وكان هناك رجل ذو لحية طويلة تشبه سنابل الأرز وقد وضع فوق رأسه عمامة سوداء ضخمة ، وألقى على كتفيه شال طويل ، وكان يتخلل لحيته بأصابعه ثم يسحبها وقال:

– ابن الإنجليزى القذر .

أحست المرأة بعدم الارتياح من سماع كلمة إنجليزى ، وقد تجسدت فى عينيه الوحشية ، وكانوا ينظرون إليها بعيون ملونة طامعة يسودها العنف ، وشعرت كأن صدرها بداخله قوافل من النمل اللادغ ، لكنها شيئًا فشيئًا لم تعد تسمع شيئًا ، وأسرعت الخطى تطوى الحارات والشوارع الضيقة واحدة تلو الأخرى حتى أفاقت على همهمة ؛ فقد وصلت إلى المكان الذى كانت تريده ، وكل ما كان بذاكرتها من أشياء أخرى انمحى وتبدد ، ودخلت من الباب حيث كان يوجد هناك رجال ونساء كثيرون تشوب نظرتهم جميعًا نوع من الأمل وشعور بالارتياح الممزوج بنوع من الاحتياج ، رفعت المرأة عقدة نقابها وأوثقته أو ربطته

وعقدته بيديها بطريقة معينة حتى تكاد عيناها ترى بصعوبة ، وكانت تريد - بأسرع ما يمكن - أن تجد لها مكانًا وتطهر قلبها وتفرغ ما فيه فتقدمت وخلعت نعليها ، وكان هناك رجل عجوز جالسًا بجوار الباب وقد أمسك بخشبة طويلة يرفع بها الأحذية بمهارة فائقة ويصفها بالركن الآخر ، وألقت المرأة بنظرة عابرة إلى ذلك الركن حيث تلك النعال البالية والحديثة ، والتى كانت تطل بأنوفها المعوجة إلى كل المارة فى وضح النهار ، ثم قالت المرأة بسم الله ، ووضعت قدمها المحناة فوق الحجر البارد على الدرجة الأولى من السلم الأبيض ، وصعدت أيضًا فوق سلم ضيق آخر ، وقالت بسم الله مرة أخرى ، واتجهت يمينًا حيث كانت توجد نافذة خشبية بأحد الجوانب كان بداخلها ضريح ضخم لا تظهر أحجاره ، وقد غطته قطع منقوشة ، ووقفت المرأة للحظة ، ورفعت رأسها وأمسكت بيديها الأقفال المعلقة بالنافذة الخشبية وقبلتها ، وانسابت دموعها تبلل الأقفال فى صمت وهدوء ، وكان هناك شيخ عجوز ذو عمامة ولحية بيضاء يجلس على ركبتيه ومعه مسبحة طويلة حباتها خشبية صغيرة ، كان يرسل حباتها بسرعة ، ومع حركة كل حبة كان يتحرك هو الآخر ، وكان ينطق أو يتمتم بكلمات عربية مسموعة بوتيرة خاصة .

واقتربت أم أكرم صوب تلك الناحية ؛ حيث وضع القرآن الكريم فوق تلك الدرجات الثلاث المرتفعة ، وقبلته لعدة مرات ، ومسحت عينيها فى إيمان عميق ، وكما هو معروف فى مثل هذه الأماكن كان يوجد على الجدران أدعية مطبوعة على أوراق صفراء اللون ، وكانت هناك امرأة عجوز أخرى تقوس ظهرها ، وتساقطت أسنانها وتدلت شفتاها ، جلست منكسة الوجه وقد استندت بظهرها إلى الجدار ، التفتت أم أكرم إليها وتوجهت صوبها وجلست بهدوء إلى جانبها ، وتحدثت ببطء إليها وقالت :

– أبك حاجة ؟

أومأت المرأة العجوز برأسها ، وانتهت من الدعاء الذى كانت تردده وقالت : نعم ، لقد أخذوا ابنى أيضاً .

– لمعت عينا أم أكرم ببريق خاص ، وكأنما أسعدها أن تجد من يشاركها السر ، وكأنما وجدت من يواسيها ويشاركها الآلام.

إن المشاركة فى الأحزان والآلام تقارب بين البشر ، وتجعلهم أشد تلاحماً واقتراباً والعثور على شريك فى الحزن من شأنه أن يوجد نوعاً من التسرية والترويح مهما بلغت جسامة ذلك الحزن ، وهكذا كانت هاتان المرأتان وقد جلستا فى مواجهة الضريح الضخم وأسندتا ظهريهما إلى الجدار ، وعلى الرغم من وجود كرب عظيم جعلهما كسيرتين حبيستين فى سجن العذاب والحيرة ، تسبح كلتاهما داخل بحر من الضيق واليأس الصامت ؛ فإنهما تعارفتا بعد لحظة ، وصارتا أكثر قرباً واقتراباً من بعضيهما .

وفى سكينة وهدوء بدأتا بالبوح عن عذابات قلبيهما .

ذلك العهد – وخاصة خلال تلك الأيام – أظل حزن عام بجناحه فوق كل البيوت ، فما من بيت إلا وكان يُرسل واحد منه إلى الحرب سواء كان الابن أو الزوج أو الأخ أو الأب ، غير أن حزن أم أكرم كان أعظم وأجل ؛ فقد كان ابنها الوحيد ، أكرم هو العائل الوحيد ، وكان له فى سوق كابل محل (للحياكة) فى تلك السنوات لم تكن الشوارع والحارات المواجهة لمسجد " بل خشتى " كما هى الآن ، بل كان السوق مسقوفاً على هيئة أقبية ، وقد اصطفت المحال على جانبيه ، وكان هذا

السوق هو أشهر أسواق كابل . رفعت أم أكرم بصرها وقالت ابنى أيضًا وكأنما أراد قلب تلك المرأة العجوز المكلوم أن يسرى عن أم أكرم فقالت بتعطف : يقولون إن ابنى أيضًا - كما قال الأمير - فى الجهاد ، وهذا هو الثواب والفلاح ، فلو عاد بخير فهو غاز ومجاهد ... وإذا...

وهنا صمتت برهة ، وكان قلبها يتمنى لو أنها ما رددت كلمة " وإذا " ، وحين رأت عين محدثتها مترقبة مغرورقة واصلت الحديث قائلة :

إذا لا قدر الله فإنه - بمشيئة الله ، وفى سبيل الله - سيصبح شهيداً .

وكانت أم أكرم تعلم أنها لا تريد عوضًا عن ابنها أكثر الكلمات خداعًا وأكثرها عبثًا وسخرية ، ولكنها لم تقل شيئًا ، وراحت تواسى نفسها.

- ما الذى بوسعنا أن نفعله فى مواجهة الموجة العامة التى تجتاحنا جميعًا ؟

هبت واقفة من مكانها مرة واحدة ، ووقفت فى تواضع جم بجانب الصارى الخشبى المرتفع ، والذى كانت تكسوه قطعة قماش حمراء ، وربطت عليه اللفافتين اللتين كانت قد أحضرتهما معها ، وراحت تحكم ربطهما بعقد متتالية ، وعادت إلى مكانها مرة أخرى ، وجلست بجانب المرأة العجوز وقالت :

- لقد عقدت العزم وأقسمت بأننى سأقدم نذرًا ثمينًا إذا ما انقشع خطر الإنجليز عن البلاد ونجا ابنى أكرم وشباب المسلمين وعادوا

سالمين ، وسرت مسحة من التفاؤل فى عين المرأة العجوز الحائرة ، وأومأت برأسها ، ثم قالت بلهجة عصبية :

لو سيطر الإنجليز على البلاد ، ما الذى سيحدث ؟ ولن يتبقى لدينا شىء ، وكأنها بقولها هذه الجملة اعترى الخوف جسدها . . .

- التوبة التوبة ، يا إلهى التوبة.

وسجدت بجبينها على الحجر البارز " العتبة الباردة " ، ثم نظرت إلى عينى أم أكرم وقالت:

" لا تحزنى ، فالله يفعل ما يشاء ، وإرادة الله هى الغالبة " .

وبدت نظرة أم أكرم وكأنها عابد ينظر إلى معبوده ، وتمتمت قائلة :

- واسترخيا للحظات ، وفى النهاية اقتربت أم أكرم برأسها من أذن المرأة العجوز وهمست قائلة لها:

- سنرحل الشهر القادم ، وستمكثين أنت ها هنا . . .

رفعت المرأة العجوز رأسها وقالت :

- حسنًا اذهبوا ، فقد سافر ابنى أيضًا فى حفظ الله وفى سبيله حتى ينقذ غيره من المسافرين الآخرين ، ويعود بهم سالمين غانمين. . .

قالت أم أكرم : آمين ، ونهضت من مكانها ؛ لأن وجهها كان باتجاه الضريح ؛ فقد انسحبت بكل أدب واحترام وخرجت من الباب واجتازت الدهليز وهبطت من على الدرج ، وعند الباب كان هناك رجل عجوز وضع نعاله أمام قدمه مستعملاً خشبته ناظراً إلى يديه .

توقفت أم أكرم وفتشت داخل جيوبها ؛ فأخرجت صرة معقودة وفكتها ، وألقت بعملة معدنية بجانب النقود الأخرى التى كانت توجد أمام الرجل .. وتوجهت صوب الغرفة الكبيرة الأخرى ، وتضرعت هناك وتمتمت بالدعاء ونذرت ثم عادت.

فى تلك الليلة جلست مع ابنها أكرم حتى وقت متأخر ، وتحدثت فى شتى الأمور ، وجمعت ثياب ابنها فى صرة كبيرة وعقدتها ، ووضعت قطعة لحم مطهوة فوق رغيف ولفتها فى منديل آخر.

كان أكرم شابًا لطيفًا هادئًا ممشوق القوام عريض الجبين ، تبدو على وجهه سمات الأصالة والشهامة منذ طفولته ، وهو يخشى الحرب والقتال ، وفى تلك الليلة كان ينظر إلى أمه باضطراب ممزوج بالألم ، وحين ذهبا للنوم لم تغمض الأم جفنها حتى الصباح ، وكانت تتقلب على جانبها تحت الغطاء ، وأحيانًا ما كانت ترنو ببصرها تحت جنح الظلام صوب مخدع أكرم الواقع عند ذلك الطرف البعيد تلهث بالدعاء وتملأ المرارة حلقها ، وكثيرًا ما كان يغالبها الشعور بالرغبة الجامحة بالانخراط فى البكاء.

ومزق صوت الديك المجاور جدار الصمت ، وجلس أكرم الذى لم يذق النوم حتى الصباح ، جلس على سريره ، وأطاح برأسه للخلف وتثاءب بعمق ، وشخص ببصره عند نقطة فى الظلام ، ثم نهض من موضعه .

ارتدى أكرم ثيابه فى صمت مشوب بالأسرار ، وألقى بالصرة الكبيرة فى صندوق قديم وجفف عينيه المغرورقتين بالدمع بظهر يده ، وقبل يد أمه.

نفد صبر الأم ، ثم تعلقت بعنق ابنها بذراعيها وأجهشت بالبكاء ثم جففت عينيها بطرف ثوبها ، وقبلت القرآن الكريم ووضعته بمكان مرتفع فوق بوابة الحجرة ، وجعلت ابنها يمر ثلاث مرات تحت القرآن ثم ألقت بالبخور فوق النار ، وكانت تمسح دمعها بطرف ثيابها وتجرى على شفتيها بعض الكلمات ، وتناولت قدحًا وملأته بالماء ، وهبط الاثنان على السلم.

تجمع الجيران حوله فى الفناء ، وكان النوم مازال يداعبهم ورافقوا أكرم حتى الباب ، كان أكرم صامتًا ، وبعد ذلك استودع الجميع بصوت متحشرج وخرج من الباب ، وكانت أمه تعتقد أنها أفرغت قدح الماء خلفه على أمل أن يعود بأقصى سرعة.

واليوم تمر سنوات وسنوات على ذلك اليوم ، وأصبح دعاء المرأة العجوز مستجابًا ولم يسيطر الإنجليز على هذه الديار وعادوا من حيث أتوا ، أما أكرم العزيز وغيره من الأعزاء الكثيرين فإنهم لم يرجعوا مطلقًا .. وكان سفرهم بلا رجعة ولا يعلم أحد أين مات أكرم.

أما أمه الحائرة فقد ازدادت حيرة... وانتهى بموتها انتظارها الذى لم تكن له نهاية .

شهر سنبله ١٣٤٨ هـ.ش ١٩٦٩م

بائع الكتب المجنون

توجد ثلاث حارات يربط بينها ميدان ، وفى الميدان كانت توجد العديد من المحال ، مثل : محال الجزارة ، وبائعى الخبز والحلوى ، والصيدلية ، كما كانت توجد مكتبة ، فى الصباح كان الناس يأتون من داخل تلك الحارات ويقطعون الميدان قاصدين أعمالهم.

فى المساء كان هذا السيل من البشر يعود من أعماله بعيون غائرة وشفاه صامتة ملتصقة ، وكان الناس يعبرون الميدان الكبير ، ويتوزعون على الحارات الثلاث ثم يختفون بعد ذلك ، كل هؤلاء البشر أصحاب العيون الغائرة كانوا ينظرون إلى موضع أقدامهم فقط كأنهم ما كانوا يستطيعون رؤية شىء آخر ، وإنما شفاههم صامتة فلا تعرف البسمة طريقها إليهم

وقبيل الغروب بقليل كانت أبواب المحال تزدحم أكثر بالناس ، وكان الناس يحملون تحت إبطهم مجموعة من الصرر الكبيرة أو الصغيرة ثم يتابعون سيرهم وهم ينظرون تحت أقدامهم ويختفون داخل الحارات الثلاث ، لكن أحدًا لم يكن يتوقف مطلقًا بباب المكتبة ، وكان بائع الكتب يتفحص المارة بنظراته من الصباح حتى المساء من خلف النافذة ، وكان

الجميع يعمل حسابًا له ؛ حيث كان رجلاً قوى البنية له ملامح قوية عريض المنكبين قوى الساعدين.

وعندما يأتى المساء كان بائع الكتب ينظر إلى ساعته ويستقيم فى جلسته راسخًا فى مكانه ويدقق فى الناس بنظرته ، فكان يرى الناس الغائرة عيونهم ، والذين ينظرون تحت أقدامهم وينادى قائلاً :

– هل من مشترٍ ؟

كان كل أولئك الذين يمرون بالقرب من دكانه ينتبهون وينظرون إليه ؛ فكان بائع الكتب يشير بإصبعه إلى أحدهم ويقول له : تعال .

فكان الرجل يقترب ، ويتناول بائع الكتب من على الرف كتابًا ويقول للرجل :

– اشتر هذا الكتاب .

فإذا ما كان المشترى يأخذ الكتاب ويترك ثمنه فإنه لا يحدث شىء ... أما لو كان يرفض فإن بائع الكتب كان يمسك معصم يده بقبضته ويظل يعتصرها ويضغط عليها حتى يتلوى المشترى من آلامه ، ويخرج بيده الأخرى النقود ويضعها فى الصندوق ، حينذاك كان البائع يترك يده ويأخذ المشترى الكتاب ، وينصرف ، كان أولئك الذين كانوا يشترون الكتاب بهذه الطريقة ويختفون داخل الحارات الثلاث كانوا إذا ما وصلوا نهاية الحارة ينظرون هنا وهناك ثم يفتحون غلاف الكتاب وينظرون إلى تلك الكلمات المطبوعة السوداء وقد تلاصقت بجوار بعضها البعض ، ويعتصرون الكتاب بين طيات أصابعهم ويمزقونه ويفركونه بين أيديهم ويلقون به بعيداً عنهم بكل ما أوتوا من قوة ، وبعد

ذلك يتـابعون السـير بهـدوء وعيـونهم غـائرة وهـم ينظرون تحت أقدامـهم ببرود.

وفى الصباح كـان الناس يظـهرون مـرة أخرى من داخل الحـارات الثلاث ، ويعبرون الميدان الكبير ، ويذهبون إلى أعمالـهم ، وكانت نظرات بائع الكتب تبحث بترقب عن مشترى الأمس من بين الناس ، وحين كان يجده ينادى عليه :

- أيها السيد .

يقف المشترى ، فيشير إليه بائع الكتب بإصبعه ويقول :

- تعال .

كان المشترى يتوجه صوبه وهو خائف فيسأله بائع الكتب:

- هل قرأت الكتاب ؟

كان المشترى يرد :

-... نعم .

ويسأل بائع الكتب مرة أخرى :

- هل كان جيداً ؟

ويرد المشترى :

- أجل ، وبخاصة ذلك الرجل الجذاب ، ذلك الرجل النحيف ، يشير بائع الكتب برأسه بارتياح ويقول :

- أجل ، رائع ، كل شىء رائع جذاب.

يقولون إنه حين كان يوشك الليل على الانقضاء ، وتخلو المدينة من السكان كان بائع الكتب يتناول مصباحه ويجوب الحارات الثلاث حتى نهايتها واحدة تلو الأخرى ، فكان يجد بقايا أوراق كتبه الممزقة هنا وهناك فيجمعها فى طرف ثوبه ويعود إلى دكانه ، ويضع برفق كل كتبه الممزقة والمعصورة فوق الطاولة ويجلس خلف الطاولة وينبش شعره بأيديه وينتحب بشدة ، وتنهمر دموعه من أطراف عينيه ، وتأخذ شكلاً ملتويًا عند طرفى أنفه لتسقط فوق منضدة بجانب قطع أوراق الكتب الممزقة ؛ فكان ينظر إلى الكتب وينوح ويقول :

– قتلوك ، قتلوك أوه .. أوه قتلوك ، وكان يجفف بظهر يده عينيه المغرورقتين بالدمع وينهض من مكانه ويعد نقوده ويضعها فى الصندوق ، ويضع الكتب الممزقة والمعصورة أوراقها داخل صندوق آخر.

وبعد ذلك يخرج من خلف الكتب مرآة كبيرة ، ويثبتها بجانب المصباح ويجلس أمام المرآة ويهندم نفسه وينظر إلى ظله وشكله ؛ فكان أحيانًا يباعد بين طرفى فمه ، وأحيانا أخرى يقارب بينهما ، وأحيانا ما يضع إصبعيه عند طرفى فمه وكذلك يسحب شفتيه فى اتجاه أذنيه ويتأكد أن أسنانه بيضاء ، ثم يقترب برأسه من المرآة وينظر إلى خصلات شعره البيضاء واحدة واحدة فينزعها ويضعها على حافة الطاولة ثم يعيد المرآة ويخفيها فى مكانها ، وكان ينظر إلى كومة شعره الصغيرة البيضاء ويضعها على راحة يده وينفخها فى غيظ فتضيع وتختفى كل الشعيرات بين كافة الأركان ، وعند الصباح كان يعثر على زبون الأمس ويسأله :

- هل قرأت الكتاب ياسيدى ؟

يرد المشترى :

.. نعم .

فكان بائع الكتب يسأل مرة أخرى :

- هل كان جيداً ؟

يرد المشترى :

- أجل ، وخاصة ذلك الرجل الرشيق الجذاب.

كان بائع الكتب يشير برأسه ويقول:

- أجل رائع جذاب ، كل شىء رائع جذاب.

كانوا يذكرون أن بائع الكتب هذا أصيب بالجنون ذات يوم ؛ فحمل كتبه فى منتصف الليل وفر من مدينته وجاء إلى هنا وفتح مكتبة ، ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش وحيداً منعزلاً.

ذات يوم توقفت عند مدخل دكانه فنظر إلىّ بتعجب وراح يحملق فىّ ثم قال بغير اكتراث : هل ستقرأ كتابًا ؟ (هل تريد كتابًا ؟)

قلت :

- نعم .

فنهض من مكانه واتجه صوب أرفف الكتب ، فتقدمت برأسى ونظرت بدقة وتمعن داخل مكتبته ، كانت منظمة تمامًا ، كل الجدران

مملوءة بخزائن الكتب ، وكانت الخزائن بدورها مليئة بالكتب الضخمة والصغيرة ، وكانت هناك صورة معلقة أسفل أحد الخزائن ، وقد تم تفريغ ما حولها بدقة متناهية ، كانت الصورة ساخرة مضحكة ، إنها لمخلوق أو شيء يشبه الإنسان كان ساجداً على أطرافه الأربع واضعًا يديه أمام ركبتيه ، كانت أذناه كبيرتين جداً مثل حلقتين كبيرتين وقد مال بعنقه ، وكان فمه مفتوحًا حتى وصل حلمة أذنه ، وأخرج لسانه كأنه يقهقه ضاحكًا ، وكانت عيناه مستديرتين ، كانت الصورة خضراء اللون ، بائع الكتب قد وضع بعنقها سلكًا أو خيطًا وعلق بها حلقة ، كان هذا المنظر دائمًا فى حالة اهتزاز فى الهواء وقد جلس ساجداً على أطرافه الأربع ، كان هناك منظر آخر وضع بأعلى خزينة كتب داخل إطار هو رجل فى منتصف العمر له جبهة عريضة وطلعة مهيبة تنظر عيناه وتحملق فى الآفاق البعيدة وقد تلاصقت شفتاه وجلس جلسة مستقيمة ، وكأنما أصبح جافًا بسبب تعاقب السنين .

وعلى مسافة أبعد كان هناك تمثال حجرى أبيض موضوع فوق أحد الخزائن ، وكان عبارة عن رأس رجل فقط ، رجل ذو شعر طويل ملىء بالتموجات وقد استرسل شعره حتى وصل كتفيه ، وكانت عينا التمثال تنظر إلى الأمام وقد انعقدت والتصقت شفتاه بإحكام شديد ، قام بائع الكتب بوضع الكتاب فى الفتحة الصغيرة وأعطيته نقوده وأخذت الكتاب ، وأخذت طريقى فى اتجاه واحد من تلك الحارات الثلاث وانصرفت ، وعندما وصلت إلى نهاية الحارة لم أعلم لماذا فتحت غلاف أو صفحة الكتاب ونظرت إلى الكلمات المطبوعة السوداء ، والتى كانت متراصة بجانب بعضها البعض ، وكأنها ساجدة على أطرافها الأربع ثم

مزقت الكتاب نفسه وعصرته بيدى ، وألقيت به بعيدًا بكل ما أوتيت من قوة ونظرت عن بعد إلى منظر الكتاب الممزق والمبعثرة أوراقه ، وسلكت سبيلى أتابع خطاى ، وانصرفت.

ومن بعد ذلك كنت أسلك فى العودة والذهاب الدروب المنحرفة والملتوية ولا أقترب بأى صورة من محل بائع الكتب ، فلم أكن أرغب فى أن يسألنى بائع الكتب إذا ما كنت قد قرأت الكتاب أو لا.

مرت سنوات وظهرت شعيرات بيضاء فى شعرى هنا وهناك ، وكان الناس ما يزالون مع كل صباح يأتون من نفس الحارات الثلاث ، ويجتازون الميدان الكبير ويذهبون إلى أعمالهم... وما تزال عيونهم كما كانت غائرة عميقة وشفاههم ملتصقة لا يبتسمون ، وفى المساء كانوا يجتازون نفس الميدان مرة أخرى ويختفون ويضيعون وسط الحارات الثلاث ، وكانت نظرات بائع الكتب ما زالت أيضًا تحملق وتتفحص جموع الناس منذ الصباح الباكر ، وعند المساء كان ينادى على أحد الرجال ويجبره على شراء كتاب.

وكان الناس أيضًا عند نهاية الحارات يمزقون الكتب ويبعثرون أوراقها ، وكذلك أيضًا كان بائع الكتب عند منتصف الليل يجوب الحارات الثلاث حتى نهايتها وفى يده المصباح ، ويلملم قصاصات أوراقه وكتبه فى طرف ثيابه ويعود ليضعها فوق طاولة دكانه ، ويبكى فى نحيب " أوه ، أوه "

وذات يوم وبعد عدة سنوات صرت تائهًا وضائعًا أنا أيضًا بين جموع الناس التى لا تعرف الابتسامة ، كنت أنظر وقع أقدامى ، ويبدو

لى أن عينى صارت غائرة عميقة والتصقت شفتاى ببعضها وسمعت ذات مرة شخصًا ينادى :

– أنت : باش .

– توقفت ورفعت نظرى من على الأرض بهدوء : إنه ثابت القدمين محكم الخصر رشيق ، أكثر عرضًا عند النصف الأعلى ، أكتافه عريضة ، رقبته ضخمة ، شفتاه سوداء اللون ، ثم استقرت نظرتى بعينيه وعرفته ، لقد كان بائع الكتب المجنون.

كان شعره أسود اللون ، قلت فى نفسى من المؤكد أنه ينزع معظم الشعيرات البيضاء من شعره أثناء الليل واحدة واحدة ، وقد بدت بعض التجاعيد حول عينيه وكذلك بالقرب من شفتيه ، وسألنى :

– هل قرأت الكتاب ؟

تذكرت أننى منذ عدة سنوات كنت قد مزقت الكتاب دون قراءة فى آخر الحارة وبعثرت أوراقه وألقيتها بعيداً بكل ما لدى من قوة ، وتذكرت أنه ربما يكون بائع الكتب قد عثر على قطعات كتابه منتصف الليل فى نهاية الحارة ، فقلت:

– لا .

انحنى برأسه ثم عاد ورفعها بسرعة وقال فى خجل : إنى أعلم ...

أعلم كل شىء ، ومع ذلك قل نعم قرأته ، وكان جيداً ، قل..قل.. وبلا تكلف ودون مبالغة مكثت ، ولم أكن أعلم ماذا أفعل وبقيت صامتًا

وكانت شفتاى قد خبطتا ببعضهما ، ومرة واحدة أمسك معصمى بقوة وراح يضغط بأصابعه وقبضته على معصمى ، فأحسست بألم بالغ فى معصمى ، حتى ظننت أن عظام معصمى قد تحطمت وقال :

- كرر ورائى .

- أكرر .

ونظر إلىّ بحياء وخجل وقال :

- قل قرأت الكتاب .

رددت خلفه :

- قرأت الكتاب .

- عاد وقال :

- كان جيداً ، كان جذاباً .

ورددت أنا خلفه :

- كان جيداً ، كان جذاباً .

ترك يدى وأطرق برأسه وقال :

- حقًا ممتعًا ، ممتعًا .

كان معصمى يؤلمنى ، وكنت أرتعد من بائع الكتب المجنون ، وعاد وأمسك معصمى بين أصابعه وقال باستحياء :

- تعال معى .

لم يقل شيئًا آخر ، وسرت بجانبه :

طال بنا قطع الطريق وسرنا عبر حارات وشوارع ضيقة مجهولة ، كان الناس يطلون من النوافذ برءوسهم وينظرون فى تعجب إلىّ أنا وبائع الكتب ويهمسون ويتهامسون فيما بينهم وينظرون ببلاهة إلى بعضهم البعض.

كانت الحارات عفنة تفوح من كل مكان وصوب رائحة ضارة قذرة .

مرة واحدة انتبهت إلى هذه الرائحة ، فهى رائحة معروفة ، رجعت إلى الوراء لعدة سنوات ، واسترجعت أيام طفولتى ، فى تلك الأوقات كنا نذهب أيام الجمعة إلى المقابر ، ونجلس بجانب جدى لساعات ، وكنا نبكى بحرقة.

كانت المقابر خارج المدينة ، وفى الطريق إليها يوجد مسلخ كبير ، وخلال فصول الصيف كانت رائحة عفونة المسلخ تفوح منه وتصل مسافات بعيدة ، إنها رائحة الدم واللحم المتعفن.

وكنا جميعًا نحكم إغلاق أنوفنا بأن نضع عليها أصابعنا ، وكانت العفونة تثير داخل الإنسان الرغبة فى التقئ ، وكنا نسرع الخطى ، وكانت قدماى قصيرتين ، وكنت أتعب سريعًا وألهث وأبكى وأقول:

– لقد عجزت.

فكان أحد رفاقى يمسك معصمى بإحكام ويجرنى خلفه ويتألم معصمى ، وكنت أجرى بلا إرادة وتلقائية ، وأحيانًا ما كانت تبقى رجلاى القصيرتان معلقتين فى الهواء ؛ فكانوا يحملوننى ، وتذكرت أنه

ذات يوم عندما كنا نمر بجانب المسلخ وكنت قد أحكمت إغلاق أنفى بإصبعى أطليت برأسى ونظرت داخل المسلخ ، وكانت هناك بقايا قطع سوداء ضخمة من الدماء المتيبس فى كل مكان ، وهناك أيضًا كتل من الدماء الحمراء الساخنة الحارة ، وكانت الأبقار والخراف والجمال واقفة بلا مبالاة تضرب بأهدابها وتلوى أعناقها وتمدها وتنظر حولها ·

وحولهم كان يقف رجال أقوياء شداد لهم سواعد مفتولة ومناكب عريضة توحى نظراتهم بالتحفز والهجوم ، شفاههم خشنة غليظة سوداء تمامًا مثل ملابسهم ، وكانت السكاكين والسواطير معلقة تتدلى من وسطهم ، وكانت هذه الأسلحة البيضاء تبرق نوراً فى ضوء الشمس ، وكان أحدهم جالسًا على ركبتيه يذبح خروفًا ، ولم يكن قد انتهى من ذبحه حتى كان الدم يسيل من عنق الخروف كالفوارة ، ولم يكونوا مغلقى أنوفهم وقد تطبعوا واعتادوا هذه العفونة بعد ذلك وليال طوال كنت أرى فى المنام نفس هؤلاء الرجال والمسلخ والخراف ، وكنت أفزع من النوم ·

– لماذا أغلقت أنفك ؟

– يأتينى صوت بائع الكتب ، وكنا ما نزال نطوى الطريق ومعصمى بين أصابعه ، قلت :

– ألا تؤذيك هذه العفونة ؟

قال :

– لا .

سألت :

- ما هذه الرائحة؟

قال فى برود شديد:

- لحم فاسد ، ودماء.

فعدت أسأل:

- هل يوجد مسلخ قريب؟

أجاب

- لا..

رفع رأسه وأشار بإصبعه تجاه النوافذ وواصل فى غاية البرود:

- لا .. إن هذه الرائحة تهب وتأتى من تلك المناطق.

تملكنى الخوف ، وكنت أرى الناس الذين يختلسون النظر من النوافذ.

- سألت بائع الكتب :

- ما شأنك بى ؟

- قال:

سأتحدث معك .

سألت نفسى فيما يتحدث معى ، ولكنى لم أقل له شيئًا آخر .

ووصلنا ميدانًا صغيراً ٠

جر بائع الكتب يدى وقال:

– اجلس .

جلست وجلس هو أيضًا ، وقال بلا أدنى مقدمة :

– عليك أن تشترى كل كتبى .

نظرت إليه بعدم اكتراث .

– لا ، لا لن أشترى .

سأل غاضبًا :

– لماذا ؟

– قلت : لا يوجد معى ذلك القدر من المال .

مال بعنقه وقال:

– سأمنحها لك بمبلغ زهيد .

قلت مرة أخرى :

– لا يوجد معى أى شىء من المال على الإطلاق .

رفع صوته عاليًا وقال :

– سأمنحك كل الكتب " مجانًا " ودون مقابل .

صرت حائرًا وقلت:

– لا يوجد لدى مكان أضع فيه الكتب.

قال :

– ولكنك ستأخذها .

عدت أقول :

– لا لن آخذها .

فى هذه المرة قال ملتمساً :

– انظر ستأخذها .

أجبت قائلاً:

– لن آخذها .

لوى عنقه وقال :

– خذها .

خفض من صوته ، وكأنما يهمس فى أذنى وقال :

– خذها ، واذهب أيضًا مثل الآخرين إلى نهاية الحارات ومزقها وبعثرها وألق بها بعيداً ، ولكن قل لى إنى سآخذ الكتب ! قل !

مكثت صامتًا ، شفتاى ملتصقتان ببعضهما ؛ فصرخ بائع الكتب:

– قل !

كنت أنظر إليه وأنا صامت بلا حراك ، وعاد وقبض بأصابعه على معصمى وضغط بشدة ؛ فتصورت أن معصمى قد كسر وكنت أتلوى من شدة التألم ، وزاد بائع الكتب من الضغط على معصمى وقال :

- ردد ورائى : سآخذ الكتب.

كررت خلفه :

- سآخذ الكتب .

وكان الصوت منخفضاً مختنقاً ، كان الألم يعتصر معصمي ، ولم أعد أستطيع السيطرة أو التحكم فى أصابعى ، ونظرت إلى ظهر يدى فإذا بالشرايين والأوردة قد انتفخت وازرق لونها.

- حسناً ستأخذ الكتب ؟ حقاً أنت مسرور منى ؟ ابتسم .

انتابتنى الحيرة ؛ فلم أكن أجد أو أفهم العلاقة بين هذه الأسئلة ، وكنت أراه وقد بدأ يتلطف.

إن كافة الكتب التى قد رأيتها فى المكتبة وكانت منتقاه ومنظمة ومرتبة فى مواضعها بدت فى نظرى يشع منها النور والضياء ، وراحت عناوين الكتب تكبر وتكبر وتتضاخم ، كرر قائلاً :

- ابتسم أرنى الابتسامة.

كنت أنا مثل كل أهل المدينة لا أعرف الابتسامة ، وقد التصقت شفتاى ، فعاد غاضباً وأمسك بمعصمى وبدأ فى الضغط عليه وقال :

- قلت لك ابتسم .

– قلت : كيف أبتسم ؟

وبدا صوته لى خفيضاً ، وكما كنت قد سمعت أنه أثناء الليالى كان يجلس أمام المرآة ويهندم نفسه ، فقد أدخل طرفى إصبعيه عند جانبى فمه وجذب طرفى فمه فى اتجاه أذنيه حتى بدت أسنانه البيضاء واحدة تلو الأخرى وقال :

– هكذا .

أصابتنى الدهشة منه ؛ فالوضع الذى كان عليه فمه لا يشبه الابتسامة على الإطلاق ، خاصة وأنه هو أيضاً لا يذكر الابتسامة ، وقد صرت أنا كالحجر التصقت شفتاى ، كنت أشير بأهدابى بهدوء ، وكنت أنظر إليه ؛ فاشتاط بائع الكتب غاضباً ، وكانت ترتعد شفتاه وقد انتفخت عروق عنقه وازرق لونها وغارت التجاعيد الموجودة فى جبهته وحول عينيه ، وكان يلهث بأنفاسه ورفع إصبعه مهدداً وصرخ غاضباً :

– إذا لم تبتسم سأذبحك كما تذبح الطيور .

– وتردد صدى صوته مرة أخرى فى أذنى :

– إذا لم تبتسم سأذبحك كما تذبح الطيور .

وبدت صورته أمامى غاية فى السوء .

كان جالساً على ركبتيه فتذكرت جزار المسلخ ، وبدت هيئته وصورته فى منتهى القذارة ولا أعلم لماذا لم أخشه على الإطلاق ، وكنت أرمقه بعينين خاليتين ، ولكنى لم أكن أتمكن من أن أباعد بين شفتى ، كان بائع الكتب ينظر إلىّ فى ذهول وقد بلغ به الغضب مداه ؛ فانتفض

فجأة وأمسك شعرى بكلتا يديه وراح يهز رأسى تطاير شعر رأسى ، فى الهواء ثم عاد وسقط فوق كتفى ، وكاد لحم رأسى يحترق من شدة الألم ، وعاد وصرخ مرة أخرى:

- ابتسم .

كانت أسنانى وشفتاى قد التصقت ؛ فكنت أنظر إليه دون أن أتحرك وكأنى صرت صخرة ، وراحت شفتاه ترتعد بشدة واحمرت عيناه ، وكذلك ظهر الاحمرار والاحتقان واضحين على شرايين وأوردة عينيه وتلاحقت أنفاسه بصوت مسموع ، ثم قفز فجأة وأمسك عنقى بقبضتيه، وبينما كان يضغط على حلقى صرخ:

- ابتسم .

كان فمه مفتوحاً بطريقة غير عادية ، وكان صفا أسنانه ظاهرين بالكامل ، وكان لسانه الأحمر ممتداً قال مرة أخرى :

- ابـ . . ابـ . . ابتسم .

وكنت أرى بداخل فمه فى حلقومه المعقد فى خلقته ولونه الأحمر كانت خلقته المعقدة المتداخلة ذات اللون الأحمر تهتز وترتعش ، كانت قبضتاه تضيق خناقى أكثر فأكثر ، وكانت أصابعه تضغط بشدة وهى تؤذى عظام عنقى . كانت أنفاسى محتبسة وقد سقطت يداى المعلقتان بجانبى كأنهما حجرين ، لم أكن أود أن أتحسس بيدى جسمى ، كنت مغضباً منه ، كنت مستاء من قبحه ، وكنت أرى طبقات حلقومه المعقد فى تركيبته ذى اللون الأحمر وهو يرتعش ، كان يصرخ :

- ابـ . . ابـ . . . ابتسم .

ضاقت بشدة تكور أصابعه وأخذت بقع سوداء تتراقص أمام عينى ثم البقع اللامعة ، تخيلت أن رجالاً يتعاركون خلف النوافذ ، ويصرخ أحدهم فى الآخر:

- ابـ.. ابـ ... ابتسم .

زادت البقع السوداء واللامعة ابتسامًا أمام عينىّ تضم ، لم أعد أرى شيئًا ، تخيلت أننى أسمع صوتا مكبوتا يأتى من بعيد:

- ابـ... ابـ.. تـ ... تـ... س..م .

اصطياد الملائكة

كانت ابنتى واقفة فى المطبخ بجانب النافذة ، وكنت أقطع البصل وهى تشاهد تساقط الثلج بعينيها الدائريتين ، لمحتها وهى سعيدة ومسرورة بمشاهدة حبات الثلج تتهادى نحو الأرض فى هدوء وعظمة ، وكان تساقط الثلج قد أثار فيها الخيال ؛ فأمسكت بطرف ثوبى وقالت :

– من الذى ينزل الثلج من السماء؟

قلت بلا تفكير وفى تلقائية :

– الملائكة.

لم تفهم شيئًا فواصلت حديثى قائلة :

– كل حبة ثلج يحملها ملك من السماء وينزل بها إلى الأرض .

سألت وقالت :

– من هو الملك ؟

– كائن نورانى .

منذ بضعة أيام كانت ابنتى قد أتمت عامها الرابع ، وهناك فى مخيلتها تصور نسبى عن الملك حيث كانت قد رأت صورة الملك فى الكتب المصورة التى كنت أجدها لها بصعوبة هنا أو هناك ؛ فهو مخلوق جميل له وجه صبوح وأجنحة بيضاء رقيقة ؛ فقالت فى تعجب:

– كل واحدة منها يحملها ملك وينزل بها حتى الأرض ؟

قلت :

– نعم .

لم تكن تستطيع رؤية تساقط الثلج بوضوح بجانب النافذة فجرت وأحضرت مجموعة من الوسائد ووضعتها فوق بعضها ثم اعتلتها وألصقت وجهها بزجاج النافذة لتشاهد باستمتاع ولهفة تساقط الثلج وهى صامتة ، فتحت عينى بصعوبة ، وكانت تؤذيها وتؤلمها رائحة البصل ، ونظرت إلى ابنتى ، فتخيلت أنها ترى مع كل حبة ثلج مخلوقًا جميلاً صبوح الوجه بجناحه الأبيض يهبط إلى الأرض ؛ فهى تتصور أن الفضاء مملوء بالمخلوقات الجميلة بديعة المنظر بأجنحتها البيضاء والتى احتضنت حبات الثلج . استدارت ابنتى بوجهها وقالت :

– ألا يصاب بالتعب أو الإرهاق؟

قلت :

– لا .

ثم قالت :

- ليت لنا أيضًا أجنحة بيضاء كنت أذهب لأحمل الثلج ، ويا له من وقت رائع ، ثم أطلقت ضحكة عالية ، ويا لشدة ما أسعدتنى ضحكتها العالية .

وبينما كنت أقطع البصل عدت بذاكرتى إلى الوراء خمسة وعشرين عامًا ، وتذكرت أننى ذات يوم كنت قد سألت جدتى نفس السؤال وقد قالت أيضًا :

- كل حبة ثلج يحملها ملك من السماء وينزل بها إلى الأرض.

كنت حائرة وسألت قائلة :

- ألا تصاب بالتعب أو الإرهاق؟

فقالت الجدة :

- لا .

فعاودت السؤال :

- من هو الملك ؟

كانت جدتى حائرة فى البداية ماذا تقول ، لكنها قالت بعد ذلك بحسرة :

- نحن لا نستطيع رؤية الملك ؛ فهو فى كل مكان.

فنظرت بسرعة فيما حولى ، ولكنى لم أجد شيئًا ، وواصلت الجدة الحديث قائلة :

- إنهم يحيطون بك ، يوجد ملك أمام وجهك ، وآخر خلف رأسك ، وواحد على كتفك الأيمن وآخر على كتفك الأيسر.

على الفور نظرت أمامى ونظرت خلفى ، ثم نظرت تجاه كتفى الأيمن ، وكذلك الأيسر ، فلم أر شيئًا ، لكننى شعرت بالرهبة من هذا المخلوق غير المرئى الموجود حولى وأمامى ، وقد عادت الجدة وقالت :

– إذا فعل الإنسان فعلاً طيبًا فإن الملك الموجود على الكتف الأيمن يكتب أفعال الإنسان الطيبة وحين يرتكب الإنسان فعلاً سيئًا فإن الملك الموجود على الكتف الأيسر يسجل سيئاته .

كنت قد شعرت بالخوف ، وقد تخيلت أن مخلوقات لا ترى موجودة أمامى وحولى وبدون أن أراهم أو أعلم شيئًا عن الشر فإنهم يسجلون علىّ مثل هذه الأمور ، وهذا فى حد ذاته أمر يثير الرهبة والخوف ، فعدت أسأل:

– وماذا يفعلون بعد ذلك ؟

– إنهم يكتبونها فى كتاب الإنسان.

– وما كتاب الإنسان؟

كانت الجدة قد نظرت إلى السماء وهى تتابع إلقاء حبات المسبحة ، كانت السماء لا ترى أيضًا ، كانت حبات الثلج تهبط بهدوء وعظمة وجلال صوب الأرض ، وقالت الجدة:

– كل شىء فعله أو ارتكبه الإنسان سيأتى يوم القيامة فى صورة أوراق أو كتاب ، وتسجل فيه كل تصرفات الإنسان وأفعاله ، الأعمال الحسنة والأعمال السيئة ؛ فلو كانت حسنات الإنسان كثيرة سيذهب إلى الجنة ، ولو كانت سيئاته كثيرة سيذهب إلى جهنم.

وبعد أن تنهدت قالت :

– وقانا الله نار جهنم ؛ ففيها يضربون الأشرار بعامود من نار ؛ فيتقطع الإنسان ويتمزق إربًا ، ويتحول إلى ذرات ؛ فيقوم النمل الصغير بجمع هذه الذرات ووضعها فى مكانٍ واحد ويخلق المرء من جديد ثم يضرب على رأسه مرة أخرى ، بمقرعة من حديد فيتمزق الإنسان مرة أخرى ويتحرق الإنسان عطشًا فيطلب الماء ولا يعطيه الماء أحد .

لقد كنت أتصور جهنم على أنها مكان سحيق مهول للعذاب فى كل أركانه أناس محروقون : ممزقون أذرع ممزقة ، محترقة ، وأرجل ممزقة محترقة ، جماجم ورءوس مهشمة كالهشيم .

إنه أمر يستوجب الخوف والرهبة الشديدة ، ومنذ تلك اللحظة ساءت علاقتى بملك الكتف الأيسر وبالأحرى مع كتفى الأيسر ويدى وقدمى اليسرى ؛ فكان يبدو لى أن الملك الموجود على كتفى الأيسر مثل الموظف يظل يعمل طيلة الوقت منذ الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح وهو يكتب ويكتب ويحاول جاهدًا أن يبعث بى إلى جهنم.

لو لم أسلم على الكبير ، لو لم أنفذ كل ما يطلب منى ، لو استفسرت ، إذا شربت كوب عصير من الكرز ونسيت شكر الله ، لو دخل أحد كبير ولم أقم واقفًا ، لو لم أكن أقبل يد الكبير ، كنت أعلم أنه سجل عملى ، وأن ملك الكتف الأيسر موظف يعلم جيدًا واجبات وظيفته ، وأنه سيسجل كل ذنوبى ويكتبها ، وأن المسافة بينى وبين جهنم تضيق وتضيق ، وفى بعض الأوقات كنت من الخوف وعلى خلاف ، رغبتى أنظر تجاه كتفى الأيسر أنى أحبه لعله بهذه الصورة تتحسن

العلاقة مع ملك الكتف الأيسر أو على الأقل حتى لا يسجل شيئًا بغير وجه حق.

كان ملك الكتف الأيسر بالنسبة لى كالكابوس ؛ ففى ساعات النهار لم أكن أهتم بمسألة الملائكة ، ولكن خلال الليل وحين كنت أذهب لمخدعى وأسحب غطائى فوقى وأصير وحيدًا ، كنت أفكر فى ملك الكتف الأيسر وما كتبه ؛ فكنت أستمع إلى أنفاسى ونبضات قلبى ، وكنت أفكر فى كل الذنوب والآثام التى اقترفتها فى ذلك اليوم ؛ فأعود وأتوسل إلى الله ألا يكتب الملك شيئًا بدون وجه حق أو بدافع الخصومة أو بسبب الغفلة.

وكنت أدعو أن تكتب أو تسجل الأفعال التى ارتكبتها فقط ، فلو فرض ولم تفهم معانى هذه الأشياء أو تلك فما الذى يمكن أن يكون ؟! ربما أكون مسئولاً عن ذلك...

وبعد ذلك – وبينما أكون ما زلت تحت الغطاء – كنت أعاهد نفسى على أنه بداية من الغد سأسلم على الكبار ، ولن أرفع عينى فى وجه الكبار ، وسأنفذ كل الأوامر ، ولن أسأل أو أستفسر عن سبب شىء ، وإذا شربت كوبًا من عصير الكرز من المؤكد أننى لن أنسى شكر الله ، ولو دخل أحد الكبار من الباب سأنتفض واقفًا وأقبل أيدى الكبار ، وكنت أعود وأسأل نفسى مرة أخرى لو أن ملك كتفى الأيسر هذا كتب كل شىء بغير حق أو بدافع الخصومة ، ويوم القيامة يأتى بكتابه معلق بعنقه يقرأه بصوت عال فما الذى سيحدث فى ذلك الموقف؟

كنت أتصور أن مقرعة من نار ستهوى فوق أم رأسى ، وأننى سأتمزق وأتحول إلى ذرات متناثرة ، وسيقوم النمل بعد ذلك بجمع

ذراتى وأخلق من جديد ، وسأشتهى الماء بشفة محترقة ، ولن يعطينى أحد الماء ،وبضربة من المطرقة أو العامود أتمزق وأتحول إلى ذرات متناثرة.

كنت أرتعد من الخوف ويتصبب جسدى عرقًا وتبتل وسادتى ، وهكذا كان نومى خوف وارتعاد كل ليلة.

كنت مشغولة فى المطبخ بالسمن والبصل والأرز واللحم ، كانت رائحة البصل المقلى فى كل مكان ، وكنت أرى ابنتى تحمل الوسائد من جانب هذه النافذة إلى تلك ، وتذهب من هذه الغرفة إلى تلك ؛ حتى تستطيع أن تشاهد تساقط الثلج بصورة أوضح.

رأيتها وقد فتحت النافذة وأخرجت يدها من النافذة ، وسقطت بكف يدها حبات الثلج فصاحت:

– لقد استقر ملك فى راحة يدى !

جاءت مسرعة وقد أغلقت قبضتها وقالت :

– يوجد فى قبضتى ملك.

فتحت قبضتها فكان بها قطرة ماء تترقرق وقالت :

– لقد طارت ، أرأيت ؟ ذهبت حتى تحضر حبة ثلج أخرى ، أرأيت ؟

قلت :

– لا .

قالت فى إصرار :

– أنا رأيت.

فأخذت بثوبى وقالت :

– اشترِ لى جناحين بيض .

قلت :

– حسن سأشترى.

– متى ؟

– غداً صباحاً.

سألت :

– بكم ؟

قلت :

– لا أعرف .

بسرعة بحثت فى جيب ثوبها ؛ فـــأخرجت منها مبلغًا لا يذكر وقالت :

– معى نقودى هيا بنا.

قلت :

– قلت لكى سنشترى صباح غداً.

أناحت بعنقها وقالت فى ضيق :

– حسن نحن ما زلنا فى وقت مبكر ! هيا بنا !

قلت:

– صبراً ، حتى أنتهى من عملى .

قفزت ابنتى من شدة الفرح وضحكت بصوت مرتفع ، فنظرت إليها بحسرة ، أسرعت وذهبت إلى الغرفة الأخرى : لعلى كنت أنظر بحسرة إلى دنيا الواقع والممكن ، كنت أنظر إلى عالم تتحقق فيه كل الأمانى والرغبات ، وأن التفكير فى كل شىء أمر جائز ومتاح إلى عالم فيه مستقبل لا نهاية له.

تذكرت مؤخراً أنها واقفة فى الحجرة أمام النافذة وقد فتحت النافذة وانشغلت باصطياد الملائكة خفت أن تصاب بالبرد وتسعل أثناء الليل فناديت من المطبخ :

– اتركى النافذة ، فستصابين بالبرد.

قالت بحزم :

– لا لن أفعل .

– قلت ابتعدى عن النافذة .

قالت فى إصرار مرة أخرى :

– لا لن أفعل ؛ فأنا أصطاد الثلج .

ذهبت ، وأغلقت النافذة بيد منفعلة وجبين مقضب وعدت إلى المطبخ فسمعت ابنتى وقد عادت وفتحت النافذة ، لا أعلم لماذا استرجعت ذكرى جدتـــى وتذكرت قصة الملائكة .

لم أقل شيئًا ولا أعلم إلى متى ظلت واقفة أمام النافذة وهى تمسك بالملائكة فى قبضتها ثم تتركها ، أقبلت ابنتى نحوى وهى إما شعرت بالبرودة أو الإرهاق ؛ ولم تقل شيئًا ، سعدت لأنها قد نسيت الذهاب إلى السوق وشراء الأجنحة البيضاء ، ثم قالت فجأة:

- لقد قلت شيئًا آنفًا .

سألت :

- ما الذى قلته ؟

قالت :

- لم تقولى ملك ، لقد قلت شيئًا آخر .

قلت :

- قلت مخلوق نورانى ؟

قالت :

- نعم ، الملك هو مخلوق نورانى .

وهنا وجدت نفسى أروى لها قصة الملائكة ، قلت لها إن هناك ملكًا أمام وجه الإنسان وآخر خلفه ، وكذلك ملك آخر عند الكتف الأيمن وآخر

عند الكتف الأيسر ، قلت لو أحسن الإنسان سيذهب إلى الجنة ، ولو ارتكب الذنوب سيذهب إلى جهنم ، قلت لها لو خالف الإنسان أوامر الكبار ولم يقبل أيديهم وجادلهم ، ولو شرب الماء ولم يحمد الله ، لو لم ينتفض واقفًا أمام الكبير ، فسيكتب كل تلك الأفعال الملك الموجود على الكتف الأيسر وسيلقون به فى جهنم ، ورويت لها قصة المقاميع النارية وتمزق الإنسان إلى ذرات ، ورويت لها قصة النمل والظمأ والشفاه المحترقة.

حين انتهى حديثى كانت ابنتى تنظر إلىّ وهى تفكر وتتأمل ، وكنت أتفحص وجهها المستدير وأهدابها الطويلة وقد فتحت فمها ، وتوجهت لتوها وأغلقت نافذة الحجرة الأخرى ، ولم تقل شيئًا آخر ، وظلت صامتة ، وكفت عن حركاتها الشيطانية ، وتناولت طعامها فى هدوء ، وتوقفت عن المشاحنات كل ليلة.

وحين استعدت للنوم أقبلت أمامى مثل كل ليلة أبدلت لها ملابسها وقبلت وجهها ودعوت لها وكنت أدعو لها بالنوم الهادئ والأحلام السعيدة ، وهكذا كل ليلة قبل النوم كنت أغازلها وأقول فى أذنها:

- نومًا هادئًا وأحلامًا سعيدة ، سترين الورود والخضرة ، وسترينى أيضًا ؛ فكانت تضحك وتقول :

- سوف أراك .

وذهبت واسترخت فى مخدعها ، وسحبت فوقها الغطاء ، وتركت ابنتى وحدها.

وفى وقت متأخر من الليل أنهيت أعمال كل ليلة ، وذهبت لأنام ، وأردت الاطمئنان على ابنتى ، رأيتها تنتفض تحت غطائها ، وفى الليالى الأخرى عندما كنت أحملها لمخدعها وأسحب عليها الغطاء كانت تغط فى النوم بمجرد وضع رأسها على الوسادة ٠

كشفت الغطاء عن وجهها ، تحركت فلم تكن قد استغرقت فى نومها بعد ، نظرت إلىّ وقد سيطر عليها الاضطراب والقلق ، لعلها كانت تفكر بخوف فى ملك كتفها الأيسر ، كانت تفكر فى كتابها لئلا يقوم ملك الجانب الأيسر بكتابة شىء فيه دون وجه حق أو بدافع الخصومة٠

النهاية ١٣ شهر سرطان ١٣٦٢ هـ.ش

رستم وسهراب

فى ليلة من ليالى الامتحان السنوى كنت أصحح الأوراق ، لم يكن عندى كهرباء ؛ فكان القنديل الذى يشتعل بالزيت يدخن بجانبى ، فكانت رائحة الطعام تتداخل مع رائحة احتراق شريط القنـــديل ، وكنت أعلم أن هذه الرائحة سريعًا ما سوف تؤلم رأسى ٠

وفى كل ليلة لا يكون فيها كهرباء ، وكنت أشعل فيها قنديل الزيت كانت رأسى تؤلمنى ، وحين كنت أقول إن رأسى تؤلمنى كان المحيطون بى لا يقدرون هذا الصداع ويصفوننى بعدم التحمل٠

من أجل ذلك - ولكى ابتعد عن اللوم - ذهبت سرًا إلى المطبخ ، وتناولت قرصًا مسكنًا ، وشربت بعده نصف كوب ماء ، وعدت مـــرة أخرى ، واتخذت مكانى بين أوراق إجابات طلابى وكشوف درجاتهم الموجودة فى مربعات بجانب وسادة عريضة كبيرة ، وفتحتها وجلست على ركبتى وبدأت أصحح الأوراق ، فأنا مدرس اللغة الفارسية والأردية .

ضاق قلبى من إجابات تلاميذى ، وكلما كنت أصحح ورقة كنت أدرك أن النتيجة بعد عام كامل من العمل هى لاشىء، فكان يضيق قلبى بشدة .

كان أحد الأسئلة التى طلبت الإجابة عليها هى :

- ما أشهر القصص البطولية الواردة فى الشاهنامه [(١)] ؟

كانت إحدى الإجابات هى ليلى والمجنون ، والإجابة الأخرى هى شيرين وفرهاد ، وهناك من كتب خسرو وشيرين ، أو ويس ورامين ، وكتب غيره أنها وامق وعذرا ، وهناك من كتب بخط ضعيف للغاية أنها قصة آدم خان ودرخانى ، وهناك أيضًا من كتب أن سوداء الشعر وجلالى هى آخر أعمال شيخ طوس ، ولعله كان قد بعثه من تحت أكوام التراب بعد سنوات وقرون ليعيد النظر فى أعماله لعل هذه الأشياء كانت لا تبدر من أى إنسان أو كل إنسان سوى تلاميذى أصحاب الخبرة الذين يحفظون عن ظهر قلب أسماء وعناوين كافة عشاق العالم.

وهناك تلميذ آخر - والذى لا أعلم أى اهتمام ذلك الذى أولاه لهذا السؤال - كتب ببرود وثقة :

" الكلستان والبوستان[(٢)] ، وبنفس اللامبالاة ولعله جمع ذات يوم ما بين شيراز وطوس ؛ لأن مثل هذا الأمر لا يصدر عن أحد إلا من تلاميذى أصحاب الخبرة والتجارب والدراية ، وكنت أنا أيضًا أكتب الصفر الضخم من الغيظ أسفل كل إجابة وأريح قلبى .

(١) أشهر الملاحم الفارسية نظمها أبو القاسم الفردوسى الطوسى ، وهو أعظم شعراء الفارسية (المترجم)

(٢) الكلستان والبوستان : هما أشهر أعمال شاعر الحكمة والموعظة " سعدى الشيرازى " (المترجم) .

وكذلك كان القنديل الزيتي يدخن جانبي ، وكنت أسأل نفسي بعصبية كيف أن أحداً من تلاميذي على الأقل . ولو على سبيل التخفيف عني – لم يكتب رستم وسهراب ، ثم قلت في نفسي لعل معرفة اسم وعنوان كل عشاق العالم هؤلاء – ومهما كانت البطولة – أمر غائب عن ذهن تلاميذي.

جدول الدرجات بخطوطه الأفقية والعمودية ومربعاته الصغيرة كان شكله يضايقني ، تركت الأوراق وبدأت بحذر في وضع الدرجات بالجدول ، وأمسكت بآلتي الحاسبة الصغيرة التي كانت قد أهدتني إياها إحدى صديقاتي ، وكانت قد رأتني أقوم بجمع الأعداد بمشقة ولا أستطيع إتمام عملية حسابية بصورة صحيحة .

أمسكت بالآلة الحاسبة وجمعت خمس عشرة درجة مع إحدى عشرة درجة ، وأضفت إليهم تسع درجات كان الناتج خمساً وأربعين درجة ، وتخيلت أن هذا الرقم خطأ فهو أكبر مما أتصوره ، ولعلي ضغطت بطريق الخطأ على أحد أرقام الآلة الحاسبة ، ورحت أشك في هذه الآلة وعدت إلى استعمال أصابع يدي وقمت بالعملية الحسابية ذاتها عدة مرات ، ولما كانت النتيجة خمساً وثلاثين درجة ، صرت مطمئنة بعض الشيء وسجلتها في جدول الدرجات ، وهناك بعض الشك والذي هو من سمات شخصيتي ، وكنت بداخلي أخشى لوم المسئول عن جمع الدرجات .

تذكرت أنه في يوم سابق عندما كنا جالسين في غرفة المدرسات وكن يتحدثن فيما بينهن حول أهمية وقيمة الموضوعات والمواد التي كن يقمن بتدريسها ، وكانت جميعها في رأيهن في غاية الأهمية ، وكن

يفحصن أوراق الامتحان السنوى بجدية تابعتهن ، ونظرت إليهن فى الخفاء واحدة تلو الأخرى .

مدرسة العلوم الدينية بثيابها السوداء كانت تهز رأسها أسفًا وهى تصحح أوراق الامتحان ، وكان يجرى على شفتيها الدعاء ، ولعلها كانت تطلب المغفرة من الله للطلاب بسبب كثرة أخطائهم.

ومعلمة الجغرافيا التى كانت تبدو أكثر إرهاقًا من الجميع ، ولعلها ذاتها قد تاهت بين الخطوط الطويلة والمعوجة للخرائط كانت تبدو سيدة سوداء البشرة ، وكان يبدو للإنسان أن الشمس قد لفحتها فاسودت بشرتها ووجهها على الرغم من المساحيق التى كانت تغطى وجهها ، لكن سمرة بشرتها كانت واضحة.

وكان يبدو لى أن معلمة الجغرافيا قد وطأت بقدميها كل هذه الأراضى والبقاع التى كان طلابها قد غيروا ونقلوا حدودها كما يريدون هم وبدون حرب أو صراع أو إراقة دماء ، وكانوا قد منحوا بكرم وسخاء قسمًا من دولة إلى أخرى ، لقد تاهت معلمة الجغرافيا بين الخرائط ، كانت غاضبة وتضع صفرًا كبيرًا تحت الخرائط.

ومعلمة التاريخ - وكانت سيدة بدينة لها هيئة عجيبة - وكانت دائمًا ما تشكو من أنها لا تأكل شيئًا وإنما هى تزداد بدانة بطبعها ولا يوجد شىء واضح فى هيئتها ، ولعل قيامها بتدريس المذابح التى شهدها العالم على مدى العصور من آتيلا حتى نيرون ومن نيرون حتى جنكيز خان ، وهكذا حتى عصرنا الحالى وما به من سجون ومعتقلات ومعسكرات تعذيب جعلها متحجرة المشاعر قاسية القلب ، وربما وضعت جل همها فى الطعام والشراب حتى تنسى تلك المذابح الوحشية ، وكأنها

وضعت الطعام فى معطفها الأسود الذى ألقته على كتفيها ؛ فكانت كل عدة لحظات تخرج من جيبها حبة صنوبر تقشرها فتأكلها وتلقى بالقشرة تحت قدميها ، كانت تضع درجات بالقلم الأحمر أسفل إجابات الأسئلة وتحدد مستقبل التاريخ ومصيره.

وكانت معلمة الرياضيات سيدة سيئة الخلق ، وربما يكون السبب فى إجهادها أنها طوال اليوم تجمع وتضرب الأرقام ، وكل هذه العمليات الحسابية جعلتها حادة الطبع ، وكانت تزن وتقدر إجابات الأسئلة بجدة فى ورقة منفصلة ، وفجأة ضحكت معلمة اللغة الفارسية بصوت عال ، وكانت سيدة مرحة ، ولأنها كانت كل يوم تقرأ الأشعار الفارسية الرائعة عشرات المرات ، ولأن تلاميذها - لحسن حظها - كانوا لا يحفظون الأشعار كانت تكرر نفس الأشعار مرات أخرى ، وتشعر باللذة والاستمتاع ، وكأن المداومة على قراءة الشعر الفارسى جعلها تبدو دائمًا فى هذه الصورة. رفع الجميع رؤوسهم ، معلمة العلوم الدينية كفت عن طلب الرحمة من الله للطلاب ، وتوقفت معلمة الجغرافيا عن الدوران فى البلدان والدول التى لا حدود لها ، ومعلمة التاريخ وجدت لها منفذًا وسط كل تلك الدماء التى سالت على مدى التاريخ وتوقفت ، ورفعت معلمة الرياضيات رأسها بعد أن توقفت عن تصحيح أوراق الامتحان ونظرت إلى معلمة اللغة الفارسية.

قالت معلمة اللغة الفارسية وهى تضحك :

- سأقرأ السؤال أولاً ثم أعرض عليكم الإجابة.

قرأت السؤال :

– ماذا تعرفين عن العنصرى ؟[1]

وتلميذتها أيضاً ، وعلى الرغم من محاولتها المضنية فإن شيئًا لم يخطر ببالها ، ولم تتذكر سوى شكل العنصرى الذى يعلم الله وحده فى أى الأحلام كان قد تجلى لها فأمسكت بالقلم ورسمت وجه العنصرى.

كان رجلاً له عمامة ضخمة وعينان صغيرتان وأنف فى حجم نقطتين أو أقل وفم معوج ، لعل العنصرى كان يستفيد منه أحيانًا فى قراءة أشعاره ، وبجانب أحد الكتفين كتبت التلميذة اسم العنصرى ، ولعل العنصرى نظر بعينيه إلى أسفل من شدة الخجل.

وبينما كانت معلمة اللغة الفارسية تضحك ، كانت تعرض علينا جميعًا ورقة إجابة بها صورة رجل عجوز خجول قد رسمها شخص غير ماهر على الإطلاق .

ضحكنا جميعًا ما عدا معلمة العلوم الدينية ، لعلها كانت قد رأت فى ثنايا أوراق الامتحان صوراً أو رسومًا رسمتها أقلام تلميذاتها المهرة ، حتى إن صورة العنصرى لا تساوى شيئًا بالمقارنة بها .

فى هذه الأثناء – حيث كانت غرفة المعلمات تهتز من الضحك – دخلت معلمة صامتة ، وفى تواضع بالغ لا نظير له أعطت كشف درجاتها لمسئولة القسم التى كانت جالسة على مقعد ، ولا أعلم لماذا كانت تنظر إلى الجميع باستعلاء .

(١) واحد من أشهر الشعراء فى تاريخ الأدب الفارسى (المترجم) .

أخرجت مسئولة القسم نظارتها من الجراب ، وبدأت فى مراجعة الأعداد ، وفجأة قالت بصوت مرتفع:

– سيدتى المعلمة ، كم يكون حاصل جمع ٣٥ و ١٤ هل هو ٤٦ أم ٤٩ ؟

اصفر وجه المعلمة وتلعثمت ، وبدلاً من أن تقول إنها ربما لم تكتب ٩ بصورة واضحة ، وإنه مجرد لبس بين الرقم ٩ والرقم ٦ قالت برعشة وبصوت يبدو فيه التقصير:

– لقد بيضت كل الكشوف ونقحتها فى ضوء المصباح الزيتى ليلة الأمس .

قالت مسئولة القسم بلهجة المنتصرة:

– الجميع يعملون فى ضوء المصباح الزيتى .

استعادت المعلمة المهذبة توازنها وعادت الدماء تجرى فى وجهها وخفضت رأسها ولم تقل شيئًا .

منذ تلك اللحظة ، وكلما كنا نجلس فى ضوء المصباح الزيتى ، كنت أكتب الدرجات فى كشوف الدرجات بدقة وشك وتردد بالغ حتى لا أكون مثل تلك المعلمة يحمر وجهى وأخفض رأسى .

وبينما كنت أقوم بحساب الدرجات على الآلة الحاسبة وأصابع اليد والقدم أقبلت ابنتى مسرعة ذات الأربعة أعوام وهى تمسك فى يدها ورقة كانت منزوعة من أوراق الامتحان الزائدة وقالت فى لهفة:

– أماه ، لقد رسمت صورتك ، انظرى ؟

وبنفس الدقة الموجودة فى طبيعة البشر للتعرف على رأى الآخرين فيهم ونظرتهم إليهم نحيت الآلة الحاسبة وكشف الدرجات جانبًا وقربت المصباح الزيتى ورفعت رأسى حتى أرى الصورة التى كانت قد رسمتها لى ابنتى .

لم ترسم ابنتى بسن قلمها الجاف الرفيع أكثر من رأس ضخم ، وفى الجزء المخصص عادة للجبهة رسمت عينين جائرتين بدون حاجب ، وهناك خط عمودى غير مستقيم ربما كان المقصود منه أنفى ، وكانت هناك نقطة غير واضحة لعلها كانت فمى ، وكانت رأسى متصلة بجسدى الصغير عن طريق خط رأس متعرج رسمته بسن القلم الجاف.

كان جسدى صغيراً جداً بالقياس إلى رأسى ، وقد تدلى أسفل عنقى خطان كالقوس ، واستقرا على الجانبين عند منطقة الوسط ، وكذلك خرج من أسفل الثوب خطان آخران رسما بسن القلم وكأنهما قدماى وكان قدماى معلقتين فى الفضاء.

وأنا نفسى معلقة فى الفضاء ، وكأن شخصًا علقنى بحبل ، ولم تكن لى أذن ، لعل ابنتى كانت تعلم أن العيش بدون أذن هو أمر أكثر راحة فمنحتنى هذه الفضيلة ولم ترسم لى أذنًا .

استشعرت الخوف بداخلى ، وتخيلت أن ابنتى ربما تكون ترانى بهذه الصورة ، ولكنى لم أقل شيئًا وضحكت ، وقالت ابنتى مضيفة بعض الإيضاحات :

– توجد فى جيوبك حلوى ، وقد وضعت يديك فى جيوبك حتى تعطينا الحلوى.

ابتهجت لهذه الإيضاحات ، ولكن مهما اقتربت أكثر من الصورة لم أكتشف أين تنتهى يدى ، إنها فقط تدلت فى اتجاه منطقة الوسط فى مكان ما ، لعلها كانت تتحسس الحلوى فى الجيب ، وكذلك لا يبدو أية أثر فى الصورة للحلوى ، وكانت ابنتى هى الوحيدة التى تستطيع رؤية الحلوى ، ولأن ابنتى كانت تنتظر منى الحلوى حتى فى رسمها فقد شعرت بالسعادة.

ولم تكن تفسيرات ابنتى قد انتهت بالكامل بعد حتى جاءت ابنتى الأصغر سنًا وخطفت من يدها الرسم وهربت فارتفع صراخ ابنتى ذات الأربعة أعوام واشتبكتا معًا فى ظلام الحجرة وهجمت كل واحدة على الأخرى وتمزقت الصورة من المنتصف ، وكانت كلتاهما تبكى وتضرب الأخرى فى حنق وغيظ ، فنهضت من مكانى وفصلت بينهما وقلت :

- إن الإنسان لا يجب أن يضرب أى شخص ، فالصغير لا يضرب الكبير ولا الكبير يضرب الصغير ، وهكذا لا يجب أن يضرب أى شخص شخصًا آخر.

وأعدت على أسماعهما نفس النصائح التى تقولها كل أمهات العالم منذ بدء الخليقة لأولادهن ، وكنت أعلم أن هذه النصائح لن تجدى نفعًا فى أى وقت أو فى أى مكان ؛ فالأولاد يضربون بعضهم البعض بالقبضات والركلات ما بقوا صغارًا وحين يكبرون يستعملون الرصاص والخناجر ، وهكذا ولد آدم خليفة الله فى الأرض يجعلون أنفسهم دائمًا فريسة للحرب والحقد ، ويلوثون بالدماء أطراف ثيابهم الطاهرة.

وبينما كانت ابنتى الصغرى تصرخ احتضنتها ، ودفنت رأسها فى صدرى ، وجففت دمعها بطرف ثوبى ، وقلت لها حين يضاء النور وتصل

الكهرباء سأعطيها السيارة الكهربائية لتلعب بها وحدها فى الدهليز، وما أكثر الوعود.

كانت ابنتى ذات الأربعة أعوام واقفة فى ركن مظلم بالحجرة تبكى وتنتحب وتمسح عينيها بظهر يدها فقلت لها بعطف :

- كفى .

وبحزن الفنان الصادق الذى لا يقدر قيمة عمله أحد ، قالت وهى تبكى :

- هل رأيت كيف مزقت رسمى ، هل رأيت ؟

شعرت بمدى تألمها ، ولم أكن أعلم كيف أسرى عنها ، ومع ذلك قلت :

- سنلصقها مرة أخرى الآن .

أخذت المصباح الزيتى ، وذهبت إلى غرفة أخرى ، وفتحت صندوق الخزينة ، وأدخلت يدى بداخله بحثًا عن شريط اللاصق ، وبحثت فى كل الأشياء حتى وجدته فأخذته وعدت.

لصقنا الصورة أنا وابنتى باهتمام وحذر مثل من يتعاملون مع الآثار القديمة القيمة ، ووضعناه فوق الكرسى حتى يجف.

كانت ابنتى ذات الأربعة أعوام ما زالت تنتحب ، وكانت تريد منى أن أرضيها بأى شكل ، وهنا قالت :

- أرو لى أسطورة جديدة.

قلت :

– لا بأس ، سأروى.

ورحت أبحث فى ذهنى فلم تعد به أسطورة باقية ، وكنت قد رويت كل الأساطير ، وكذلك كنت قد اختلقت أساطير أخرى ولم تتبق أسطورة واحدة.

وبينما أجلست ابنتى بجوارى على أريكة بالجانب الذى لا يوجد به الأوراق وكشوف الدرجات بحثت فى كل ما كان بذهنى من أشياء فلم أجد أسطورة جديدة ، وفجأة لاحت فكرة كالبرق فى ذهنى ، وقلت لنفسى الآن وبما أن تلاميذى لم يجيبوا على السؤال فلأفعل أنا وأحكى بنفسى ملحمة شيخ طوس " رستم وسهراب " ، وأرويها لابنتى .

نسيت ابنتى الصغرى وعدى وعودة التيار الكهربائي والحصول على السيارة الصغيرة ، وأقبلت مسرعة بقدميها الصغيرتين وجلست متربعة أمامي وتحولت إلى جرم صغير جداً ظريفة المنظر – هز جرمها الصغير قلبى ورمتنى بنظرات من عينيها المستديرتين السوداوين التى كانتا تعكسان ضوء المصباح الزيتى ويشع منهما شقاوة الأطفال ، وحينما عادت للحديث قالت :

– قصى لى حكاية ، قصى لى حكاية أو حدوتة.

فقلت :

– حسناً

وبدأت قصة رستم وسهراب .

وبينما كنت أروى القصة تخيلت أننا خرجنا من تلك الغرفة الضيقة والمظلمة التى كان يحاول المصباح الزيتى إضاءة أركانها وجوانبها ، وتخلصنا أيضًا من ذلك الجو الذى تفوح منه رائحة اشتعال الزيت والتى تبعث على التقىء ، وتوجهنا نحن الثلاثة إلى فيافى سمنجان الجميلة الخضراء ؛ فكنا نعدو خلف رستم ويهز قلوبنا وقع سنابك جواد رستم فوق تلال سمنجان الزمردية العطرة ويبهر جمال تهمينه عيوننا ونرى تهمينه وهى تسكب على أقدام رستم حبها وهو أثمن هدية أو منحة يحصل عليها بنو البشر ويداعب نسيم روابى سمنجان جدائل شعرنا ، ونرى رستم الذى يريد أن يغادر أرض سمنجان ويخلد للراحة فى ناحية أخرى من أرض الله وسط أبناء آدم الحيارى .

ويثير فينا سهراب الرضيع عاطفة الأمومة والأخوة الرائعة ، وقد أجهد عيوننا انقطاع التيار الكهربائى وعودته ، واختصرنا فى لحظتين مرور السنوات والسنوات.

وها نحن نرى سهراب شابًا جميلاً يافعًا ، وننظر إلى تهمينه فى وفائها وإخلاصها بكل إعجاب وتقدير ، وتبدو لنا ضحكة أفراسياب الصاخبة الماجنة وهى تعكر صفاء ونقاء روابى سمنجان الخضر ، وحولت سماء سمنجان الزرقاء الصافية إلى سماء سوداء ملبدة بالغيوم ، ونرى أفراسياب وهو فى عرشه الذهبى يسكب فى فمه أقداح الخمر فى تيه وخيلاء.

ويحترق قلب ابنتى ذات الأربعة أعوام تخشى أن ينتصر أفراسياب ؛ فيرتعد أنفها ويجرى الدمع من عينيها فى هدوء.

وتعبث ابنتى الصغرى فى أصابع قدميها الصغيرة وهى غير آبهة بحب وإخلاص تهمينه والدور الخطير لرستم والمؤامرة الدنيئة لأفراسياب ، ولا أعلم أى جريمة ارتكبتها أصابع قدميها الصغيرة النحيفة حتى تضربها بكف يدها الصغيرة وهى تقول :

- إليك عنى ، إليك عنى.

وكأنها كانت تدرب نفسها مع أصابع قدميها على حالة التهديد والعداء التى يبدو أنها ستكون جزءًا لايتجزأ من حياتها المستقبلية ، وكنت ألمح فى عيون ابنتى ذات الأربعة أعوام أنها نسيت العالم بأسره ، وأصبح تفكيرها منصبًا على حديثى حتى تعلم ما هو مصير رستم وسهراب.

استقر الخوف فى عينيها ؛ فكانت تخشى أن يقتل رستم ابنه ، وأن تقوم تهمينه بلطم وجهها وخمش وجنتيها بيديها حزنًا على ابنها ، وكنت أنا لا أبالى لأننى كنت أعلم نهاية القصة ، وكنت أعلم أن أفراسياب سيكون هو الفائز.

وعندما وصلنا إلى قيام رستم بطرح ابنه سهراب أرضًا وغمد خنجره فى صدر ابنه الشاب ، أخرجت ابنتى ذات الأربعة أعوام من قلبها كل دلائل وعلامات الحب والإعجاب التى كانت قد جمعتها فى قلبها تجاه رستم ، وعبرت عن عدائها وغضبها من رستم وقالت:

- قتل ابنه ؟ وأصبح مثل قتلة البشر!

وكانت هذه العبارة تجرى على لسان ابنتى الكبرى ، ولم أكن أعلم أين تعلمت هذه العبارة أو استمعت إليها ، إلا أن تكون هذه الكلمات قد

صارت جزءًا من الكلمات المتداولة يوميًا ، ولعل ابنتى تعرفت على معنى هذه الكلمات ومدلولها فى رياض الأطفال مع صديقاتها الصغيرات ، لا أعلم.

قالت هذه الكلمات وانفجر غضبها ؛ فوضعت رأسها الصغيرة على ركبتى ورحت أداعب خصيلات شعرها.

كان أمرًا عجيبًا ، وكأن هذه الكلمة التى قالتها ابنتى كشفت لى عن نقطة سوداء فى تاريخ رستم ، وفجأة - ولأول مرة - يهوى رستم فى نظرى من أعلى وأسمى الدرجات ليسقط ويتدنى ويصبح شخصًا قاتلاً ، سقط رستم ومنذ تلك اللحظة يتحول - ولأول مرة - المعصوم ليصبح قاتلاً فى نظرى.

وفجأة رفعت ابنتى رأسها وكأنها وجهت كل الحقد المتراكم بداخلها تجاه رستم وقالت :

- ليتنا نجد رستم حتى نمزقه إربًا ، إربًا ، قطعة، قطعة .

قالت هذه الكلمات الأخيرة وهى تضغط بشدة على أسنانها ، فأنا أعرف ابنتى.

فمثل هذه المواقف تمثل منتهى الغضب والحقد عندها ، ربما أكون قد استشعرت اللذة للوهلة الأولى بسبب رغبتها فى التعبير عن الانتقام والثأر ، لكننى سألتها:

- هل نمزق رستم أم سهراب ؟ رستم أم سهراب ؟

انقبض قلبى ، وتذكرت أنه طالما أن أمثال أفراسياب يستطيعون الاستواء على عروشهم الذهبية يحتسون الخمر بسلامة وسرور يجب أن ينظر إلى أمثال رستم على أنهم قتلة ، إنهم لم يدركوا الدلائل التى ترشدهم إلى أبنائهم ؛ فاستتشهد أبناؤهم على أيديهم تمامًا كما حدث مع رستم الذى ظل يجهل أن غريمه سهراب هو ابنه وبعد أن قتله علم تلك الحقيقة ، وبعد ذلك – وبكل هموم الحرمان والحسرة – يقوم أمثال رستم بحمل نعوش أبنائهم الشهداء مثل سهراب على أكتافهم ، ويهيمون فى البلاد تائهين حائرين ، وهم فى نظر الناس ونظر أنفسهم قتلة مثل قابيل ، ونعود إلى الأم تهمينه العفيفة وأمثالها فنجدها فى نهاية عمرها بشعرها الأبيض وثيابها السوداء تجلس فى أشق وأقسى محاكمة بين رستم القاتل وأمثاله وسهراب الشهيد وأمثاله.

نامت ابنتاى فوق السجادة ، وكانت إحداهما قبل أن تنام تدرب نفسها على التهديد والوعيد مع أصابع قدميها الصغيرة ، أما الأخرى فبدت وكأن إنسانًا أوجع قلبها.

كان المصباح الزيتى يحترق أيضًا ، ويحاول إنارة أركان وجوانب الغرفة المظلمة ، ولم أكن قد انتهيت بعد من جدول الدرجات ، وقد استفزتنى رائحة الاحتراق فنسيت لوم مسئولة قسم كشف الدرجات وجمعت الأوراق على وجه السرعة ووضعتها فى الحقيبة ، وتخيلت أن تلاميذى ربما قد تعمدوا تناسى حيلة أفراسياب الماكرة أو لعلهم رغبة فى إسعاد أنفسهم أو إسعادى ذكروا أسماء وعناوين كل عشاق العالم وكتبوها ، فقررت أن أعيد النظر صباح غد فى تلك الدرجات التى حصلوا عليها.

نهضت من مكانى ، وحملت ابنتى واحدة بعد الأخرى إلى سريريهما ، وشعرت فجأة بالوحدة.

كان المصباح الزيتى يدخن أيضًا ، وبسبب هذا الدخان أحسست بطعم المرارة داخل حلقى.

رتبت الغرفة على وجه السرعة ، وكان ظلى يقلدني على الجدار ، وكان ينحنى ويعتدل ، ووضعت فى حقيبة يدى الآلة الحاسبة الصغيرة التى كانت قد أهدتنى إياها إحدى صديقاتى بعد أن رأتنى أعانى من التعامل مع الأعداد ولا أستطيع القيام بأية عملية حسابية بصورة صحيحة ، حملت الحقيبة البلاستيكية وبها الأوراق وكشف الدرجات ووضعتها فى الدهليز حتى لا أنساها فى اليوم التالى ، وكان خيالى يقلدنى ، ووقعت عينى على الصورة التى كانت ابنتى قد رسمتها لى ، كانت الصورة تبدو حزينة جدًا فى نظرى ، وتخيلت أن هذه الصورة قد تكون لتهمينه التى رحت أفكر فيها وتجسد حزنها فى خيالى ، وتخيلت أيضًا أن يد تهمينه التى اختفت عند منطقة الوسط ربما تكون قد وضعتها داخل جيبها وهى تتحسس السوار الذى به يتعرف زوجها رستم على ابنها سهراب.

وبدا لى أن صوت قهقهة أفراسياب يصل إلى أذنى فى هجيع الليل من برج المدينة وأسوارها ،

وفجأة رحت أحدث نفسى مثل السكارى وقلت:

– تهمينه نواسى أم رستم القاتل ؟ أم سهراب الشهيد ؟

ومرة أخرى تتنامى هذه الأصوات إلى مسامعى ، وأشعر وكأننى مثل السكارى :

- بم ، بم ، بم .

لا أعلم ما إذا كان هذا الصوت صادراً من قلبى أو قلب تهمينه أو أنه وقع خطوات رستم القاتل الذى يحمل على كتفه نعش ابنه سهراب الشهيد ويهيم حائراً فى كل صوب وحدب مثل قابيل ؛ استشعرت الشجو من الجملة ، وكنت أريد أن أكرر وأقول لنفسى :

- تهمينه ، رستم القاتل ، أم سهراب الشهيد...

خفت ضوء المصباح الزيتى ثم انطفأ ، كان الزيت قد فرغ تماماً ، ارتعش ظلى على الحائط أيضاً وسريعاً ما اختفى .

النهاية كابل ٢٦ قوس ١٣٦٢ ١٧ديسمبر ١٩٨٣

الرجل الجبلى

عندما توقف هطول المطر والغيث لاذت السحب الكثيفة السوداء بالفرار ، وكأنها مجموعة أشرار قامت بارتكاب جريمة ما ، وبدت السماء نيلية صافية ، وتلألأت الأحجار وصخور الجبال ، أما المروج الخضر والزهور الصغيرة فبدت وكأنها أطفال صغار نقية تبتسم للشمس بوجوه طرية ندية ، وأوشكت الشمس على أن تتوارى خلف قمة الجبل.

خرج شيرعلى من كوخه واتجه صوب النهر الصغير المنحدر من الجبل ، كان شيرعلى صغير القد ، أسمر اللون ، مستدير الوجه ، نبتت بذقنه بضع شعيرات تشبه سنابل الشعير والأرز ، عيناه ضيقتان تشعان بساطة وتلقائية .

كان قد وضع يديه داخل جيوبه ، وكان يبدو من الخلف كطفل عمره ما بين العاشرة أو الحادية عشرة إلا أن عمره الحقيقى كان خمسين عاماً.

وبينما كان يسير فى طريقة صوب النهر الصغير كانت الريح الخفيفة تداعب شعيرات ذقنه ، نظر فيما حوله ، وقال فى نفسه :

– كم من الأمطار الغزيرة والسيول التى تسبب الخسائر فى الفيافى والجبال ...

نظر أسفل الوادى ؛ لم يظهر شىء ، كانت الصخور والأحجار فقط تتلألأ فى ضوء الشمس وهى فى حالة الغروب ، ورأى عن بعد طيات السحب السوداء وهى تلوذ بالفرار.

توقف شيرعلى فجأة وتجمد فى موضعه ، ونظر إلى النهر الصغير بدهشة وتحير ، خطا بضع خطوات للأمام ، وقال وهو يتمتم:

– أيها النهر.. أيها النهر ماذا فعلت ؟

وألقى نظرة إلى أعلى وأسفل النهر الصغير ، وقال فى عصبية:

– لقد أفسدت ... لقد أخطأت...

اقترب من النهر الصغير ، ورأى كل شىء بدقة وتفصيل ، وكان النهر قد غير مجراه وجار على أرضه ، وبهذه الصورة فإن المرعى الصغير الذى يخصه صار ملتصقًا بأرض جاره وأصبح جزءً ا منها.

ارتعد قلب شيرعلى ووسوست له نفسه ، وعلى الفور جال بخاطره:

– يجب أن أحدد كل شىء.

توجه إلى منزل جاره بسرعة كأنه كان يعدو ، وكانت الريح العليلة تداعب لحيته الخفيفة ، كان الاضطراب باديًا على وجهه ، وألقى بنظرة إلى الخلف مرة أخرى.

وهو فى هذه الحالة وقعت عيناه على الأرض التى شهدت مولده وصباه ، وانتفض قلبه مرة أخرى ، وارتعد وهو يرى النهر الصغير يسيل بهدوء ويجرى فى مجراه الجديد ؛ فراح يسبه وقال فى عصبية :

– لقد أسأت ، لقد أخطأت ! يجب أن أحدد كل شيء...

وجد جاره ؛ كان رجلاً قصير القامة بدينًا ، كان وجهه يثير الضحك مثل رسوم الأطفال ، كل ما فيه سيىء وغير متناسق ، سأل بصوت غليظ:

– كيف أتيت يا " شيرعلى " ؟

صمت شيرعلى لفترة يبحث خلالها عن الكلمة المناسبة والرد اللائق ، ونظر بعينيه اللامعتين الضيقتين إلى جاره ولحيته تهتز وقال :

– انظر ، لقد وقع حادث ... غير النهر مجراه ، أى أنه هجر مجراه القديم .

ولم يكن بذهنه شيء آخر يقوله ، وأشار إلى النهر الصغير وقال :

– هذا هو النهر ... إنه هو ...

ظل الجار صامتًا فترة وهو ينظر إلى وجه شيرعلى ، كان يبدو كمن يقلب الأفكار فى رأسه ، وبعد ذلك قال :

– اتجه إلى أية ناحية ؟

راح شيرعلى يبحث عن رد مناسب وقال :

– حسنًا أتعلم ماذا فعل هذا النهر ؟ إنه جار على أرضى ! وأراد أن يضحك ضحكة ساخرة ، إلا أن جاره لم يدع الفرصة له ليضحك ، وقال :

– إذًا فهو غير مجراه نحو أرضك ؟

رد " شيرعلى " وقال :

– نعم ، لقد قام بنفس العمل.

وضحك " شيرعلى " ، وأسرع الجار صوب النهر الصغير وهو يصرخ ويصيح :

– يجب أن أرى ... يجب أن أرى.

جرى شيرعلى أيضًا خلفه ، وكان يرى أنه لابد من تحديد كل شىء ، وكان القلق والخوف يزدادان فى قلبه ؛ فظهر عليه الاضطراب وأصر على أن يحدد كل شىء ، ونادى على جاره الذى كان يعدو أمامه وقال :

– صبرًا ، يجب أن نحدد كل شىء .

توقف الجار لحظة ، ونظر إليه ، وقال فى نغمة رافضة:

– إن كل شىء محدد ... كل شىء.

ثم أطلق ضحكة عالية منفردة ، وانعكست أصداء ضحكته فى الوادى ، وعندما وصلا بالقرب من النهر الصغير اجتاز الجار المجرى

القديم للنهر ، ووطئت أقدامه مرعى شيرعلى ، وراح يعدو ويهرول هنا وهناك كمن كان يريد أن يقيس حدود ومساحة المرعى بخطواته ، وكان يبدو على وجهه سعادة شيطانية .

كان شيرعلى يعدو خلفه أيضًا مثل الطفل ؛ فكان ينظر أحيانًا إلى المراعى وأحيانًا أخرى صوب النهر الصغير ، وكذلك أيضًا إلى جاره ، وكانت لحيته تهتز وعيناه تتلألأن ، وكان يردد:

– هل ترى... هل ترى ما الذى حدث ؟

كان الجار يرد بسعادة وسرور دون أن يلتفت إلى شيرعلى ويقول :

– إنى أرى كل شىء... كل شىء .

توجه الجار صوب النهر الصغير ووقف بجانبه ، وهو سعيد وفى غاية السرور من انسياب الماء الممزوج بالطمى ونظر إلى أعلى النهر وأسفله وقال :

– النهر... نهرى .

ثم سجد فى نفس المكان ومد يده فوق مياه النهر كمن كان يتحسس ظهر قطة بكل محبة ووداعة وقد استقرت على شفتيه ابتسامة صفراء ماكرة ، وكان يقول :

– النهر ... النهر نهرى.

انحنى شيرعلى الذى كان يرقب بعينيه المرتابتين حركات جاره ، وقال بنغمة مستغيثة :

– هل ترى ؟ هل ترى أنه يجب أن نحدد كل شيء.

نهض الجار ودون أن يأبه بقوله راح يهرول مرة أخرى فى المرعى هنا وهناك كمن كان يرقص للجبال والصخور .. وكان شيرعلى ينظر بتعجب إلى حركات جاره الجنونية ، وكان يقول فى نفسه:

– لقد جن هذا الرجل ، ولكن يجب الفصل.

تقدم بضع خطوات فى اتجاه جاره وقال :

– لقد حدث هذا الأمر ... هل ترى ؟ يجب أن نحدد...

وقف الجار فى منتصف المرعى ونظر إلى " شيرعلى " وقال :

– أى شيء نحدده ؟

سكت شيرعلى وراح يبحث فى ذهنه عن كلمة مناسبة ، لكن الجار لم يمنحه الفرصة ، وخرجت من بين شفتيه ضحكة عالية مدوية وقال :

– كل شيء محدد .. كل شيء..

جرى صوب النهر الصغير ، ومد يده فوق مجراه وقال :

– النهر ... نهرى..

ثم راح يقفز مرة أخرى فوق المرعى هنا وهناك ، وكان شيرعلى ينظر بدهشة إلى حركات جاره ، وكانت هذه الحركات المجنونة تصيب شيرعلى بالخوف ، وتزيد من سوء ظنونه فازداد اضطرابه ؛ وقال فى نفسه:

– ما الذى حدث لهذا الرجل ؟

أطلق الرجل الجار ضحكة عالية مدوية وهو يقول :

– النهر ... نهرى..

ثم أسرع يعدو إلى بيته وشيرعلى يسير خلفه ويقول متضرعًا :

– اصبر ، انتظر ، يجب أن نحدد كل شيء.

لكن جاره لم يلتفت إلى قوله ، وواصل سيره ، وحين ابتعد عنه كثيرًا توقف وهو يلهث ويصيح فى سعادة وسرور:

– كل شيء محدد!

تقضب جبين شيرعلى واهتزت لحيته التى تشبه سنبلة القمح ، وبرقت عيناه ، وقال فى نفسه :

لماذا لم يمكث حتى نتحدث معًا ؟

كانت الشمس قد غربت والجو فى سبيله نحو الظلام ، وتوجه شيرعلى مضطربًا ، متضايقًا نحو النهر الصغير ، وكان الماء ينساب برقة صوب أسفل الوادى ، نظر شيرعلى إلى أعلى حيث ينبع النهر ، وقال بنغمة غاضبة وهو يصرخ :

– أيها النهر ... لقد أسأت...

فى تلك الليلة ، رأى فى منامه أحلامًا مضطربة ، وكلما كان يذهب للنوم كان يرى أن النهر الصغير كان يجرى فى مجراه الجديد فيمد جاره بالماء ، فكان جاره يقهقه ضاحكًا ، وكان يرى نفسه يجرى خلف

الرجل جاره ويتوسل إليه تحديد الأمور والأوضاع، والجار يرد بضحكة ظالمة ويقول :

- كل شيء محدد ، كل شيء محدد .

كان شيرعلى يهتز ويستقيظ من النوم فكان يستمع في الظلام إلى صوت النهر ، فتموج في ذهنه الأفكار ، فيشتد اضطرابه ويرتعد قلبه ، ويقول في نفسه :

- غداً سأحدد كل شيء .

وحين يعود إلى نومه كان يرى النهر مرة أخرى يجري في مجراه الجديد لصالح جاره الذي يضحك رافضاً .

في اليوم التالي قام من نومه مضطرباً للغاية ، يسيطر عليه الهلع والخوف ، كان يفكر في أحلام الليلة الماضية ، ويريد أن يجد تفسيراً لها ، وقال لنفسه في النهاية :

- إن هذا الجار رجل خبيث ... واليوم يجب أن أحدد كافة الأشياء ، وعندما توجه إلى النهار مقتفياً أثر جاره رأى وهو مندهش أن جاره قد أطلق أبقاره في مرعاه ، نظر شيرعلى إلى النهر وأدناه ونظر إلى المرعى وأبقار جاره وقال في سره :

- عجباً ، عجباً ! يجب أن أفصل في كل شيء.

اجتاز النهر الصغير وتوجه صوب منزل جاره ، كان الرجل مع أولاده ، وعلى عكس الوالد كان الأولاد طوال القامة أقوياء البنية ، وكاليوم السابق سأل الجار ببرود :

– كيف حضرت يا شيرعلى ؟

صمت شيرعلى وبحث فى ذهنه عن كلمة مناسبة ثم قال :

– أبقارك ترعى فى مرعاى.

قال الجار :

– حسن .

اعتدل شيرعلى وبرقت عيناه الصغيرتان وقال :

هذا المرعى ملك لى ، أليس كذلك ؟

قال الجار :

– حسن .

احتار شيرعلى قليلاً وأراد أن يبتسم واهتزت لحيته وقال :

– كل ما هنالك أن النهر غير مجراه فقط ، والمرعى ملك لى ، أبقارك ترعى هناك .. سكت شيرعلى ، كان يريد أن يعلق الجار على حديثه بشىء ؛ لكن الجار قال مرة أخرى :

– حسن .

لمح شيرعلى فى وجه جاره وأولاده النية الخبيثة ، ورأى أنهم يضمرون النية السيئة ، وجال بخاطره أنهم يريدون اغتصاب مرعاه بالقوة فقال لنفسه :

– إنهم يريدون خداعي ، ولا يعلمون أن مثل هذه الأمور لا تنطلى على شيرعلى ، حسن ، والآن لو التزمت الصمت فسوف يلتهمون المرعى ، يجب أن أتصرف بحزم ٠

وجال بخاطره أنه لم يتضح حتى الآن ماذا يريدون فقال :

– يجب أن أعرف حقيقة نيتهم٠

وقال بصوت مرتفع:

– والآن يجب عليكم إخراج أبقاركم من مرعاى٠

فى هذه المرة رد الجار بصوت حاد جعل شيرعلى يرتعد حيث قال :

– عن أى مرعى تتحدث ؟ إن المرعى لم يعد ملك لك الآن ، لقد منحنى النهر إياه ، والنهر لا يسير وفق هواى أو هواك ، وإنما يفعل ما يريد٠

ضاقت عينا شيرعلى وقال بصوت رقيق:

– المهم هو أن النهر ليس من حقه أن يمنحك مرعاى٠

قال الجار :

– المهم أنه أعطانى إياه٠

قال شيرعلى واثقًا :

– لدى مستند ، مستند شرعى ٠٠٠

وبصوت عال ضحك الجار وأولاده ، فسألهم شيرعلى بصوت فيه رقة وأدب :

– لماذا تضحكون ؟ ألا يكفيكم كل ما لديكم من أموال وأراضٍ ؟

رد أبناء الجار قائلين :

– نحن نعلم.. نعلم أن لديك سنداً ، وقد رأينا سندك ، مكتوب به أن النهر هو الحد الشرقى لأرضك ، والآن فإن النهر هو نفسه الحد الشرقى لأرضك ، فما الذى يمكن أن يغير سندك فيما حدث ؟

اشتاط شيرعلى غضباً من هذه الحيلة الماكرة المخادعة وراح فى جدل طويل مع الجار وأولاده ، وارتفع صوتهم وعلا صراخهم ، وكان كل طرف يهدد الطرف الآخر ، وأدرك شيرعلى فى النهاية أنه لا قبل له بجاره من حيث القوة وسطعت كالشهب فكرة فى رأسه:

– يجب أن أعرض الأمر على قائد الشرطة !

وصاح قائلاً :

– سيكون لى معكم شأن ... معكم أيها الظالمون !

قال الجار ساخراً:

– ما الذى ستفعله ؟

– سترى ، سترى ما الذى سأفعله ، وسيخرب الله بيوتكم.

ترك جاره غاضباً وتوجه إلى بيته وقال لزوجته :

– سأذهب لأعرض الأمر ، وسوف أشكوهم.

عقد العزم وتوجه قاصداً الشرطة.

كان قد انقضى من اليوم نصفه حين وصل إلى مركز الشرطة ، وبالقرب من البوابة رآه شرطى فسأله :

- إلى أين أنت ذاهب ؟

أجاب " شيرعلى " :

- أعرض أمراً على قائد الشرطة .

قال الشرطى :

- القائد غير موجود.

سأل شيرعلى :

- لماذا هو غير موجود ؟

أجاب الشرطى :

- اليوم عطلة .

لمعت عينا شيرعلى الضيقتان وهو ينظر إلى الشرطى وقال :

- إن اليوم ليس يوم الجمعة.

قال الشرطى :

- نعم ليس يوم الجمعة ، ولكنه يوم عطلة.

- إذاً متى يأتى ؟

- تعال غداً .

توجه شيرعلى وهو غاضب متضايق إلى السوق يتناول الشاى ، كان قلبه مليئاً بالهواجس ، وكان يود أن يسأله أحد ويتحدث معه حتى يروى له قصته ، لكن أحداً لم يسأله فى شىء ، وفى النهاية – وبدون مقدمات – قام هو بسرد قصته لشخص لا يعرفه ، كيف غير النهر مجراه ، وكيف استولى جاره على مرعاه ، وكيف حضر ليعرض الأمر على قائد الشرطة ، وكيف قال له الشرطى إن اليوم عطلة .

كان وجه الرجل المجهول تبدو عليه البلاهة ، كانت عيناه مركزة على فم شيرعلى بصورة يبدو معها أنه لم يكن يستمع إلى حديث شيرعلى وإنما كان مشغولاً للغاية بأفكاره هو.

– وعندما انتهى شيرعلى من قصته الطويلة الممتدة سأل الرجل :

– والآن هل أقدم شكواى أم لا ؟

أجاب الرجل :

– نعم ، قدم شكواك .

وسأل شيرعلى مرة أخرى:

– حسن ، والآن هل لجارى الحق فى أن يأخذ مرعاى ؟

قال الرجل :

– معه حق.

فسأل شيرعلى بعصبية:

– كيف معه حق ؟

قال الرجل :

– لا ليس له الحق.

هدأ شيرعلى وقال :

– حسن ، والآن هل المرعى ملكى أم لا ؟

أجاب الرجل المجهول بنفس الوتيرة :

– نعم ، إنه لك .

سأل شيرعلى مرة أخرى :

– هل لجارى الحق فى أن يترك أبقاره ترعى فى مرعاى ؟

أجاب الرجل المجهول :

– له الحق .

صرخ شير على بعصبية :

– كيف له الحق ؟

أجاب الرجل :

– ليس له ... ليس له حق

سأل " شيرعلى " :

– حسن ، والآن أيحق لى أن أُخرج أبقاره من مرعاي ؟

أجاب الرجل :

- نعم : أخرجها .

وأعاد شيرعلى السؤال :

حسن ، والآن هل يحق لجارى أن يقول إن النهر قد منحه مرعاى ؟

قال الرجل المجهول مجيباً :

- نعم ، له الحق

التزم شيرعلى الصمت ، ونظر إلى الرجل المجهول باشمئزاز ، وورد بخاطره أن هذا الرجل فى غاية الحمق ، وأنه لا يليق أن يتحدث معه أحد ثم تصور أنه ربما يكون هذا الرجل مساعداً ومعيناً لجاره وأولاده ، ذلك لأنه واضح جداً أنه يؤيد جاره ، من المؤكد أن هناك علاقة بينهما ، ترك الشاى دون أن يكمله وقام من مكانه وقال للرجل المجهول :

- حسن ، سيكون لى معكم شأن ، معكم جميعاً أيها الظالمون !

أجاب الرجل المجهول الذى كان مشغولاً بشئونه هو :

- حسن ، حسن جداً .

خرج شيرعلى من المقهى وتوجه إلى بيته وهو غاضب ، فرأى أبقار جاره ما زالت ترعى فى مرعاه ، بينما تتنقل بقرتاه بعيداً عن المرعى هنا أو هناك ، ورأى زوجته وهى جالسة بجانب النهر الصغير وتنظر إلى المرعى بحسرة ومرارة ؛ فار الدم وازداد غلياناً فى قلب وكبد شيرعلى ؛ وصار يشعر بالمرارة الشديدة وقال فى نفسه:

– حسن ، غداً سأحدد كل شيء.

حين ذهب إلى رئيس الشرطة في اليوم التالي رأى جاره وقد سبقه إلى قسم الشرطة ومعه ثلاثة رجال قرويون فسأل نفسه عن سبب مجيئهم ، ولكنه لم يجد إجابة ، توجه يميناً في اتجاه رئيس الشرطة ، وبعد فترة انتظار استقبله قائد الشرطة ، وكان قائد الشرطة جالساً خلف طاولة يقرأ الجريدة ، كان العرق يجري فوق رأسه وعلى وجهه مع أن الجو ربيعي معتدل ، وقال شيرعلي في نفسه : إن قائد الشرطة رجل محظوظ ؛ لأن أحداً لم يأخذ مرعاه.

ثم روى القصة لرئيس الشرطة وكيف غير النهر مجراه ، وكيف استولى جاره على مرعاه ، وكيف حرمت بقرتاه من الخضرة ، وكيف جاء بالأمس ولكنه كان عطلة ، وكيف روى قصته في المقهى لرجل لابد أنه كان متعاوناً مع جاره.

وفي النهاية مسح قائد الشرطة رأسه الصلعاء وجفف عرقه بالمنديل واعتقد شيرعلي أنه لو فرض أن قائد الشرطة يذهب إلى بيته سيراً على الأقدام فسيجري الماء من كثرة عرقه ، ثم قال من حسن الحظ أن قائد الشرطة لا يذهب لبيته سيراً على الأقدام وأنه جالس هنا ، وإلا فلمن يعرض شكواه.

قطع قائد الشرطة عليه أفكاره وسأله :

– إذاً أنت " شيرعلي " ، نعم .

تعجب شيرعلي كيف يعرفه قائد الشرطة ، وبدأ بداخله يكن إحتراماً عظيماً لقائد الشرطة ، وجال بخاطره أن هذا الرجل لم يصبح

رئيسًا للشرطة بمحض الصدفة ؛ فهو يواسى الرجل ويشاركه معاناته ، واعتقد أن قائد الشرطة سيعيد إليه حقه فورًا ، وسيعيد إليه حق أولاده أيضًا ، وقال إن أولاد الجار ليسوا مذنبين وكذلك والدهم لم يرتكب كبيرة ، فقط لو لم يكونوا أخذوا مرعاه لما احتك بهم أو تعرض لهم.

سأل قائد الشرطة مرة أخرى :

- إذًا أنت شيرعلى ؟

أجاب :

- نعم ، أنا شيرعلى .

قال قائد الشرطة :

- هناك دعوى ضدك:

اضيقت عينا شيرعلى أكثر مما هى عليه ، واعتدل وقال :

- لماذا ؟

أجاب قائد الشرطة :

- هددت بالسلاح بعض الناس.

لم يفهم شيرعلى شيئًا من هذا القول ، وسأل :

- ما الذى فعلته ؟

قال قائد الشرطة مرة أخرى :

- الدعوى هى أنك قد هددت شخصًا بالسلاح.

تلفت شيرعلى هنا وهناك فى مكتب قائد الشرطة ، وكأنه يريد أن يجد أحداً يطلب منه تفسيراً أو ترجمة لأقوال قائد الشرطة ، لكنه لم يجد أحدًا ؛ فقال وقد بدت على وجهه الوداعة واهتزت لحيته:

– أنا لم أفعل شيئًا ·

قال قائد الشرطة :

– إنك هددت شخصًا بالسلاح ·

قال شيرعلى مرة أخرى :

– قسمًا بالله ما فعلت شيئًا على الإطلاق ·

ضغط قائد الشرطة على زر فوق طاولته فأحدث صوتًا ، وفُتح الباب ، ودخل منه ذلك الشرطى الذى رآه بالأمس ، فدق الجندى الأرض بأقدامه وأدى التحية وتخيل شيرعلى الذى بدا وكأنه طفل أمام الجندى طويل القامة ، تخيل أنه قد جاء حتى يحمله ويقيده ، فارتعد بشدة خشية من الجندى وكان يريد أن يصرخ ويقول إنه لم يفعل شيئًا وإن النهر الذى غير مجراه ، وهذا ليس ذنبه ، غير أن قائد الشرطة قال للجندى :

– أحضر الشاكين·

ضرب الشرطى الأرض بقدمه مرة أخرى وخرج ، وبعد برهة دخل الجار ومعه ثلاثة رجال قرويون فقال قائد الشرطة للجار:

– أهذا هو نفس الرجل الذى هددك بالسلاح ؟

ابتهجت وانفرجت أسارير الجار بطلعته السيئة القذرة الساحرة ، وابتسم ابتسامة زائفة وقال :

– نعم ، هو نفسه .

قال القائد لشيرعلى :

– أرأيت ؟

قال شيرعلى متضرعاً :

– إنه يكذب ، لم أفعل شيئًا مطلقًا ، قلت فقط إن المرعى ... قطع القائد حديثه وسأل الجار قائلاً :

– هل لديك شاهد ؟

فأشار الجار إلى الرجال الثلاثة وقال :

– هؤلاء هم الشهود .

قال قائد الشرطة للرجال القرويون :

– هل قام شيرعلى بتهديد جاره بالسلاح ؟

على الفور – وفى نفس واحد – أجاب الرجال القرويون بطلعتهم التى لفحتها الشمس وأسنانهم الصفراء :

– فعل ... نعم فعل.

راح شيرعلى يفكر فى نفسه :

– فى النهـاية من أين هؤلاء القـرويون ؟ أنا لا أعـرفـهم ، ولم أقم بالشكوى فى حقهم ، يجب أن يفهم قائد الشرطة مثـــل هذه الأشـــياء ، فأشار بيده إلى الرجال القرويين وقال :

– أنا لا أعرف هؤلاء ، وما كنت قد رأيتهم قبل اليوم.

قال قائد الشرطة :

– لا توجد مادة فى أى قانون تحتم ضرورة أن يتعرف المتهم على الشهود ، وهذه مسألة بديهية فى القانون.

سقط شيرعلى فى حيرة من أمره ، واستمع إلى هذه الكلمات فاغرًا فاه ، ولم يفهم منها شيئًا ، ولم يكن يعلم ماذا يقول بعد ذلك ، ونظر باستعطاف صوب الجار والرجال الثلاثة الذين كانوا ينظرون بحيرة ودهشة إلى رأس قائد الشرطة الصلعاء .

أما الجار فقد ابتسم ابتسامة ماكرة .

تخيل شيرعلى أن قائد الشرطة قد لا يكون على دراية أصلاً بالموضوع ؛ ومن هنا بدأ شيرعلى يقص حكايته ، وكيف غير النهر مجراه ، وكيف استولى جاره على مرعاه ، وكيف ولكن قائد الشرطة قاطعه وقال :

– أحضر دعواك مكتوبة ، أما الآن فأنت متهم .

علّت الأصوات وتداخلت ، كان شيرعلى يقول إن جاره استولى على مرعاه ، وكان الجار يقول إن شيرعلى كان يريد أن يقتله بالبندقية ، وكان قائد الشرطة يقول لشيرعلى إنه هدد جاره بالسلاح وشيرعلى

يقسم أنه لم يفعل شيئًا ، ولم يرتكب إثمًا .. والرجال القرويون بأسنانهم الصفراء يكررون نفس الكلمة :

- فعل... فعل...

ازداد عرق قائد الشرطة ، وقد سلط شيرعلى عينيه الضيقتين على قائد الشرطة الذى اضطرب حاله حتى إن شيرعلى كان يخشى أن يصاب قائد الشرطة بالجنون بسبب غزارة العرق فكان ينظر فيما حوله ليجد شيئًا يجفف به العرق حتى لا يفقد قائد الشرطة صوابه.

بعد ذلك ازدادت عصبية الحاكم فقام من مجلسه وراح يلقى أوامر مما أزال الحيرة والخوف من قلب شيرعلى ، وأدرك أن قائد الشرطة لن يصاب بالجنون بهذه السهولة ، وقال فى نفسه : لعل كثرة العرق هى من طبيعة قائد الشرطة .

استدعى قائد الشرطة الجندى وأمره بأن يخرج الجميع من مكتبه ، وأعلن أن الدعوى ستصبح قضية رسمية فى المحاكم.

خرج الجميع بدون نتيجة وانشغل شيرعلى بتحرير شكواه كتابة ، وراح يتنقل من مكتب لمكتب آخر.. من هناك ينتقل إلى مكتب ثالث ثم يعود للمكتب الأول ومنه إلى مكان آخر.

كان شيرعلى حائرًا بشكواه ، واستغرقت هذه الحيرة أيامًا ، ومرت الأسابيع والأوراق تتراكم وتزداد وتمتلىء بالكتابة والخطوط المتعددة والمتنوعة ؛ حتى وصل طول الدعوى المكتوبة إلى عدة أذرع ، ولكن دون نتيجة.

كان شيرعلى يخرج من بيته كل صباح عاقداً العزم والنية ، ويقول لزوجته :

– أنا ذاهب للمحكمة .

ودون أن تتحدث المرأة بشىء كانت تنظر إليه بحيرة وإشفاق.

وفى المحكمة كان يتوه ما بين هنا وهناك ، وكان يتناول الشاى فى المقهى ، ويتناقش مع الناس فى دعواه ، كان يرد عليهم بالتفصيل ويتعاطف معه الجميع ، وعلم الجميع بأمره وقصته ، وأصبح الكل يعرفه الآن : قائد الشرطة يعرفه ، والقاضى يعرفه ، والموظفون فى المحكمة يعرفونه ، وهؤلاء الجنود يعرفونه أيضًا ، غير أن نتيجة شكواه لم تكن معلومة.

وفى أوقات العصر حين كان يعود متعبًا ومنهكًا إلى بيته ، كان يرى أبقار جاره ترعى فى حقله، وأبقاره هو تائهة تتجول هنا وهناك.

وكانت زوجته تجلس بجانب النهر الصغير وهى تنظر بحسرة إلى المرعى والحقل.

وذات يوم فى المقهى قرأ أحد الأساتذة كل أوراقه ثم هز رأسه بأسف وقال:

– أيها الأخ . لقد خسرت دعواك !

فرقعت آذان شيرعلى وجفت شفتاه ، وسأل الأستاذ وهو ينظر إليه بعيون فاحصة لامعة:

– كيف خسرت دعواى ؟

أشار الأستاذ إلى الأوراق ورد قائلاً :

- كل شيء هنا ضدك ، لقد خدعوك واحتالوا عليك.

- شعر شيرعلى بالعجز الشديد ، ودب فى قلبه حمل ثقيل كله ألم وحزن ؛ حيث كان يرى أن مرعاه قد ضاع من يده ، وأن أبقاره جائعة ، وأنه فقد كل ما لديه ، وأن زوجته تتجرع بحسرة مرارة ضياع المرعى ، وأنه فى النهاية خسر دعواه ، وتصور أن هناك قوة خفية تقاتله ، وشعر بكراهية عميقة يكنها فى قلبه تجاه جاره البخيل ، وخطر بباله أن كل شيء سببه النهر ؛ فلو أن النهر لم يغير مجراه...

توجه إلى البيت ومعه كل هذه الأفكار والأخيلة ، كانت الدنيا قد أظلمت حين اقترب من بيته وعبر النهر الصغير ، ووطأت قدماه المرعى فتجول فيه ، والألم يعتصر قلبه وشعر فى هذه الحالة كأن حشائش المرعى تشكو النهر الصغير.

وقف فى منتصف المرعى ، وكان يبدو له عن بعد ضوء مصباح منزل جاره ، وشعر بالكراهية والغضب تجاه ذلك البيت ، واستمع لحظة لصوت خرير مياه النهر ، وتصور مرة أخرى أن النهر الصغير هو المتسبب فى كل ما حدث .

بعد ذلك تداخل فى مخيلته منظر النهر الصغير ومنزل جاره ، وتصور أن النهر والمنزل شريكان متعاونان ، وازداد فى نفسه الإحساس الشديد بالوحدة ، وبينما هو يشير بإصبعه أحيانًا تجاه بيت جاره وأحيانًا أخرى تجاه النهر صرخ فجأة وقال :

- أنتما عدواني كلاكما عدو لى ، وأنتما ظالمان !

تملكه الغضب والبغض وجلس فى المرعى وانساب الدمع حارًا من عينيه الصغيرتين ، وأحس أن الدنيا بجبروتها تعاديه وتمتم بمـرارة وقال :

– يا إلهى ، ما العمل ؟

توجه إلى بيته وهو مطأطىء الرأس ، فظهر وكأن قامته قد صارت أقصر مما هى عليه ، وقال لزوجته:

– لقد خسرت الدعوى.

قالت زوجته :

– كيف خسرتها ؟

قال :

– لقد خدعونى ، واجتمعوا جميعًا ضدى .

قضى ليلة قاسية اعترته الحمى وتشنجت أعصابه ، كان يرى أحلامًا مشوشة مضطربة ، كان يرى غرفة القاضى والمكاتب المختلفة والمقهى والناس والشرطى والرجال القرويين الثلاثة والجار اللعين والأستاذ الذى كان يقول :

– أيها الأخ لقد خسرت دعواك ! لقد خسرت دعواك !

كان يرى المرعى وقد أصبح تحت سيطرة الجار ، وكان يرى أبقاره وهى جائعة حائرة تائهة ، وكان يرى أبقار جاره وهى ترعى فى مرعاه هو ، وكان يرى زوجته التى تنظر إلى المرعى فى لوعة وحسرة.

انتفض شيرعلي واقفًا ، ونظر إلى الخارج من خلال فتحة الكوخ ، كان الماء ينساب فى النهر بصوت رقراق والمرعى يلفه الصمت وكأنه راح فى ثبات عميق .

عاد إلى مخدعه مرة أخرى وتمدد ، لم يكن يعلم لماذا اتحدت ضده كل هذه الأشياء وهؤلاء الأشخاص واجتاحه الشعور بالألم والمرارة ، وكانت لحيته تهتز فى الظلام ، وتسمرت عيناه الصغيرتان وهما تحملقان فى سقف الكوخ ، وشعر مرة أخرى بالوحدة والوحشة ، وراح يردد :

– ماذا أفعل يا إلهى ؟

وعاد للنوم مرة أخرى ، وعادت إليه الأحلام المضطربة المشوشة ؛ فرأى مرعاه مرة أخرى ، ورأى أبقار الجار ترعى فى مرعاه وأبقاره هو نحيفة هزيلة تتجول هنا وهناك حائرة تائهة ، رأى أبقاره تنظر فى حسرة وألم إلى المرعى كما تنظر إليه زوجته ، كان النهر ينساب ويفيض بأشياء أخرى غير الماء فيرى فى مجراه جاره بطلعته المقززة والماكرة وقائد الشرطة بعنقه الذى يتصبب عرقًا والقاضى بوجهه الأصفر ولحيته السوداء ، وأولاد الجار بأبدانهم القوية والرجال القرويين بوجوههم التى لفحتها الشمس وأسنانهم الصفراء رأى كل هؤلاء جميعًا ينسابون فى مجرى النهر بدلاً من خرير المياه وصوته العذب ، كانت تصدر عن النهر أصوات أخرى ، فالجار يقول وهو يسير فى مجرى النهر:

– لقد منحنى النهر المرعى... منحه لى... منحه لى... ، وقائد الشرطة يردد أيضًا ويقول :

– لقد هددت بالسلاح... لقد هددت بالسلاح.

والقاضى كان يؤكد ويردد.

– يوجد ثلاثة شهود مسلمون أحرار ، عاقلون ، بالغون ... ثلاثة شهود ، وكان أبناء الجار يقولون :

– إن الحد الشرقى لأرضك هو النهر ... الحدود الشرقية عند النهر... وكان الرجال القرويون يصحيون:

– لقد ارتكبت الجريمة.. لقد فعلت...

كانت هذه الأصوات تتداخل فيما بينها وتصطدم بالصخور والأحجار ، وتتردد فى أرجاء الوادى دون أن تكون لها نهاية ، وكانت كل أرجاء النهر تفيض بهذه الأصوات والأحداث.

وشعر بعد ذلك أن عيونهم مصوبة تجاه أبقاره وبيته وأرضه ، وأن هذه العيون تبرز منها وتشتعل نيران الحرص والطمع ، وشعر أنهم يريدون أن يسلبوه أبقاره وأرضه أيضًا ؛ فصاح بغضب ومرارة:

– لن أتركهم... ولن أترك الظالمين...

إنتفض من نومه ، وكان يتصبب عرقًا وتلهث أنفاسه ، وكان قلبه ينتفض بشدة فخرج من البيت ، ولم يكن الصبح قد لاح بعد ، فعاد مرة أخرى إلى كوخه وحمل بندقيته القديمة وخرج من البيت وعبر النهر وتمدد فى المجري القديم للنهر.

عم الضياء تدريجيًا ، ورأى شيرعلى أن خادم جاره يسوق أبقاره نحو مرعاه ، فهب واقفًا وصاح :

– لا تتقدم!

توقف الخادم ، وشعر بالخوف وفر دون أن ينطق بكلمة ، وبعد ذلك ظهر جاره يرافقه ولداه ، فصرخ عليهم شيرعلى وقال :

– لا تتقدموا :

قال الجار بصوت مرتفع :

– ماذا تريد يا شيرعلى ؟

رد شيرعلى ·

– أريد مرعاى·

قال الجار :

– عن أى مرعى تتحدث ؟

قال شيرعلي وهو يضرب بقدمه على الأرض :

– أتحدث عن نفس هذا المرعى·

صاح الجار قائلاً :

– هل جننت ؟

قال شيرعلى :

– نعم جننت .

قال الجار :

– إن القانون يفصل فى دعوانا .

لم تعد عيون شيرعلى تلمع وتسطع كما كانت ؛ بل صارت تقطر غضبًا وحنقًا ، وصاح قائلاً :

- أنا سأفصل بنفسى ، وهذا المرعى ملك لى !

اقترب الجار ، وكان شيرعلى ينظر فى وجهه الماكر ، ورآه وهو يبتسم فى سخرية وتذكر أحلامه ، وتذكر أن الجميع اتحدوا ضده ، وأنهم صوبوا عيونهم نحو ممتلكاته ، وأنهم يريدون سلب كل ما يملك ، وفى هذه اللحظات تجسدت أمام عينيه كل ذكريات الماضى ، ورأى أمامه أمه وأباه ، وتذكر أن والده وهو فى فراش الموت كان قد قال له بأن يحافظ تمامًا على المرعى ، والآن فها هو يسمع صوتًا يأتيه من أعماقه ويقول:

- أخذوا منك مرعاك ... سلبوه منك... الآن.

وكان جاره وأولاده قد اقتربوا منه كثيرًا ، وصاح جاره:

- أتهدد بالسلاح مرة أخرى؟

أحس شيرعلى بالكراهية الشديدة تجاه طلعة جاره السيئة المنفرة ، وفار الدم فى رأسه ، وفجأة زمجرت بندقيته ثلاث مرات .. وسقط الرجل وأولاده على الأرض ، وكان صوت الطلقات الثلاث يجلجل فى أرجاء الوادى فارتعدت الطيور ولاذت بالفرار ، كما دخلت الزواحف الجبلية جحورها.

كانت الشمس قد أطلت برأسها من جديد والنسيم العليل يهب فى الأرجاء ؛ فملأ شيرعلى صدره من هواء الصباح النقى ، ونظر إلى جثث

الرجال الثلاث ، ورأى بعد ذلك أبقاره تعبر مجرى النهر وتتجه صوب المرعى ؛ فراح يعدو خلفها وقد ملأت السعادة قلبه ، واهتز بجسده زهواً وإعجاباً بصورة تلقائية ، كان يشعر بالظمأ فارتوى من ماء النهر ، وكان الماء يجرى رقراقًا فى مجراه ، وتصور شيرعلى أن النهر ليس عدواً له.

وشعر بالرغبة الشديدة فى النوم ، فوضع بندقيته تحت رأسه ، وأحس براحة شديدة ، وتصور وهو ما بين النوم واليقظة أن أحد أبقاره تلسم عنقه ، وفى نفس الوقت رأى زوجته وهى جالسة بجانب النهر ، وهى معجبة بالنهر ، ولم يعد يلحظ الحسرة أو المرارة على وجه زوجته ، وقد انفرجت أساريرها وزالت عنها التجاعيد.

رفع شيرعلى رأسه وابتسم لزوجته ، وكانت عيناه تلمع وتشع نوراً ببساطة وتلقائية أكثر من ذى قبل ، وهز النسيم لحيته الخفيفة ، وراح يتحسس بيديه المرعى ، وراح يصيح بصوت عال وكله لهفة وإعجاب :

– مرعاى ... مرعاى .

وفجأة انخرطت زوجته فى البكاء.

النهاية

النهر

إن جريان النهر يشبه قصة بلا نهاية تماماً مثل قصة الحياة ، إنه يجرى ويسير بصفة دائمة فى مجراه ، يجرى ليل نهار فى الربيع والشتاء.

لم تكن هناك نهاية لجريانه ، وهو كقصة الحياة يبقى صوته قادماً من بعيد بنغماته الخاصة.

كان النهر يزبد ويزأر ، ولم تمنعه الصخور والأحجار هنا وهناك من أن يغير مجراه ؛ فكان يزداد زبداً وزئيراً ، وترتفع أصواته وتعلو مثل الذبيح، وكان يعود مرة ليسير فى نفس مجراه ويواصل سيره فى اتجاه الأرض المجهولة.

وعلى مشارف النهر كانت تتواجد مزارع القمح والذرة ، وقد استقرت بيوت القرية أسفل الجبل ، كانت البيوت من الطين وبطريقة متداخلة وعشوائية تشبه تماماً رداء الرسام على الطراز الحديث ، كان سكان القرية وحدهم فقط هم الذين يعرفون كل شيء عنها ، كان كل شيء معلوماً ومعروفاً لديهم ، كانوا يستطيعون فصل كل شيء عن غيره ، هذا بيت فلان وهذا منزل علان ، وهذه شجرة تين جبلية ضخمة ، وهذا بيت ميرجل الذى كان له بيت فى القرية من البوص وهو يشبه

الكوخ ، كان رجلاً طويل القامة قوى البنية ، لون بشرته بنى ، أسنانه حادة بيضاء ، ملابسه قذرة وقديمة دائمًا ؛ فهى لم تر الماء لعدة أشهر ؛ ذلك لأنه لم تكن له أم ولا زوجة ولا بنت حتى يغسلوا ملابسه ، كانت زوجته قد توفيت وله طفل واحد فقط عمره اثنتا عشرة سنة ، وكان ابنه على العكس منه بشرته بيضاء كالحليب ، عيناه زرقاوان ، شعره ناعم لامع ، كان يغطى دائمًا عينه اليمنى فكان الولد يحرك رأسه فيزيح الشعر عن عينيه ، وكان الابن نحيف القوام سريع العدو ، خفيف الحركة مثل الجدى ، وكانت ملابسه أيضًا قذرة قديمة ، فهى لم تر الماء لعدة أشهر.

وكان كلاهما - الأب والابن - يعملاً لدى سيد المنطقة ، وقبل أن تشرق الشمس كان ميرجل يعقد العزم ويعلق بندقيته بكتف ابنه ويسوق أمامه قطعان خراف وماعز سيده ، ويسير فى الشعاب الشمالية المرتفعة ، وهناك كان ميرجل يضع بندقيته تحت رأسه ويتمدد فوق صخرة ضخمة ويهيم مع الجبال المغطاة بالخضرة والأعشاب ، وكان يفكر فى حاله وحال ابنه ، ويسأل نفسه دائمًا :

- ما مستقبل ابنى ؟

وبعد ذلك كان يعود للتفكير فى ابن السيد الذى كان في نفس عمر ابنه ، ثم يسأل نفسه مرة أخرى:

- ماذا يفعل ابن السيد الآن ؟

فكان يخاله ممتطيًا صهوة جواده وقد أقبل للتنزه.

كان يزمزم ويتمتم بهدوء .

وبعد ذلك كان يعتدل ويجلس ، وكان هناك شيء يخمش قلبه ، كانت أيامه مريرة ، فكان يعود ويتمتم قائلاً :

- إنه سعيد الحظ.

كان يقف وينظر فيما حول يديه ويقول بصوت مرتفع :

- حسنًا ، دعنا منه ؛ فهو كسول مهمل.

فكان يبحث عن ابنه فيراه يلعب ويلهو مع الجديان ، فيضع يديه حول فمه وينادى :

- لقد صعد حمل فوق تلك المرتفعات!

كان الولد يقف وينظر بعينيه مدققًا إلى الجهة التى كان والده قد أشار إليها ويقول :

- سأذهب... سأذهب.

وبعد ذلك كان يعدو فى نفس الاتجاه مثل الأرنب الخفيف الظل .

كان ميرجل يعلم أن كافة الحملان لم تبرح مكانها ، ولكن ذلك فقط لمجرد أن يجعل ابنه مختلفًا عن ذلك الطفل الذى كان يمتطى صهوة الجواد للتسلية والتنزه ، وكان يقوم دائمًا بمثل هذه التصرفات.

وكان الطفل ينادى من فوق المرتفعات :

- لا يوجد هنا حمل.

فكان ميرجل يرد عليه :

- تعال ... عاد بنفسه .

كان الابن يعود وهو يتصبب عرقًا ، وكان والده يراه ولا يقول شيئًا .

وكثيرًا ما كان يستيقظ ميرجل فى منتصف الليل ؛ فتدور فى رأسه أفكار عديدة ، كان يفكر فى كل شىء وفى كل شخص.

وفى النهاية كان يفكر فى حال ابنه ، ثم ينتقل بتفكيره إلى ابن السيد ويسأل نفسه:

- ماذا يفعل الآن ؟

فكان يجيب بنفسه .

- إنه ينام الآن نومًا هانئًا مستريحًا .

كان فى تلك اللحظة ودون أن يدرى ينادى على ابنه ، فيستيقظ الابن.

كان ميرجل يقول :

- انظر هل ذلك الخروف ذو البقعة السوداء فى جبينه موجود بين الخراف ؟

كان الابن يشعل المصباح ويتوجه للخراف ، وكان ميرجل يعلم أن الخروف موجود فى مكانه ، ولكنه كان يريد أيضًا أن يجعل ابنه شيئًا مختلفًا عن ذلك الطفل الموجود الذى ينام مستريحًا فى فراشه ، فكان الابن يعود ويقول:

- إنه موجود ..نائم.

- كان ميرجل يقول :

- حسنًا .

وفى أيام الصيف القائظ ، وبينما كان ابن السيد ينام فى البيت ، كان ميرجل يعدو هنا وهناك يبحث عن ابنه ، ويبعث به فى طلب شيء ما تحت حرارة الشمس الحارقة ، فكان الابن يذهب ، وكان قلب ميرجل يعتصر ، كان يريد أن يبكى ، أن يصرخ ، ولكنه لم يكن يفعل شيئًا ، كان يتألم فقط فى صمت ويقول :

- رباه ، لماذا أفعل هكذا ؟

لم يكن يجد إجابة ، لكنه كان يريد أيضًا مرة أخرى أن يجعل ابنه شيئًا مختلفًا عن ابن السيد ، وكان يقول لنفسه:

- يجب أن يكون هناك فرق ، يجب أن يكون...

ذات يوم خيم الهدوء على القرية ، وفجأة انطلقت أصوات البنادق ودقت الطبول ، وهذا معناه الإعلان عن وقوع حدث خطير ، تجمعت النسوة والفتيات فوق أسطح المنازل ، وهرول الرجال والأولاد نحو النهر ، وبعد فترة انتشر الخبر فى كل مكان.

- لقد غرق ابن السيد فى النهر!

كان الرجال قد تجمعوا عند ضفاف النهر ، وكان السيد فى وسطهم يضم ثياب ابنه إلى صدره وهو هلع مضطرب ، وكان يسأل :

- هل غرق حقًا ؟ من رآه ، من رآه ؟

رد الحطاب وقال بالتفصيل:

- كنت هناك ... كنت فوق ذلك المرتفع حين سقط فى النهر ، استغاث مرة واحدة فقط "أبتاه" بعد ذلك عدوت بسرعة ، لكنه كان قد اختفى .

صرخ السيد:

- رباه ، ما الذى حدث لابنى ؟

وكان يجرى هنا وهناك وهو مضطرب هلع ، يطلب المساعدة من الجميع ويسألهم :

- لماذا جاء وحده ؟ لماذا ؟

ولم يكن يرد عليه أحد ، ثم قال لهم:

- اذهبوا للبحث عنه عند نهاية النهر.

أسرع الرجال المسلحون فى اتجاه مجرى النهر ، وأسرع السيد أيضاً ، وكان ما زال يضم ثياب ابنه إلى صدره ، وكان يبدو له أن النهر غاضب ، كان يزأر ويزمجر بحده ، وكأنه أسرع وعجل بخطف ابن السيد ، سقطت عكاز السيد وتناثر شعره الأسود فناوله أحد الرجال عكازه ، كان السيد يجرى ويسيل الدمع من عينيه ، وكان يردد بلا توقف :

- رباه... رباه!..

كان الرجال مضطربين ، كانوا يجرون ويبحثون بين الصخور والأحجار الواقعة على ضفاف النهر ، ولكن لا شيء يدل على وجود ابن السيد .

كان النهر قد اختطفه وابتلعه في بطنه ، وكان يحمله صوب مناطق مجهولة.

كانت الشمس قد غربت ، لكن الجو كان مازال مضيئًا ، وكانت أصوات نواح النسوة من داخل قلعة السيد تترامى إلى الأسماع ، ولم يكن الرجال قد عادوا بعد من البحث عن ابن السيد ، وكان ميرجل قد علق بندقيته بكتفه متجهًا إلى النهر يتعقبه ابنه ، اجتازا مزارع القمح والشعير ووصلا عند النهر ؛ حيث المكان الذى كان ابن السيد قد غرق فيه.

كان النهر ما يزال غاضبًا هائجًا يزبد ويزأر ، ولم تمنعه الأحجار والصخور المتناثرة هنا وهناك من أن يواصل مسيره ، بل كان النهر يزداد هياجًا.

نظر ميرجل حوله إلى ابنه وإلى النهر ، لم يكن يعلم الابن لماذا أحضره والده إلى النهر فى هذا الوقت.

سأله ميرجل:

– هل تعلم أن ابن السيد غرق فى نفس هذا المكان؟

رد الولد :

– نعم ، نفس هذا المكان.

ثم قال ميرجل :

- إنه لم يكن يستطيع أن ينقذ نفسه.

هز الولد رأسه موافقًا ، صمت ميرجل ونظر إلى النهر ، كان زبد النهر يجتاح رأسه ، لم يكن يسمع صوتًا سواه ، وكان هناك شيء ما يتحرك بداخله ، وفجأة استعاد في ذاكرته صورة ذلك الولد ابن السيد وهو يمتطي صهوة جواده ويتنزه ، ثم تخيله وهو نائم على فراشه الوثير ، ثم رآه أيضًا وقد استلقى واسترخى تحت الظل الوارف يستريح من حرارة الصيف ، ثم تصوره في النهاية وهو يلاطم أمواج النهر ويغرق ويصرخ : أبتاه ... وعلى الفور أمسك بساعد ابنه واقترب من أذنه وقال :

- هل تستطيع أن تعبر من نفس هذا المكان ؟

ارتعد الابن وامتقع لونه وقال :

- لا ، لا أستطيع .

هز ميرجل ساعده بشدة وقال :

- ماذا تقول ، إنك تستطيع ؟

وعاد الابن وقال نفس الكلام :

- لا ، لا أستطيع ، فمياه النهر ها هنا شديدة للغاية.

جحظت عينا ميرجل ، وكان يرتعش وصرخ :

- إنك تستطيع!

صرخ الابن من الخوف:

- لا أستطيع ... لا أستطيع .

جذب ميرجل ساعد ابنه ، كان يريد أن يلقى به فى النهر بالقوة.

تمكن الابن بحركة سريعة من أن يخلص ساعده وهرب.

نادى ميرجل :

- صبراً ، صبراً ، إنك تستطيع .

لم يلتفت الابن وسارع بالابتعاد وارتقى الجسر.

توقف برهة فوق الجسر وعاد ، نظر إلى والده ، كان ميرجل قد مد يده إليه فى تضرع وتوسل وكان يقول له :

- تعال ... إنك تستطيع أن تعبر النهر من هذا المكان.. هيا أقبل..

وبينما كان الطفل يبكى بشدة ، كان يقول :

- أنا لا أستطيع... قسماً بالله لا أستطيع.

وضع ميرجل يده حول فمه وصرخ بكل قواه:

- أقول تعال...

قال الطفل وهو ما زال عند بداية الجسر:

- لا أستطيع...

كان ميرجل يرتعش هذه المرة من الغضب ، وقد سيطر عليه غضب جنونى ، فصوب بندقيته تجاه ابنه وعض على نواجزه وقال :

– أيها الجبان الرعديد!

وأطلق النار ، ترددت أصداء صوت الرصاصة فى الجبل ، لكنها لم تصب الهدف.

ألقى الطفل بنفسه على الأرض وعبر من فوق الجسر زاحفًا.

أطلق ميرجل النار مرة ثانية ، وترددت مرة أخرى أصداء صوت الرصاصة ، واختفى الطفل بين الصخور والأحجار وألقي ميرجل بالبندقية وانخرط فجأة فى البكاء ، كان يبكى من شدة اليأس والعجز ويقول :

– لماذا لا يستطيع ؟ ... لماذا ؟ ... إنه ليس ابن السيد...

كان يشعر بالحزن الشديد ، وتخيل أنه لا يمتلك شيئًا يسعد قلبه ، وانخرط مرة أخرى فى البكاء الشديد ، وأسند رأسه إلى صخرة ضخمة وقال :

– لماذا ؟ إنه ليس ابن السيد....

مرت فترة من الليل، وكفت الأصوات النائحة داخل القلعة ؛ فقد راحت القرية فى ثبات وسكون، الصوت الوحيد الذى كان يسمع هو صوت النهر.

كان ميرجل قد تمدد فى فراشه وقد انطفأ المصباح ، وكان ضوء القمر يتسلل للداخل فى هدوء عبر فتحة الكوخ ، وكان النوم يداعب

جفون ميرجل ، لكنه لم يكن يستطيع أن ينام ، فقد كان اليأس يعتصر قلبه.

وفجأة رأى بوابة الكوخ تنفتح ودخل ابنه وجلس بجانب الباب .

قال ميرجل بصوت كان يسمع بصعوبة :

– أتيت ؟ حسنا ؟

كان صوته يقطر يأساً ، قال الابن:

– لقد عبرت ذلك المكان ، الآن.

قال ميرجل بسرعة :

– ماذا قلت ؟

كرر الولد :

– عبرت من ذلك المكان الآن

اعتدل ميرجل بسرعة كأنه زنبرك وجلس على فراشه ، ولاحظ أن الماء كان يقطر من جسد ابنه ، فجرى الدم فى عروقه ، وتسارعت دقات قلبه وسأل :

– من نفس ذلك المكان ؟

أجاب الابن :

– نعم

هز الابن رأسه وقال :

– نعم ، أستطيع.

نهض ميرجل وقال :

– أريد أن أرى... أريد أن أرى الآن حالاً.

أخذ يد ابنه وخرج من الكوخ وتوجه صوب النهر ، وكان يتعجل خطواته وكأنه يسارع لقضاء أمر مهم وعاجل ، وكان ابنه يسير خلفه وهو يعدو .

كان القمر قد أضاء كافة الأرجاء والقرية لفها الصمت ، عبر الاثنان مزارع القمح ، وكان صوت النهر يرتفع أكثر وأكثر.

ثم وصلا إلى ضفاف النهر ، فكان النهر ما زال يزبد ويزأر ويموج ، ولم تمنعه الصخور والأحجار الموجودة هنا وهناك من أن يواصل مسيره ويجرى فى مجراه ، وكان ضوء القمر ينعكس فوق صفحة الماء ، وكان النهر يبدو مثل منجم من الفضة البراقة.

أمسك ميرجل ابنه من ساعده وقال :

– هذا هو نفس المكان ، أريد أن أرى.

كانت حبات العرق على وجهه تعكس ضوء القمر ، وكانت أنفاسه تتتابع وكأنه يعدو فى طريق طويل ، خلع الابن قميصه واقترب من الماء ووقف للحظة ونظر لأبيه وابتسم وألقى بنفسه فى الماء ، صرخ ميرجل بكل قواه كان الطفل مثل طائر صغير يضرب بيديه وقدميه ويصارع الأمواج وجرفه الماء بسرعة بعيداً واختفى الولد بين الأمواج ، وكانت

الأصداء تتردد فى رأس ميرجل ويقول لنفسه مزمزمًا ! يا إلهى ، ماذا فعلت ؟

وبعد ذلك انطلق سريعًا نحو مجرى الماء وهو يردد ويقول دون توقف :

– يا إلهى ماذا فعلت ؟! ولماذا كان هذا العمل..

تملك الخوف والقلق قلبه... ووضع يديه حول فمه وراح ينادى على ابنه ، فسرى صوته فى الجبل وتردد صداه ، ولكن ما من مجيب ، وراح يجرى ويعدو مرة أخرى ، وصعد إلى أعلى ارتقى صخرة عالية ، ونظر بتفحص بين الأمواج وعند ضفتى النهر ، ولكنه لم ير ابنه فكان قلبه يدق بقوة ، وسيطر عليه الاضطراب ، فتوجه بسرعة فوق الجسر ، ووضع يديه حول فمه ونادى مرة أخرى على ابنه وسرى صوته فى الجبل وترددت أصداؤه ، ولكن ما من مجيب ، فبدا له أن النهر مثل منجم فضة متحرك ، وبكى بينما المرارة تجتاح حلقه وقال :

– ما هذا الذى فعلته ؟! يا إلهى .

وبعد ذلك رأى فجأة شيئًا صغيرًا أسود يخرج من الماء عند الضفة الأخرى من النهر ، لقد كان ابنه ، رفع ميرجل يديه عالية صوب السماء وصرخ فى لهفة .

– أحسنت .

ثم ضحك بصوت مرتفع وعبر الجسر بسرعة ، وتوجه إلى ابنه الذى كان يرتعش من البرودة.

قال ميرجل سعيداً وهو يساعد ابنه على ارتداء القميص :

- قلت إنك تستطيع ... قلت إنك تستطيع...

قال الابن وأسنانه تصطك ببعضها من شدة البرد:

- فى البداية كنت أشعر بالخوف.

أمسك ميرجل بيد ابنه وتوجه نحو الجسر ووقفا فوقه ونظرا بدهشة وإعجاب إلى صفحة مياه النهر ثم انفجرا الاثنان فى الضحك ، وكانت ضحكتهما أشبه ما تكون بعلامة الانتصار ، تردد صداها فى أرجاء الجبل ، وكأنهما كانا يقولان شيئًا بضحكتهما هذه .

- بمقدورنا أن نقوم بأعمال عظيمة.

إن جريان النهر وسيره هو أشبه ما يكون بقصة لا نهاية لها ، تمامًا مثل قصة الحياة.

ليتنى كنت حمامة

كان عددهم جميعًا أربعة أفراد : الأم ، والأخ الأكبر ، والأخت ، والأخ الأصغر ، كان عمر الأخ الأكبر تسع عشرة سنة ، والأخت سبع عشرة ، كانت نحيفة بيضاء قصيرة القوام ، والأخ الأصغر كان عمره سبع سنوات ، أما الأم فكانت سيدة عجوز.

فى ذلك اليوم ، مثل سائر الأيام الأخرى ، حملت الأخت قفص الطائر وعلقته بغصن الشجرة الوحيدة التى كانت قد نبتت فى الفناء الضيق الصغير واتكأت هي على جذع الشجرة ، وقد ركزت عينيها المشعتين السوداوين على الطائر ، وقالت كعادتها كل يوم :

- حسنًا ، هيا غرد .. وأنشد لحنًا ما.

كان الطائر ذو الأجنحة الليمونية والمنقار المقوس صامتًا ، ولم ينشد شيئًا ؛ فمنذ أن ماتت وليفته وهو لا ينشد ولا يغرد ، وكأنه كان يعيش حالة من الحزن والعزاء ، وأحست الفتاة بحزن الطائر ؛ فجرت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة لطيفة وقالت:

- حسنًا ، إن الإنسان أيضًا يموت... وعليك أن تغرد وتشدو مرة أخرى .

لكن الطائر كان صامتًا ؛ فهو فى حالة حزن وعزاء ، يئست الفتاة وصعدت إلى السقف ، وراحت تنظر من فتحة إلى الفتيات الصغيرات وهن يلعبن ، كانت البنات الصغيرات فى الحارة قد أمسكن بأيديهن وشكلن حلقة مستديرة متسعة ، وكن ينشدن بنشوة وسرور ووجوههن معلقات بالسماء ٠

- ليتنى كنت حمامة
- كنت أضرب الهواء بجناحى
- وألتقط حصوات النهر
- وأشرب مياه زمزم
- قو قو قو ...

شعرت الفتاة بالحزن واعتصر الألم قلبها ، كانت تريد أن تكون حمامة وتضرب بجناحها فى الفضاء ، وشعرت - كما هو الحال كل يوم - أن جدران الفناء الضيق الصغير تضغط عليها بشدة تريد أن تحطمها ، ورأت فى خيالها حمامة مثل حمامة طفل الجيران البيضاء التى تضرب بجناحيها فى الفضاء وتحلق حرة بلا قيود ، وبعد ذلك رأتها وقد ذهبت إلى ساحل البحر وراحت تلتقط الحصوات ، رأت البحر وكأنه جدول ماء كبير تناقص ماؤه وظهرت الحصوات الملونة ، وكان الماء الذى يمر من فوق تلك الحصوات يحدث أمواجًا رقيقة ، فكانت تلك الحمامة البيضاء تلتقط الحصوات من الشاطئ ، كان يبدو لها أن ذاك الجانب

من البحر مليء بالورود الحمراء الكبيرة ، وكانت الطيور تغرد ، وتتنقل بين الخضرة والورود والطيور الليمونية بمناقيرها المقوسة ، وبينما كانت تعيش بخيالها مع الحمامة البيضاء ، وأنشدت مع البنات فى نغمة واحدة :

- " ليتنى كنت حمامة ••• ليتنى كنت حمامة "

بعد ذلك قطع شيء حبل تفكيرها وعادت تشعر بالانقباض ؛ فابتعدت عن النافذة ، وتوجهت صوب السلم الخشبى الموجود فوق السقف ، وأطلت من هناك إلى الفناء ، فبدا لها أن الفناء الضيق الصغير عبارة عن سجن فى ذاته ؛ فراحت تفكر فى السجون التى يُسمع عنها فى الأساطير : الأساطير التى كانت ترويها الأم ؛ فرأت بخيالها الأمير الذى ألقت به الشياطين فى مكان مظلم سحيق ، هو فى رأيها يشبه فناء بيتهم ، رأت الأمير واقفًا تحت الشجرة الوحيدة التى نبتت فى الفناء الضيق والصغير وقد استند إلى جذع الشجرة وعيناه معلقتان بالطيور الحبيسة فى القفص ، حينئذ كان يقول :

- حسن ، غرد مرة أخرى ، أشدو بشيء ما

لكن الطائر الليمونى التزم الصمت ولم يشدُ بشيء ، أراد أن يقول للأمير الشاب:

- يوجد عزاء وحزن ، ولا مجال للغناء•

لكنها رأت باب الحارة يُفتح ، ودخلت إلى الفناء جنية جميلة ارتدت الحرير الأبيض من رأسها إلى أخمص قدمها فبدت مثل حمامة ابن الجيران البيضاء ، اقتربت الجنية فى هدوء من الشاب وقالت :

- أيها الأمير ، لماذا ألقيت بنفسك فى هذه المحنة

سأل الشاب متعجباً :

- من أنت ؟

جاءه الرد :

- أنا جنية جبل القاف ، قد أتيت حتى أخلصك من هذا السجن المظلم.

خرج الأمير الشاب مع الجنية وتركا السجن المظلم ، وكان الطائر الليمونى وسط القفص معلقاً بغصن الشجرة لا ينشد شيئًا ، كان يعيش فى حالة الحداد.

أحست الفتاة أن هذا السجن المظلم عدو حياتها ، وتعلقت عينها بباب الحارة ، وكأنها كانت تنتظر أن تدخل جنية جبل القاف وتأتى لتخرجها من هذا السجن المظلم ، انفتح باب الحارة ، لكن لم تكن الجنية ، كان القادم أخاها الصغير وقد عاد ملوثًا بالغبار ، سألته الأم:

- أين كنت مختفياً ؟

طأطأ الأخ الصغير ورد قائلاً :

- كنت ألعب.

قالت الأم غاضبة :

- تخطف الصقر رأسك.

لم يرد الأخ الصغير.

تخيلت الفتاة وهى تنظر من أعلى من فوق السقف أن الأم والأخ الأصغر هما أيضًا فى سجن ، وأن شخصًا ما ألقى بهما داخل السجن ، وحاولت أن تبحث عمن ارتكب هذا العمل دون جدوى ، ودارت بذهنها أفكار غامضة ؛ فتصورت أن الوالد هو الذى فعل ذلك وفر هو إلى مكان آخر ، وقالت فى نفسها :

- من المؤسف للغاية أن يظل الإنسان سجينًا فى سجن مظلم سحيق.

عادت مرة أخرى إلى الفتحة تنظر إلى الحارة ؛ فكانت البنات ما تزال تدور فى شكل حلقة كبيرة ، وكانت هناك بضع فتيات أخريات واقفات وقد ارتدين ثيابًا سوداء ، كن يشاهدن البنات وهن يلعبن ، لقد عدن لتوهن من المدرسة وتذكرت الفتاة المدرسة حين كانت تريد أن تذهب إلى المدرسة - ونادرًا ما كانت تذكر تلك الأوقات - ولم يسمح لها الأب بالذهاب إلى المدرسة ، وكانت صغيرة تبكى وهى وتقول:

- أريد أن أذهب إلى المدرسة .

كانت الأم قد قالت :

- دعها تذهب إلى المدرسة

لكن الأب صرخ وقال :

- لن أدعها تذهب إلى المدرسة ما دمت حيًا .

وهكذا حُرمت من الذهاب إلى المدرسة .

كانت ترى فتيات الحارة كل يوم يذهبن إلي المدرسة جماعات جماعات ، وكان يبدو لها أن تلميذات المدرسة عبارة عن حمائم تحلق بحرية ، حمائم سوداء ، كانت تذهب لساحل البحر فتلتقط الحصوات ، لم يكن لديها تصور واضح عن طبيعة المدرسة ، كانت الفتيات قد روين لها أن حوالى ثلاثين تلميذة تتجمعن فى حجرة واحدة وتأتى المعلمة وتشرح الدرس ، وكن قد روين لها أن بعض المعلمات عابسات الوجه ؛ عندما تدخل الفصل إحداهن تلتزم التلميذات الصمت خوفًا منها ، وعندما تذهب المعلمة كانت التلميذات تسخر منها وتقلدها ، وكذلك توجد معلمات بشوشات حين تدخل الفصل إحداهن كن يسعدن بها ، وحين ينتهى الدرس كن يجتمعن حولها ويتجاذبن معها أطراف الحديث والجميع فى حالة من السرور والسعادة.

وبينما كانت الفتاة مستندة بظهرها إلى جدار السقف تخيلت أن المدرسة مثل برج حمام كبير أكبر بكثير من برج حمام ابن جارهم تجتمع فيه الفتيات وتلعب لاهيات ، وحين تأتى معلمة حادة الطبع كان الجميع يجلس فى صمت كل واحدة تأخذ ركنًا من الأركان.

وقد ذكرتها سيرة المعلمات سيئات الطبع وجسدت لديها صورة أخيها الأكبر ، وكان سيء الطبع نحيف القوام يميل لون بشرته إلى السمرة ، كان شعره الأسود الكثيف مشوشًا ومتناثرًا فوق كتفيه ، عندما كان يأتى إلى البيت كان كل شيء يرتعد ؛ يرتعد من الخوف ، الأم ، والأخ الأصغر ، حتى هى نفسها كانت ترتعد من الخوف ، كان الأخ الأكبر يلقى فى أحد الأركان الشيء الذى كان قد أتى به ، وكان

يجلس دون أن يتحدث مع أحد ويروح فى إغفـاءة ؛ فكان يبدو للفتاة أن كل شيء بالبيت نائم حزين ، الطائر الليموني كان ينام أيضًا وهو حزين ، وكانت الأم تنشغل بعمل معين ، وكان الأخ الأصغر يتسلل ببطء وهدوء خارجًا من الغرفة ، وكانت هى تخرج أيضًا ويبقى الأخ الأكبر فى الغرفة وحده ، وحين كانت تعود الفتاة إلى الحجرة كانت ترى الأخ الأكبر وقد استرخى وتمدد وغطى عينيه بمرفقه ، كانت ترى أن الطائر الليمونى هو الآخر قد أخفى رأسه تحت جناحه.

وفى بعض الليالى كان أصدقاء الأخ الأكبر يأتون ويتجهون إلى حجرة الأخ الأكبر ، وكانوا يتحدثون حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان يبدو على أصدقائه أنهم سيئو الطبع وقوامهم نحيف ، كانت الفتاة تسمع أحاديثهم ، كان حديثهم منصبًا بصفة دائمة على الرغبة فى مغادرة هذه المدينة إلى مكان آخر ، وكانوا يذكرون أسماء مدن عديدة لا تعرفها الفتاة كانوا يريدون الذهاب إليها ، قال أحدهم :

– نشترى أرضًا جيدة ونزرع ، الأراضى هناك رخيصة جدًا.

ويقول آخر :

– ونرعى الأبقار التى تدر لبنا.

ويقول ثالث :

– ونشترى حصانًا أيضًا ونمتطى صهوته.

ويقول رابع :

– ونشترى دراجة نركبها أيضًا.

ويعود أولهم للحديث فيقول :

- أريد أن أمتطى صهوة جواد.

كان الأخ الأكبر يقول :

- حين يأتى الربيع تزدهر حقول القمح وتهطل الأمطار فتغسل سنابل القمح وأوراقه ، وفى الصباح تفوح ريح زكية من المزارع وأرى أن نحصل على قطعة أرض بجانب النهر ؛ فنلهو بماء النهر ونغسل الجياد ونشترى مذياعًا يشدو ويغنى ، ونغرس أشجار الصفصاف عند ضفاف النهر ؛ فينمو الصفصاف بسرعة ؛ فنلهو ونلعب تحت الظلال الوارفة لشجر الصفصاف.

يقاطع أحدهم حديث الأخ الأكبر بلهفة ويقول :

- كذلك نربى كلبًا ونحتفظ به.

كان الأخ الأكبر يقول :

- سأحضر كلبى ، ما رأيكم ؟

كانوا يقولون جميعًا :

- نعم ، كلبك ممتاز حقًا.

كانت الفتاة تخاف فى البداية من هذه القرارات وكذلك الأم ، ولكنهما أدركا بعد ذلك أن هذه القرارات لا تخرج إلى حيز التنفيذ

مطلقًا ؛ فقد كان الأخ الأكبر وأصدقاؤه يخدعون أنفسهم ، وحين يأتى الصباح لم يكن الأخ الأكبر يستيقظ من النوم مبكرًا ، فكانت الأم تذهب وتوقظه من النوم :

- لم يعد هناك وقت ، انهض ، تأخرت عن عملك.

كان الأخ الأكبر يغضب ويثور ويسب أمه ؛ فتتساءل الأم :

- ما الذى قد فعلته ؟

فيصيح الأخ الأكبر غاضبًا :

- إنكم تقيدون يدى وقدمى ، ولولا وجودكم لكنت قد غادرت هذه المدينة منذ زمن بعيد.

كلما كانت تسمع الأم إلى هذه العبارات ، كانت تسأله :

- كنت ذهبت إلى أين ؟

وكان الأخ الأكبر يجيب أيضًا فى كل مرة :

- إلى مكان يكون فيه الإنسان حرًا ... يدرك ويقدر قيمة حياته ووجوده...

لقد استرعى انتباه الفتاة صوت الأم التى كانت تسب الابن الأصغر ، اقتربت الفتاة من التقفيصة الخشبية مرة أخرى ، ونظرت إلى الفناء الضيق والصغير ، ثم بدا لها مرة أخرى أن الفناء مثل سجن مظلم فاغر فاه.

رأت الفتاة أن الطائر الليمونى معلق بغصن شجرة فى قاع السجن المظلم ، وبدا لها أن الأم والأخ الأصغر سجينان أيضًا فى هذا المكان المظلم السحيق .

نظرت إلى الشمس الذهبية الساطعة ، وأسعدتها السماء الصافية الخالية من الغيوم ، وكانت البيوت القريبة والمحيطة والبعيدة المنخفضة والعالية متراصة ومتداخلة ، وقد انقبض قلبها من ذلك الطين الذى غطى الجدران .

ونظرت الفتاة إلى الدخان الأزرق الذى كان يتصاعد من المطبخ وأعجبها ذلك المنظر ، كان الدخان يتصاعد ويعلو ويعلو ثم كان يختفى .

سألت الفتاة نفسها فى هدوء :

– لماذا لا يستطيع الإنسان أن يطير ؟

ثم نظرت مرة أخرى إلى الفناء الضيق الصغير وقالت :

– والآن ، من هو صاحب هذا السجن ؟

ومر من فوق رأسها سرب حمام ، فكان صوت ضربات أرجله وأجنحته فى الفضاء يبعث على السرور ، أظلت الفتاة عينيها بيدها وتابعت النظر إلى الحمام ؛ فمثل هذا المنظر كان يتوق لها رؤيته .

انفرجت شفتاها وتبدت أسنانها البيضاء ، ضحكت ، ضحكت بصوت مرتفع ، وهزت رأسها ،أتاها صوت الأم من الفناء وهى تنادى عليها وتقول :

– هيا انزلى ، أخوك سوف يأتي.

ردت الفتاة :

– إنى قادمة.

وعادت تفكر في أخيها الأكبر ، وتخيلت أنه صاحب هذا السجن ، وهو الذى ألقى بأمه وبأخيه الأصغر وبها أيضًا داخل هذا السجن.

كان الأخ الأكبر يكره أن تصعد إلى السقف ، وكان قد رآها عدة مرات فوق السقف ، وفى كل مرة كان يلف شعرها الأسود الطويل حول أصابعه ويطرحها أرضًا ، يطرحها ويظل بقدر إمكانه يضربها بالقبضات والركلات ، كان يضربها بالحجر والعصا حتى إنه ذات مرة وضع وسادة فوق فمها كان يريد أن يقتلها فى تلك المرة ، نظرت الفتاة إلى عينى أخيها الأكبر فوجدتهما فى حمرة كأس الدماء ، ولو لم يكن الجيران وصلوا ؛ لكان قتلها .

حين كان الأخ الأكبر يكف عن الضرب ، كان يذهب ويقف تحت الشجرة الوحيدة بالفناء وكان يسب الأم ، ويسب الأخ الأصغر ، ويسبها هى أيضًا ، ويصرخ قائلاً :

– إنكم تشربون دمائى ، وتمتصون زبدة روحى .

كانت تحمر عيناه مثل أقداح الدماء ؛ فكان الأخ الأصغر يصرخ خوفًا وهلعًا من هذه العيون ، وكانت الأم تتعلق بالأخ الأكبر الذى كان يلف شعر أمه الرمادى حول أصابعه ويصيح :

- كل شيء فى يديك .. كل شيء...

لم تكن الأم تقول شيئًا ، لم تكن تقول شيئًا ، وكانت تحتضن الأخ الأصغر بشدة حتى ينجو من ضربات أخيه ، كانت هذه الحالة تستمر حتى يصاب الأخ الأكبر بالتعب والإرهاق ويهدأ ، حينذاك كان يتوجه إلى حجرته الصغيرة ويغلق بابها ، وكانت الفتاة تسمع أخاها وهو يبكى ، كان يبكى لساعات ، ويقول فى أنين :

- رباه، رباه ... أكاد أجن...

وعندما كان يخرج من حجرته كان يبدو هادئًا وما كان ينظر فى عين أحد إطلاقًا لمدة أسبوع آخر ، ثم يعود بعد ذلك إلى طبعه الحاد ، وكان يبدو عصبيًا دائمًا ، وكان يصرخ ، ويصيح بصفة مستمرة :

- إنى آمل هذه الحياة.

وكانت الأم تعود وتسأله دائمًا:

- لماذا ؟

وكان الأخ الأكبر يرد قائلاً :

- لأن قدمى ويدى مقيدتان ، لقد قيدتم أنتم يدى وقدمى ، إنكم تشربون دمائى ، إنكم تمتصون زبدة روحى.

وكانت عيناه تحمر بشدة مرة أخرى مثل أقداح الدماء ، وكان الأخ الأصغر يصاب بالرعب من هذه العيون ويصرخ ، فكان الأخ الأكبر يمسك ذراعه ويحمله صوب البئر ويصيح :

– سألقى بك فى قاع البئر ... فأنت عدو لى ، أنت أيضاً .

ومرة أخرى يمر من فوق رأس الفتاة سرب الحمام ؛ فتقطع حبل تفكير الفتاة أصوات ضربات أقدام وأجنحة الحمام فى الفضاء ، فتظلل الفتاة فوق عينها بيدها وتنظر إلى سرب الحمام فأسترعى إنتباهها حمامة بلون بشرة أخيها الرمادية فتقول لنفسها :

– لعلها تكون أيضاً الشقيق الأكبر.

حاولت أن تعثر من بين الحمام على الأم والأخت والأخ الأصغر ، ولكنها لم تستطع ؛ فخفضت رأسها وعادت تنظر إلى الفناء الضيق الصغير مرة أخرى وقالت :

– لو أن هذه الحمامة الرمادية هى الأخ الأكبر فإنها لن تستطيع أن تحبس الأم والأخت والأخ الأصغر داخل السجن ، فهم سيطيرون ويحلقون ويذهبون ، يذهبون إلى شاطئ البحر يلتقطون الحصوات ؛ لأن لهم أجنحة فى النهاية ...

وتعود تفكر فى البحر مرة أخرى فيبدو لها وكأنه جدول ماء به ماء قليل ، تظهر حصواته ورماله الملونة ، وكان ذلك الجانب من البحر مليئًا بالخضرة والورود ، ورود صغيرة بنفسجية ، وورود كبيرة حمراء ، كانت الطيور تنتقل طائرة ما بين الخضرة والورود ، إنها الطيور الليمونية ذوات المناقير المقوسة.

استمعت الفتاة إلى صوت صفير كان ابن الجيران فوق سقفهم يطيّر حمامهم ، ولم تنظر الفتاة تجاهه.

كان ابن الجيران نحيف القوام قمحي اللون ، شعره كثيف متناثر فوق كتفيه مثل الأخ الأكبر ، لكنه لم يكن حاد الطبع.

ثم استمعت مرة أخرى إلى صوت الصفير ، كان ابن الجيران يتابع حمامه ، ثم استمعت إلى اسمها ، سمعت أحداً ينادي باسمها ، فكرت ثم أدركت أن النداء قادم من أسفل كان صادراً عن والدتها التى كانت تنادى عليها.

ردت:

- ماذا تقولين ؟

قالت الأم :

- هيا انزلى ، أخوك سوف يأتى.

قالت الفتاة :

- إنى قادمة... إنى قادمة.

وفجأة ارتفع الصوت في الحارة وفرت أفكار الفتاة ، لمعت فكرة واحدة مثل البرق فى ذهنها :

- جاء الأخ الأكبر .

هبطت بسرعة على السلم ، ورأت عدداً من الناس وقد تجمعوا بالفناء ، كان يبدو عليهم جميعاً سوء الخلق وحدة الطبع مثل الأخ الأكبر ثيابهم قديمة وبالية ، كان الأخ الأكبر موجوداً وسطهم ، وقد حملوا أخاها الأكبر فوق أيديهم ، وكانت رأسه معصوبة وقد ظهرت من الضمادة البيضاء الموجودة حول رأسه بقعة دماء حمراء ، وكانت قدمه اليمنى معقودة أيضاً ، ويده اليسرى معلقة إلى عنقه ، كان يحمله أربعة أشخاص صرخت الأم فجأة ، وألقت عنها عباءتها ، وانخرط الأخ الأصغر فى البكاء ، قال أحد الحاضرين :

– لا شيء ، مجرد جروح طفيفة.

قالت الأم بخوف وهلع :

– كيف حدث ؟ كيف ؟

رد نفس الرجل :

– طلب منه صاحب العمل أن يذهب وينظف الزجاج فصعد ، ولكنه سقط وهذا قدره ، هذا قدره يا أماه...

نبشت الأم شعرها وانخرطت فى البكاء :

– آه ... يا ولداه ... قتلوا ابنى ...

تكلم الرجال جميعاً ، كل واحد يقول شيئاً ، كانوا يواسون الأم جميعاً .

قال أحدهم :

– حالته حسنة بصفة عامة ، لا تنزعجوا ، وهناك جبيرة معقودة عند موضع ساقه المكسورة ، وكذلك يده.

سألت الأم وهى تبكى :

– يده مكسورة أيضًا ؟

أطرق الرجال برءوسهم :

– نعم مكسورة.

حملوا الأخ الأكبر إلى الغرفة ، كان يتأوه وقد مال لونه الرمادى إلى الاصفرار مثل أجنحة الطائر الموجود فى القفص ، والذى كانت وليفته قد ماتت ، كانت شفتا الأخ الأكبر منغلقتين ، كان يريد ماء ، وبينما كان يشرب الماء ، قال ببطء شديد:

– أماه ... أماه .

انحنت الأم عليه :

– أنا هنا... أنا هنا أمامك .

فتح الأخ الأكبر عينيه فرأى أمه وقد هال شعرها وامتلأت عيناها بالدمع .

بعد ذلك قال الرجال الذين كانوا قد أحضروا الشقيق الأكبر وقد خفضوا رءوسهم :

– نحن ذاهبون ، فلدينا أعمال... وسنعود بعد العمل .

ذهبوا ورءوسهم منخفضة ، ذهبوا بثيابهم الرثة البالية ووجوههم الدالة على سوء الخلق وحدة الطباع ، وتبقى بعد ذلك فى البيت أربعة أشخاص هم : الأم ، والأخ الأكبر ، والأخت ، والأخ الأصغر.

كانت الأم تبكى وكذلك الأخ الأصغر ، وكان الأخ الأكبر صامتًا فوق فراشه ، كانت الأخت فى غفوة ، فتخيلت أن الحمامة الرمادية قد جرحت أصابها أحد فى جناحها ، اعتصر قلبها ، أرادت أن تبكى ، كان قلبها يحترق على تلك الحمامة الرمادية ، كانت ما تزال تسمع صفير ابن الجيران ، فتح الأخ الأكبر عينيه وقال بصوت خفيض .

- أماه... أماه...

انحنت الأم عليه مرة أخرى :

- ماذا تقول ؟ .. أنا هنا أمامك..

قال الأخ الأكبر :

- لا تبكين ... لا يوجد ما يجعلك تبكين ... فأنا لم أمت ...

كفت الأم عن البكاء وكذلك الأخ الأصغر حرك الأخ الأكبر شفتيه وقال :

- سقطت من مكان مرتفع جداً من الطابق الثانى ... كنت أنظف الزجاج حين سقطت ، تصورت أننى سأموت ، فكرت ماذا ستفعلون ؟ عندما سقطت انزعج صاحب العمل وقال لماذا لم أحتط هل ترون ؟ ... أين أختى ؟

اقتربت الفتاة ، وضعت رأسها بالقرب من وجه أخيها الأكبر ، رفع الأخ الأكبر يده السليمة وربت بها على جبين ووجه أخته البيضاء ، وانخرطت الفتاة فجأة في البكاء ، بكت بحرقة وراحت تقبل أصابع أخيها الأكبر ، دمعت عينا الأخ الأكبر وقال في هدوء :

- لقد نزعت شعرك ، كم أنا إنسان قاسي القلب ، لا تبكين ... كفى لا يبكي أحد منكم...

صمت ، لم تتحمل الأخت أن يقول الأخ الأكبر مثل هذه الكلمات ، اشتد بكاؤها واشتد حزنها على تلك الحمامة الرمادية ، أغمض الأخ الأكبر عينيه وزمزم قائلاً :

- ما أجمل أن يرحل الإنسان عن هذه المدينة ، لو كنت غادرت هذه المدينة لما صرت هكذا...

سألت الأم كالمعتاد :

- إلى أين كنت تذهب ؟

أجاب الأخ الأكبر:

- إلى مكان ينطلق فيه الإنسان ويشعر بحريته ووجوده...

صمت الأخ الأكبر ، وكفت الأخت أيضًا عن البكاء ، وتخيلت أن الحمامة الرمادية تريد أن تحلق في الفضاء ، تذهب حتى شاطئ البحر وتلتقط الحصوة ، لكنها لا تستطيع ؛ فازداد بداخلها الإحساس بالمعاناة ، وعاد الأخ الأكبر للحديث مرة أخرى فقال وكأنه في حالة هذيان :

– النهر .... وحقول القمح التى غسلتها الأمطار... ننظف الحصان... يغنى المذياع... نلهو..ونلعب بالمياه..ونعدو خلف الكلب...

فتح عينيه ونظر ناحية صوت أمه :

– حينذاك لا يذهب الإنسان مرة أخرى لينظف الزجاج ...

ضحك قليلاً وراح يسعل وامتقع لونه ، امتقع من شدة الألم وقال :

– كنت أعتقد أنكم قيدتم يدى وقدمى ، ولكنى لا أعتقد فى ذلك الآن وذلك لأننى أرى أن أيدينا وأرجلنا جميعًا مقيدة... أين أختى ؟

أدار وجهه فوجد أخته أمامه كلاهما يبتسم فى مواجهة الآخر ، الجميع كانوا صامتين ، فلم يعد الأخ الأكبر حاد الطبع أو سيئ الخلق كان يبدو مشفقًا رحيمًا تذكرت الفتاة الوجه المبتسم لابن الجيران أدركت أن أسنان أخيها بيضاء أيضًا مثل أسنان ابن الجيران ، وصارت سعيدة للغاية بأخيها .

قال الأخ الأكبر :

– والآن كيف سنتصرف ؟

قالت الأم :

– إن الله رءوف رحيم ...

لم يقــل الأخ الأكبر شيئًا وظلوا جميعًا صامتين برهة من الوقت ، ثم قال الأخ الأكبر :

- أنصتوا ··· أتسمعون ؟ ··· أتسمعون ··

كان صوت الفتيات، إنهن يقولن بصوت يسمع بالكاد:

- " ليتنى كنت حمامة "

- كنت حلقت فى الفضاء

- والتقطت حصوات البحر

- وشربت ماء زمزم

- قو قو قو ···

قال الأخ الأكبر مرة أخرى :

- كم كان جميلاً لو كان الإنسان يستطيع أن يطير مثل الحمامة ويسافر إلى الأماكن البعيدة حيث تغسل الأمطار القمح فى الربيع··· إلى حيث يوجد نهر·· وجياد··· ومذياع يشدو···ولا ينظف الإنسان هناك الزجاج ··

صمت وكأنه راح فى النوم ، نهضت الأخت ، سمعت أصواتا ، صوت ضربات أرجل وأجنحة الحمام فى الفضاء ، صوت الفتيات ، صوت صفير ابن الجيران ، ورأت بحرًا قل ماؤه وظهرت رماله وحصواته الملونة ، وكان ذلك الجانب من البحر مليئًا بالخضرة والورود ، وكانت

الطيور تنتقل بين المروج والورود وهى تطير وتغرد ، الطيور الليمونية بمناقيرها المقوسة والحمام عند شاطئ البحر يلتقط الرمال والحصوات ، والأخ الأكبر كان يلهو بماء النهر وأصدقاؤه يحتفلون فى طرب وسرور تحت أشجار الصفصاف والمذياع يشدو ويغنى ، وكان ابن الجيران هناك أيضًا ، نظر إلى الفتاة وابتسم وكشفت ابتسامته عن أسنانه البيضاء...

قطع الأخ الأكبر حبل تفكير وأحلام الفتاة:

- أين أختى ؟

عادت الفتاة إلى أخيها وقد ازداد لونه اصفرارًا وحرك شفتيه الجافتين وقال :

- أختاه ، أنظرى لقد ارتكبنا إثمًا وأقصد ذلك الطائر لماذا قيدتيه ؟ افتحى باب القفص دعى الطائر يرحل ، لماذا حبسناه ؟ ما ذنبه ؟ لماذا يقيد ؟ أطلقيه ، حرريه ...

هزت الفتاة رأسها وتوجهت صوب القفص ، وكان الطائر الليمونى قد أخفى رأسه تحت جناحه وغط فى النوم ، وبسبب تحريك القفص استيقظ من نومه مضطربًا مدت الفتاة يدها وأخذته ونظرت إلى عينيه لحظة ، وأحست بنبض قلبه الصغير بين أصابعها ثم أطلقته ، وخرج الطائر من الفناء الضيق الصغير.

تمتمت الفتاة بهدوء ، واختفى الطائر ، وشاهد الأخ الأكبر تحليق الطائر فى الفضاء ؛ فابتسم فى حسرة.

خرجت الفتاة من الحجرة وذهبت إلى السقف فلم تعد تخشى هذه المسألة مرة أخرى ، وراحت تبحث عن الطائر لكنها لم تجده فقد ذهب واختفى .

رأت ابن الجيران فقط الذى كان يبتسم لها ؛ فظهرت أسنانه البيضاء ، وتحرك داخل قلبها بشدة ذلك الشعور الغريب المجهول .

وسرت فى جسدها رعدة تلقائية ، وكان الدخان الأزرق يتصاعد من مطبخ البيت ، يتصاعد ويعلو ثم يختفى مثل الطائر الليمونى . ألقت الفتاة بنظرة إلى الفناء الضيق الصغير ، وأدركت أن أخاها الكبير لم يكن ذلك الشخص الذى ألقى بالأم والأخ الأصغر وبها أيضًا داخل السجن المظلم ، وقالت فى هدوء :

- إن الأخ الأكبر هو نفسه أسير وحبيس فى هذا السجن ؛ إذًا فمن ذا الذى ارتكب هذا الفعل؟

تصورت أن الذى قام بهذا الفعل هو المعلم النهم ؛ فهو الذى ألقى بهم جميعًا داخل هذا السجن حتى يذهب الأخ الأكبر إليه كل يوم وينظف الزجاج .

" ليتنى كنت حمامة

كنت حلقت فى الفضاء ..."

ومرة أخرى مر من فوق رأسها سرب حمام ، وابتهجت من صوت ضربات أقدامه وأجنحته فى الفضاء ، اعتدلت قليلاً ، وقالت فى هدوء :

– لماذا لا يستطيع الإنسان أن يطير فى الفضاء مثل الحمامة ؟

كانت البيوت والمنازل البعيدة والقريبة المنخفضة والمرتفعة تتراكم وتتداخل فيما بينها ، كانت الشمس مشعة دافئة ، هز قلبها اللون الطينى للجدران ؛ فأطرقت رأسها وتمتمت قائلة :

– " ليتنى كنت حمامة ... ليتنى كنت حمامة ... "

مدير المجلة

كان تفكيره وخياله فى طبع المجلة ضبابًا كثيفًا عالقًا بانحدار حياته وارتفاعها ، وكان بإمكانه أن يرى بصعوبة من خلال هذا الضباب الكثيف - ومن خلف هذا الضباب الكثيف - الأشياء والناس الآخرين ، كان هذا الضباب الغليظ يتزاحف بهدوء فى صمت وتؤدة فى كل ساحة جديدة كانت تتبدى فى حياته وكانت تملأها أيضًا ، كان هذا الضباب قد غطى كل مكان ، وكان هذا الضباب بالليل والنهار طفيليًا وفضوليًا .

كانت الصفحات المختلفة للمجلة تتراقص سائر الأيام أمام عينيه . الصفحة البوليسية ، صفحة السينما ، صفحة التعليق السياسى الأسبوعى ، صفحة الموضة ... ثم أيضًا غلاف العدد وظهره ، والإعلانات ، والألوان المختلفة ، والأكليشهات المتنوعة ، والعناوين الكبيرة والصغيرة ، والبنط الضيق الأسود والعادى ، والأبناط المتوسطة والعريضة و...

وبوسط هذا الضباب الكثيف كان نوع من القلق والاضطراب الخفى مع شوق محمّس يسرى بسرعة فى أركان حياته وأطرافها ، كان

فى كل مرة تخرج المجلة من المطبعة يتصفح أوراقها بحب وشغف ، وينظر فترة طويلة مشدوهًا إلى عناوينها ، ويشعر بالسعادة من الألوان المختلفة على غلافها ، كان يقرأ مرارًا كل سطر وكل عنوان فيها ، وكان هذا الاشتياق المحمّس يقفز ويثب فى قلبه.

عندما كان يأخذه النوم فى لياليه كان ذاك القلق والاضطراب الخفيان يجولان وسط الضباب الكثيف لتفكيره فى المجلة ، كان مدير المجلة يرى فى منامه أنهم قدموا بغلاف العدد لآخر مرة لكى يعتمده ، لكنه كان يرى بتعجب أن الصورة التى أرسلها لكى تطبع على الغلاف لم يطبعوها ؛ الصورة التى أرسلها كانت لامرأة حسناء ، لكنهم طبعوا إذ ذاك على الغلاف صورة حيوان غريب كأنه حصان بحرى ، وعندئذ يطوى مكورًا الغلاف بغضب ويلقيه جانبًا ، ويصرخ فى وجه مُعدّ الزنكوغراف :

– أين الصورة التى أرسلتها لكم؟

وبدأ العامل فى الضحك بصوت خفيض ثم يقول إذ ذاك :

– هذه هى نفس الصورة التى أمرت بها ، نفس..

ثم يعاود الصراخ :

– أنا لم أُرسل هذه الصورة .

ويفتح مُعدّ الزنكوغراف الورقة المكوّرة ويقربها إلى عينيه ويسأله :

– كيف لا تكون هذه هى الصورة نفسها ؟ قل هل ليست هى ؟!

ويتنفس أنفاس الراحة ؛ فهى نفس صورة المرأة الجميلة ، يهز رأسه :

- صحيح ، صحيح.

ويعود عامل الزنكوغراف إلى الضحك : مجنون ... مجنون

وفى النهاية حين يروح فى النوم يعود ذاك الاضطراب والقلق الخفيان إلى التجوال فى ذهنه ، كان يرى فى منامه أنهم يقدمون إليه العدد الجديد الذى خرج من الطبع لتوه ؛ فيرى متعجباً أن صورة العدد السابق أعيد طبعها على غلاف العدد الجديد.

- آه .

وتصفح فى عجلة المجلة ؛ فيرى أن موضوعات العدد السابق هى نفسها بهذا العدد ؛ فيسأل من أتى له بالمجلة :

- هذا هو العدد السابق.

فيجيب الرجل :

- قمنا بإعادة طباعته .

فيصرخ : لماذا فعلتم هذا ؟

وينادى على نائبه فيأتى نائبه ويقول بسعادة :

- أعدنا طباعة العدد السابق .

فيسأله : لماذا فعلتم هذا ؟

فيرد النائب : لأن الطلب عليه كان شديداً .

فيصرخ : إذن أين عدد هذا الأسبوع ؟

ويتجه صوب المطبعة ، وهناك تتصاعد جلبة الآلات ، والعمال منصرفون إلى أعمالهم ؛ فيرى بتعجب أن جميع العمال شخصيات جديدة ولا يعرف منهم أحداً فيتقدم إلى كل منهم صارخًا ويقول :

– أنا مدير المجلة... أنا مدير المجلة...

ولا يهتم به أحد منهم ، ويريد أن يشرع فى البكاء .

وفجأة يرى صبيًا يظهر من نهاية المطبعة وقد تلوث رأسه ووجهه بسواد الرصاص وشحم آلات المطبعة فيتعرف عليه ويتقدم الصبى نحو مدير المجلة ويريه المجلة التى بيده.

– العدد الجديد .

– فيريد أن يقبل الصبى من سعادته.

– آه... إذن فهذا هو العدد الجديد.

ويتصفح المجلة فى عجلة ، لكنه يرى أن موضوعات العدد السابق قد أعيـــد طبعها ؛ فيلقى بالمجلة فى ناحية ويصرخ :

– أين العدد الجديد؟

ثم يشعر أن العمال قد تحلقوا حوله ، وترتفع الهمهمات المبهمة ، وتعمل الآلات فى جلبة وأصوات مرتفعة ، ويسمع أصوات العمال تقول فى حيرة :

- هذا هو مدير المجلة... مدير المجلة... مدير المجلة .

ويستيقظ من نومه مرعوباً

ومع كل هذا حين يرى المجلة فى اليوم التالى كان يتصفح أوراقها بحب ويقرأ العناوين مراراً بشغف ، وينظر باندهاش وحيرة إلى ألوان غلافها فترة طويلة ، ويسرى فى عروقه ذاك الشوق المحمّس .

كان عصر أحد الأيام ، وكان سائراً إلى منزله حين تقابل مع أحد أصدقائه ، ولما كان طريقهما واحداً ترافقا فى السير ، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث فى هذا الموضوع وذاك.

كان بقرب منزله مكتبة لبيع الكتب لم يشتر قط منها شيئًا ، وحين كان يمران من أمام المكتبة قال صديقه : سأشترى لابنتى كتاباً صغيراً.

وصعد الاثنان إلى المكتبة ، وتبين أن البائع من معارف صاحبه ، كان البائع رجلاً بديناً وله بطن كبير ، وكان وسط رأسه أصلع ، كانت على شفتيه بقع ، وعيناه جاحظتين يرى فيهما عروق حمراء ، قدمه صديقه إلى البائع ، وفجأة اتسعت عينا البائع ، فتح يديه كممثلى المسرحيات القديمة وقال بلهفة : حسناً ، إذن أنت مدير المجلة ثم أسرع إلى طاولة وأتى ببضعة أعداد من المجلة.

- انظر... أنا أشترى مجلتكم... مجلتكم...

ثم أخذ بساعد مدير المجلة وقال :

- مجلتكم لا نظير لها ، الجميع يقولون هذا

فقفز بقلب المدير ذاك الشوق المحمّس ، وقال للبائع ممتنًا :

- شكرًا ... شكرًا .

وانشغل البائع في البحث في أحد الأركان ، وأتى وهو يحمل تحت إبطه أعدادًا كثيرة من المجلة وقال :

- انظر ... أنا لدى مجموعة خاصة بي ... أحتفظ بنسخة لي من كل عدد.

فعاد مدير المجلة إلى القول : شكرًا ... شكرًا .

وهمس البائع في أذنه كمن يلقى بسر : سوف تباع مجلتكم يومًا ما بسعر مرتفع ؛

فسعد مدير المجلة وقال:

- أشكرك... أشكرك .

ثم أخذ صديقه الكتاب الصغير وخرجا .

وفي الغد حين كان يمر من أمام المكتبة ناداه البائع ؛ فوقف وقدم البائع وهو يعدو ، رحب كل منهما بالآخر ، وأظهر البائع له الورق الذى كان بيده .

- انظر... ألفت قصة ، أريد منك أن تطبعها... لم أعطها لأى مجلة أخرى.. كنت منتظرًا.

كنت أود أن تطبعها مجلتكم فقط.

- حسنًا جدًا... سوف أقرأها فيما بعد.

كان يريد أن يقول شيئًا آخر حين قاطعه البائع:

- حين تطبع فيما بعد ستكون رائعة جدًا، حتما سوف تعجبك، إنها قصة واقعية، سوف تسعد القراء أيضًا.

كان مدير المجلة فى عجلة، وضع الورق المكتوب تحت إبطه وانصرف.

وحين وصل إلى مكتبه أخرج قصة البائع، كانت تزيد عن مائة صفحة، وكانت مكتوبة على وجه الورق وظهره، وكان عنوانها المكتوب هو (قصة عاشق فاشل).

كانت قصة تافهة وبلا بداية أو نهاية، كان يرى في كل جملة من جملها ثلاثة أو أربعة أخطاء كتابية، وكان موضوعها فى غاية الابتذال والتفاهة.

لم يستطع مدير المجلة أن يقرأها حتى نهايتها، أراد أن يلقيها فى ناحية لكنه تمهل وسأل نفسه:

- لكنى ماذا سأقول لهذا الرجل؟

ثم خطرت إليه فكرة:

- كتبها على وجه الورق وظهره.. أقول له إن المفروض أن تكتب على وجه الورق فقط وحين كان يتجه إلى منزله عصرًا كان يحمل معه

القصة ... وحين اقترب إلى المكتبة رأى رجلاً فى انتظاره . أسرع فى لهفة إلى مدير المجلة وسأله:

– هل قرأت القصة ؟

أجاب المدير : أجل ، قرأتها ولكن ...

فسأله الرجل بشىء من اليأس .

– كيف ، ألم تعجبك ؟

احترق قلب مدير المجلة على حال البائع :

– لا ، انظر ... المفروض أن تكتب القصة على وجه الصفحة ، وكتبتها أنت على وجه الصفحة وظهرها ؛ والقصص لا يمكن طبعها بهذا الشكل.

أخذ البائع الأوراق وقال :

– حسنًا جدًا ... حسنًا جدًا.

توجه مدير المجلة إلى منزله ، كان سعيدًا لأنه لم يُغضب البائع ، كان يعتقد أنه لن يقوى على إعادة كتابة ما يزيد عن مائة صفحة ... لكن.

وفى الصباح حين كان يزمع الذهاب إلى عمله رأى الرجل واقفًا ينتظره أمام المكتبة ، وحين رأى مدير المجلة أقبل يعدو نحوه فى لهفة كان يمسك رزمة من الورق وقعت عين مدير المجلة على عنوانها (قصة عاشق فاشل) أخذ قلبه يخفق بشدة ، شعر بالغضب.

– مكثت حتى الصباح وأعدت كتابتها : أنت تعرف أن الإنسان حين يقرأ قصة بديعة مرارًا لا يمل منها قط ، لم أمل منها قط ، قضيت الليلة بطولها مستيقظًا ، أعلم أن هذه خدمة... خدمة من أجل الناس.

كان قد صار مدير المجلة أصم ، لم يستطع أن يتفوه بكلمة ؛ أخذ القصة وحسب ، وتوجه إلى مكتبه.

انشغل فى مكتبه ثانية بقراءتها كانت بنفس تفاهتها وبنفس أخطائها ، وكان خطها يقرأ بصعوبة ، كذلك أحس بضيق غريب.

– آه ، يا إلهى !

أغمض عينيه رأى وسط الأشكال والوجوه المختلفة وجه بائع المكتبة بعينين جاحظتين وشفتين مبقعتين يقول :

– هذه القصة خدمة... خدمة من أجل الناس.

فصرخ مدير المجلة :

– يا إلهى .

أحسّ بالألم فى صدره . تهيأ له أن بائع المكتبة يريد أن يشتمه ، قال فى نفسه :

– ربما أعدائى دفعوه إلى هذا الفعل !

ثم استاء من صديقه هذا الذى ساقه إلى المكتبة ، وشتمه فى سره ، أراد أن يشغل نفسه بأمر ، لكن عنوان القصة كان فى كل لحظة يستلفت نظره : (قصة عاشق فاشل).

كان يريد أن يطوى الأوراق ويقلبها فى سلة المهملات ، لكن وجه البائع شديد التلهف ظهر أمام عينيه :

– لدى مجموعة خاصة بى ، أحتفظ بنسخة لى من كل عدد.

طلب المسئول عن القصص وقال له:

– اقرأ هذه القصة ... انظر كيف هى .

غادرت الأوراق مكتبه وأحس لحظة إحساس الراحة ، لكن راحته لم تدم طويلاً ؛ لأن المسئول عن القصص عاد بعد ساعة ، رمى بالأوراق فوق مكتبه وقال :

– إنها من ضمن المبتذلات التي تعرفها.

تغلب هذا الألم العظيم مرة أخرى على المدير فسأل المسئول عن القصص :

– ألا يمكن إصلاح هذه القصة ؟

فرد المسئول عن القصص :

– ماذا تقول ؟

– قصدى أنه لو حدث فيها نقصان أو زيادة ، العمل الأساسى فيها ... قطع المسئول عن القصص كلامه:

– إنك تتلاعب بسمعة المجلة .

– صحيح... صحيح.

وكانت أوراق القصة وهى فوق مكتبه تؤلمه بشدة ، وكان عنوانها يغمز إليه بجرأة (قصة عاشق فاشل) .

أمضى اليوم بأى شكل ، تعمد أن يتأخر فى العودة عصرًا إلى منزله حتى لا يقابل البائع ، وحين اقترب إلى المكتبة وجدها مقفولة ، أحس بالراحة ، لكن قلبه أخذ يدق فجأة بشدة ، رأى البائع يتجه إليه فى ظلمة المساء السوداء ، سأله البائع بلهفة :

– ماذا فعلت بقصتى ؟

لم يجر مدير المجلة للحظة جوابًا ، أراد ثانية أن يصرخ.

ألقيت هذه التفاهات فى سلة المهملات.

لكنه لم يفعل ذلك ، قال بشىء من الاعتذار :

– أعطيت قصتك إلى المسئول عن القصص لكى يقرأها .

فسأله البائع : حسنًا وماذا بعد ؟

– سوف يكتب رأيه.

فقال البائع بلهفة أشد :

– وتطبعها .

– وإذا ......

– وقطع البائع كلامه :

– حسنًا جدًا ، عفوًا ، أزعجتك ، عفوا ... وتراجع وغاب عن الأنظار.

وجـعل هـذا اللقــاء ذاك العبء من الألـم يزداد ثقـلاً فى قلـب مـدير المجلة.

ارتفعت درجة حرارته فى الليل تقريبًا ، ورأى الرجل فى منامه كان عائدًا من مكتبه فوجد البائع ينتظره بالقرب من المكتبة ، أسـرع الرجل نحوه بلهفة وسأله:

– ماذا حدث هل طبعت قصتى ؟

اشتـعل غضب عجيب فى قلبه أمسك بخناق البائع وصفع وجهه صفعات قوية وصرخ فيه :

– قـد أزلت بتـفـاهاتك هذه الراحـة عنى... الراحـة عنى ... فتضرع إليه الرجل :

– انتظر دقيقة... دقيقة.

ثم اتجه إلى مكتبته وعاد بعد لحظة ، وكانت بيده سكينة كبيرة ، واقـتـرب ببطء إلى مـدير المجلة ووجـهـه يرتسم عليـه الـغـمـوض ووضع السكينة على مـقـربة من أنفـه كـمـا يفـعل الطفل وهو يلعب مع رفـاقـه وحركها :

– سأقتلك... اطبع قصتى .

وتقدم ببطء ، وأخذ شكله يزيد ويزيد فى عين مدير المجلة ، وفـجـأة تغير بائع الكتب إلى صورة هيولية عظمى ، ومـلأت هذه الهيولية العظيمة صدرهـا بالهواء ثم أخذت تنفخه صوب السـماء ، وتناثر من فمـها أوراق

لا حصر لها فى الهواء أخذت تتساقط ببطء إلى الأرض ، كان المدير ينظر إلى الأوراق ، كان مكتوبًا على كل واحدة منها (قصة عاشق فاشل) ، كان المدير ترتعد فرائصه من الخوف ، غطت الأوراق كل مكان ، ثم أخذت هذه الهيولية المفزعة تنثر من فمها أوراقًا أكثر ، وأحس المدير فجأة أنه دفن أسفل هذه الأوراق ، وبدأ إذ ذاك فى الضرب بشدة بيديه وقدميه وهو يصرخ:

سوف أطبعها ... سوف أطبعها .

وفى صباح اليوم التالى اقترب إلى المكتبة بخوف وارتعاد ، ورأى البائع واقفًا أمام مكتبته . لم يتقدم إليه البائع هذه المرة ، وألقى عليه التحية من مكانه وقال :

- هل ستطبع قصتى ؟ هه ؟ وابتسم ، تراءت ابتسامته إلى ناظرى المدير غامضة وماكرة ، لكنه لم يقل شيئًا ومضى .

وحين جلس وراء مكتبه وقعت عيناه على نفس ذاك العنوان (قصة عاشق فاشل) .

كأن رجلاً تعمد أن يرتب الأوراق بحيث يراها المدير بمجرد جلوسه على مكتبه ، تراءى له أنها من ضمن الأوراق التى كانت تتناثر من فم تلك الهيولى ، أخذ يرتعد من الخوف . دق الجرس بلا تفكير ، دخل الفراش ، أشار المدير إلى هذه الأوراق وقال :

- أحرق هذه الأوراق .

وبعد أن نظر إلى شجرة بالخارج وأشار إليها بيده قال :

– تحت تلك الشجرة ... أريد أن أرى ذلك بنفسى .

ورأى بعد لحظة من وراء المرآة الفراش وهو يحرق الأوراق وقف بجوار الشجرة حتى تحولت آخر ورقة إلى رماد ثم عاد الفراش ونثر الهواء الرمادى الأسود للأوراق المحروقة .

وجلس مدير المجلة خلف مكتبه وفجأة غمر الفراغ قلبه ، أحس بالعرق البارد يرطب جبهته . هز رأسه . ابتسم وقال فى نفسه : لماذا أقلقنى بمثل هذه الدرجة أمر تافه هكذا ؟

ثم تعالت ضحكاته بعد ذلك :

– أى حماقة هذه !

انتصب فى جلسته ، وبدأ عمله ، قال فى نفسه : أقول له اليوم إن قصته لا تجدر بالطبع .

ظل على غير عادته فى مكتبه حتى الليل الحالك . حين كان عائداً إلى منزله كانت الدنيا مظلمة تماماً ، كانت المكتبة مقفلة ولم يكن البائع موجوداً .

وفى اليوم التالى أيضًا حين كان يعبر من أمام المكتبة وجدها مقفلة ولم ير البائع كان مشغولاً طوال يومه ولم يفكر بتاتًا فى البائع ، وحين كان عائداً إلى منزله بالمساء لم يكن أيضًا بائع الكتب موجودا ووجد المكتبة أيضًا مقفلة ، ولم يتبق أمامه غير بضع خطوات من منزله حتى

سمع فجأة رجلاً يناديه باسمه ، ارتعش سائر بدنه رأى بائع الكتب جالسًا على رصيف الشارع كالمتسولين وينظر إليه وسط لون المساء الحالك الظلمة نظرات متوسلة.

قال بائع الكتب : لقد تأخرت كثيراً .

ونهض وتقدم نحو مدير المجلة ، قال المدير :

– كان لدى أعمال كثيرة ، وسأله الرجل :

– ماذا حدث لقصتى ؟

– كان قلب المدير يخفق بشدة عجز أن يقول شيئًا للحظة ، أعاد بائع الكتب سؤاله :

– ماذا حدث لقصتى ؟

قال مدير المجلة أعطيتها للمسئول عن القصص ولكن ...

وتساقط لعابه.

– ولكن للأسف ضاعت من المسئول عن القصص .

قال البائع : هَىْ ، هَىْ ، وبكى فجأة ، شعر المدير بإشفاق عظيم عليه قال يعزيه : أنا آسف جداً ، ولكن ماذا علىّ أن أفعله ؟ تضيع قصص كثيرة عندنا وهذا المسئول عن القصص كثيراً ...

– قال الرجل أثناء بكائه : حرم الناس من هذه القصة .

قال المدير : يمكنك أن تكتب غيرها وتؤلف قصصًا أفضل .

قال الرجل : أعطيت النسخة الأولى لصديق لى ليقرأها فأضاعها هو الآخر ماذا أفعل ؟ ماذا . . .

وبعد لحظة هدأ وقال :

– حسنًا سوف أعيد كتابتها إنها خدمة ؛ خدمة للناس .

وابتعد الرجل مطأطىء الرأس.

ذهب المدير إلى منزله ، تناول عشاءه بسرعة ، وكان يريد أن يعد المقالة الرئيسية ، كان باله قد استراح مرة أخرى من جهة بائع الكتب ، كان قلمه يجرى بسرعة فوق الورقة ، ظهرت المقالة الرئيسية بديعة طيبة من تأليفه ولما أعاد قراءتها ؛ سعد كثيرًا .

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ، كان المدير يريد أن يستعد للقاء صحفى فى الغد.

وفجأة دق جرس بوابة المنزل فتح بنفسه الباب ، وفى نور المصباح بأعلى البوابة رأى عينى البائع الجاحظتين وشفتيه المبقعتين ، كان وسط رأسه الأصلع يبرق فى النور ، اظهر الرجل وعيناه الجاحظتان أكثر اتساعًا ما يحمله من أوراق للمدير وقال بفرح :

– وجدتها . . . وجدت النسخة الأخرى ؛ لا يجب علىّ غير أن أبيضها .

اشتعل الغضب فى قلب المدير ، صرخ تقريبًا :

– وماذا تريد منى ؟

قال البائع : لا شيء... لا شيء .

وأدار وجهه واختفى فى الظلام ، وبعد لحظة وصل صوته من وسط الظلام إلى أذن المدير وهو يقول:

- إنها خدمة... خدمة للناس .

عجز المدير ثانية عن القيام بأى عمل.. كان وجه البائع يتجسم فى ناظرى المدير لحظة بعد لحظة وهو يقول فرحًا وعيناه جاحظتان : وجدتها... وجدت النسخة الأخرى.

وتراء ى للمدير ثانية الأوراق تتناثر من فم الهيولى . تراءى له هذا الهيولى يجلس بجانبه ينظر إليه بعينين تقدحان الشرر.

تأوه ببطء.

- ماذا أصابنى ، ثم همهم:

هذا الرجل الأحمق يجلس الآن ويبيض قصته وبدون أن يمل ... لأن هذه قصته قصة بديعة ... هذا الحمق ... وهى أيضًا خدمة للناس.

ثم قرر أن يواجه البائع حين يعطيه بالغد قصته بقوله إنها لا تجدر بالطباعة ، ثم همهم :

- ليس من حق هذا الرجل أن يسبب إيذائى ، أنا لا يمكننى أن أطبع كل غث تافه بمجلتى.

وفى اليوم التالى حين كان يمضى من أمام المكتبة تقدم إليه بائع الكتب وهو يعدو ويسرع ؛ كان المدير قد هيأ نفسه لأن يقول له : قصتك لا تجدر بالطبع ... فلا تزعجنى مرة أخرى.

لكن الرجل لم يكن معه القصة ؛ رحب بمدير المجلة ، واعتذر إليه عما بدر منه من إزعاج له البارحة ثم أخرج من جيبه قلماً وأراه للمدير.

- وصلت هذه الأقلام حديثًا . هذا القلم يناسبك . قلم جيد.

ولما أفاق المدير إلى نفسه رأى القلم بيده وقد انصرف الرجل.

وحين عاد عصراً لم يجد الرجل ، ولم يقابله فى اليوم التالى ، لم ير البائع لمدة أسبوع ، وفى اليوم العاشر حين كان يقصد فى الصباح مكتبه وجد بائع الكتب فى انتظاره ، وكان يحمل أوراقًا ؛ رحب به بتواضع عجيب ثم قدم إلى المدير ما معه من أوراق وقال:

- أعدت كتابة قصتى ، وأود ..

قطع المدير كلامه بغضب :

- أنا مشغول جداً أنت ترانى (مشغولاً) وليس أمامى وقت لكى أقرأ ما معك وانطلق . أسرع الرجل يتعقبه ، حمل القصة أمام عينى المدير:

- لا تقرأها أنت . أرجوك... أعطها للمسئول عن القصص.

وقعت عين المدير على عنوانها المكتوب (قصة عاشق فاشل) سرى الغضب فى عروقه تذكر موضوعها التافه فوقف وقال بغضب:

– كيف أفهمك أن٠٠٠

تضرع البائع :

– لا تقرأها أنت ، أعطها للمسئول .

صرخ المدير تقريبًا .

– أنت صفيق جدًا .

انتبه المدير إلى أن بضعة من المارة ينظرون إليهما ؛ فأخذ القصة على عجل ونظر إلى الرجل بنفور :

– أحمق .

فقال الرجل باستسلام : شكرًا ، شكرًا جزيلاً ٠

وحين وصل مكتبه أعطى القصة للفراش لكى يحرقها ووقف قريبًا من الشجرة لكى يشاهد إحراقها وهو يقول بلا انتباه منه أيضًا بهمس : قصة عاشق فاشل ٠٠٠ قصة عاشق فاشل٠٠٠

لكن قوة خفية دفعته إلى أن يغير طريق عودته بالليل إلى منزله حتى لا يرى بائع الكتب على رأس طريقه٠

وفى صباح اليوم التالى ذهب إلى مكتبه من نفس هذا الطريق ، وأخذ يذهب ويعود لأيام عديدة أخرى من نفس الطريق٠

بعد ذلك فى أحد الأيام حين كان على مقربة من منزله بالمساء رأى رجلاً يقف بجانب البوابة اقترب الرجل من مدير المجلة وقد انحنت رأسه

ناحية كتفه اليمنى مثل المتسولين ؛ ورحب به كأنه يستجدى منه مالاً فسأله المدير بدون تريث:

- ماذا تريد ؟

قال الرجل : ما هو رأى المسئول عن القصص ؟

فأجاب المدير بعصبية :

- كتب المسئول عن القصص بأن قصتك فى غاية التفاهة.

قال بائع الكتب متوسلاً :

- أخطأ المسئول .

فازداد المدير غضباً :

- وهو نفس رأيى أن قصتك تافهة.

فرك الرجل يديه وتلفت هنا وهناك .

- وفى النهاية كيف...

فقاطع المدير كلامه :

- قلت لك إن قصتك من توافه المؤلفات .

فقال بائع الكتب:

- أنت تقتل المواهب .

قال المدير :

- أنت أصلاً ليس لديك موهبة .

كان الرجل على وشك البكاء .

- بل لدى .. والله لدى ، لكن ما عليك إلا أن تربيها . رَبّ فىّ هذه الموهبة.

فكر المدير فى نفسه فى أنه ليس مسئولاً عن رجل عديم الموهبة يريد أن يكون مؤلفًا ، ولا يستطيع ذلك . فكر فى أن هذا الرجل ليس من حقه أن يضيع وقته ؛ فانتابه الغضب الشديد ثانية :

- لو زدت من إصرارك سوف أشكوك إلى البوليس .

وفجأة سأله الرجل بصوت حاد:

- ماذا قلت ؟

- قلت سأشكوك إلى البوليس .

وقال البائع :

- آه ، ستشكونى إلى البوليس... إلى البوليس...

ونظر الرجل أمامه وخلفه كأنه يستدعى رجلاً مجهولاً للشهادة وقال :

- سيشكونى إلى البوليس.. إلى البوليس .

ثم سأله بصوت أكثر جدية:

– ماذا فعلت بقصتى ؟ فأجاب المدير : أعطيتها لهم ليحرقوها .

– من الذى أحرقها ؟

– فراش مكتبى .

فصاح الرجل : اللعنة على فراش مكتبك ، وتمهل برهة ثم صرخ بصوت أعلى :

– أحرقتم موهبة ، ثم قال : حسنًا جدًا ... حسنًا جدًا

وابتعد وعاد للصراخ وسط الظلام : يا من تحرقون الموهبة ...! يا من تقتلون الموهبة .

ذهب المدير إلى منزله محنقًا منقبضًا كان يفكر أنه أهين إهانة شديدة ، كان الألم يعتصر قلبه.

فى هذه الحال دق جرس بوابة المنزل . سمع صوت الرجل آتيًا من خلف البوابة .

– تعال يا قاتل الموهبة تعال...

خرج .. رأى بائع الكتب قد ألقى بأعداد مجلته فوق رصيف الشارع ، ولما رأى المدير قال :

– أحرقت قصتى ، ها ؟ انظر الآن.

أشعل النار فى المجلات وارتفعت بسرعة شعلة النار ؛ فأنارت الفضاء المظلم وتجمع الناس .

أخذ البائع يضحك ضحكات هستيرية ويقول :

- مجلتك هذه لا تساوى قرشًا أسود ، قرشًا أسود .

ثم أظهر للنظارة بضعة أعداد من المجلة وقال :

- أترون إنها تمتلئ بالتفاهات.

وألقى بها فى النار وهو يضحك عاليًا .

كان الناس ينظرون إليه مدهوشين ويستفسر بعضهم من الآخر عما يجرى ، كانت النار تشتعل وتنير وجوه النظارة.

كان مدير المجلة واقفًا بجوار البوابة ، كان يحيل نظره مرة فى الوجه المخيف لبائع الكتب ومرة فى وجوه الناس الآخرين.

ضاق من جميع الوجوه ، واعتصر ألم عميق قلبه . كان يود البكاء ، وكان يسمع همسات الناس ، ثم ضاعت هذه الهمهمات فى أصوات آلات الطباعة وهمهمات العمال ، رأى أن جميع الناس يحدقون فيه ويقولون بهمس:

- مدير المجلة... مدير المجلة .

وأقفل بسرعة البوابة ودخل إلى غرفته ، رفع القلم وكتب طلبًا إلى المسئولين لتغيير عمله ، وذكر أنه لأسباب صحية لا يستطيع الاستمرار فى عمله.

وإذ ذاك أعاد قراءة الطلب ثم وقع عليه ، وبدون أن يتناول عشاءه ذهب إلى سريره ونام هادئًا حتى الصباح.

الخادمة

طيلة الأيام كانت المرأة تقول لزوجها وهى متثائبة وبلا مزاج :

- إن خاور هذه لم تعد قادرة على العمل ، وها هو الشتاء قد حل ، وإنى أرى أن ندعها لسيد آخر.

يطرق زوجها رأسه بلا اكتراث .

- نعم ، قولى ندعها لله .

وكان طفلاهما الصغيران ينظران بدهشة إلى فم والديهما ، ويقولان فى نفسيهما :

- حين يحل الشتاء ، تقول الأم بشأن خاور إنها ستدعها لله.

وكانا يتمنيان بشغف أن ينقضى فصل الشتاء سريعًا ليريا ما سيحدث.

كان الوقت خريفًا ، وكلما كان يمر يوم كانت تزداد برودة الجو ، وكانت الزوجة تقول لزوجها:

- إن خاور هذه لم تعد قادرة على العمل ، وها هو الشتاء قد حل ، وأرى أن ندعها لسيد آخر

فكان زوجها يطرق برأسه بلا اكتراث ، كما كان يفعل فى الأيام السابقة ويقول :

– نعم قولى ندعها لله.

وكان طفلاهما يتمنيان بشغف أن ينقضى الشتاء سريعًا حتى يريا ما سيحدث.

وذات يوم أثناء تناول الشاى قالت الزوجة لزوجها وهى أكثر جدية واهتمامًا من الأيام السابقة .

– هل تعلم ماذا رأيت ليلة أمس ؟

ودون أن ينبس الرجل بحرف نظر بعينيه الحائرتين إلى وجه زوجته ، وكان يبدو فى هاتين العينين تساؤل غامض.

قالت المرأة :

– ليلة البارحة لا أعلم لماذا استيقظت من النوم فجأة ، وألقيت بنظرة من خلف زجاج النافذة إلى الفناء ، أتعلم ماذا رأيت ؟ لقد لمحت خاور فى ضوء القمر قابعة فى أحد الأركان وهى تنظر إلى الشجرة (شجرة السنار) وقد ارتعدت ، وأحسست بالخوف الشديد فى البداية.

ألقى الرجل بقدح الشاى فى فمه ثم قال وأين ذهبت ؟

قالت المرأة :

– لا أعلم ، حيث رحت فى النوم.

وبعد ذلك حين كان الرجل يتوجه إلى عمله رأى خاور في الفناء ، وقد انحنت وهى تكنس الأوراق الصفراء التى تساقطت من الشجرة على الأرض ، وكانت تنظر بوجهها الشاحب الهذيل وعينيها المتعبتين ، لم يقل الرجل شيئًا واجتاز البوابة . هبت الريح الباردة فأسقطت بضع أوراق أخرى من على الشجرة وسقطت الأوراق على الأرض ، محدثة صوت خشخشة ، استدارت خاور بوجهها فرأت الأوراق التى كانت تسقطها الريح على الأرض ثم نظرت بعد ذلك فى اتجاه الشجرة فوجدتها واقفة فى اعتدال وفي حالة جيدة وكأنه قد طرأ بفكرها شىء ما ؛ إن هذه الشجرة تذكرها بشىء ، ولكنها مهما كانت تحاول لم تكن تستطيع أن تحدد أو تدرك بوضوح ذلك الشىء الذى تثيره شجرة السنار في ذاكرتها ، منذ عامين جاءت خاور إلى هذا الفناء مع زوجها عباس ، وعملت خادمة بهذا المنزل وأقاما فى غرفة بأحد أركان الفناء ، كانت الغرفة صغيرة ، ولكنها كانت تكفيها وزوجها ، كان عباس يخرج من البيت فى الصباح ويعود فى المساء ، أما هى فكانت مشغولة طيلة اليوم بأعمال متنوعة ؛ كانت تكنس ، وتغسل ، وتشترى الأشياء من السوق .

أيام الجمعة ، كان عباس يمكث فى البيت ولا يخرج إلى أى مكان ، حينذاك كانت زوجة صاحب المنزل تأتى بقوامها الممتلئ وتكلفه بأن يعد تجهيز المعاجن ، ويطلى حوائط الفناء ، ويطهر البئر ، ويقوم بترميم حواف الجدران وأعلاها ، وكان عباس يوافق بقناعة وسرور ، فكان يعتلى الجدار أو يصعد فوق السقف أو ينزل داخل البئر .

وفى كافة هذه الأحوال كانت خاور تنظر إليه بإعجاب ، وكانت حين تراه عند حافة السقف تنادى عليه بلطف.

– انتبه حتى لا تسقط .

وحين كانت تراه جالسًا على حافة الجدار الرفيع كان قلبها ينتفض بشدة ، وكذلك عندما كان ينزل عباس داخل البئر كانت تذهب وتقف عند فتحة البئر وتسأله:

– أولست تشعر بالبرودة ، أو لم تصبك الرطوبة ؟

كان عباس طويل القامة نحيف القوام ، يصل شعره الأسود حتى كتفيه ، ومنذ أن تزوجا كان عباس يسعل خلال الليل ، وتزداد نحافته يومًا تلو الآخر ، وبعد ذلك اشتدت عليه آلام السعال ، وكان يصاب بالحمى خلال الليل ويغرق فى عرقه ، وعند الذهاب إلى الفراش كان يقول لخاور :

– إن ظهرى يؤلمنى .

فكانت خاور تدلك ظهره بكف يدها وهو يقول :

– اضغطى جيدًا .

وبعد ذلك كان يبدأ فى السعال ، ويدفن وجهه فى وسادته ؛ فكان جسده يهتز بالكامل مع كل كحة ، وفى هذه الحالة كان يقول لخاور :

– لا تخبرى صاحب البيت عن سعالى ولا تقولى له شيئًا .

وبعد ذلك وحين وضعت خاور مولودها أصبح سعال عباس أكثر حدة ودوامًا ، كان السعال يأتى من أعماق صدره ؛ فكان فمه يمتلىء بكتل من الدماء ، فكانت خاور تحمل هذه الكتل الدموية فى الخفاء يوميًا ، وتلقى بها فى مكان بعيد ، ومع كل هذا كان عباس يخرج يوميًا فى الصباح ويعود عند المساء ؛ فتكون نفس الحالة من الحمى والسعال وكتل الدماء.

ذات يوم عاد عباس فى المساء ، وكان متعبًا للغاية عاجزًا فقال لخاور :

- سأنام .

وظل طوال الليل تعتصره الحمى ويتصبب عرقًا ويقاسى آلام ظهره ، كما كان السعال يزلزل بدنه ويمتلئ فمه بكتل الدماء ، ولم ينم لحظة حتى الصباح ، ولم يكن ذهنه فى حالة طبيعية ، وكان يردد اسم طفلها فى كل لحظة ، وكانت خاور جالسة إلى جواره تدلك جسده.

وعند بزوغ الشمس جاءت السيدة البدينة صاحبة المنزل وهى متكاسلة متراخية ، ونادت على خاور، ذهبت خاور لتعد الشاى ، وبعد ذلك نظفت الأحذية أيضًا ثم نظفت كذلك الحجرات ثم عادت فى النهاية إلى غرفتها حتى تطمئن على عباس .

كان الرجل الشاب مستلقيًا على الفراش بلا حراك ولا يبدو على وجهه شىء ما ، وكان سطح الوسادة قد غطته بقع الدماء ، وكانت كتل الدماء موجودة أيضًا عند جانبى فمه ، فى البداية تجمدت من الخوف ، لكنها اقتربت منه بعد ذلك وقالت :

- كيف حالك ؟

لم تسمع إجابة ، كان عباس قد مات ، وهى لم تكن تعلم ماذا تفعل ؟

خرجت من الغرفة فى هدوء دون وعى وبتلقائية وتوجهت إلى زوجة صاحب البيت وقالت :

- لقد مات عباس .

- سألت المرأة بامتعاض.

- لماذا ؟

أجابت خاور بهدوء :

- لا أعلم .

قالت المرأة :

- أخبرى أقاربك .

بعد ذلك حضر أقارب عباس وحملوا جثمانه ، ووجدت خاور نفسها وحيدة مع ابنها الرضيع ، ولم تكن تتصور - على الإطلاق ، ولم تصدق أبدًا - أن عباس قد فارقها إلى الأبد ؛ فكانت إذا حل المساء تتصور أن عباس سوف يأتى ، ولكن هذا لم يكن يحدث ، حين كان وليدها يخلد إلى النوم تجلس وحيدة حزينة فى أحد الأركان تبكى فى صمت ، وأحيانًا ما كانت تسمع صوت عباس فتخرج مهرولة فإذا بالظلام يعم كل الأرجاء ولا وجود لعباس .

كانت تراه فى المنام ، وتستيقظ فيبدو لها أن الوسادة مليئة بكتل الدماء فتمسح سطح الوسادة بيدها فلا تجد شيئًا فى يدها .

وذات يوم هبت من نومها حيث ترامى إلى سمعها صوت عباس ، وتخيلت أن عباس اعتلى السقف يعد المعاجن ، وظنت أنه ينادى عليها حتى تحضر له الماء ؛ فأسرعت مهرولة إلى الفناء ، وكان ضوء القمر فى ليلة الرابع عشر قد أضاء كل مكان ، ولم يكن هناك أحد فوق السطح ، وكذلك لم يكن هناك أحد فوق الجدار ، فتوجهت صوب البئر ونظرت بداخله فلم تجد شيئًا غير الظلام ؛ فأحست بالبرودة وانزوت فى أحد الأركان ، وراحت فى حالة من اللاوعى ما كانت لتفكر فى شىء معين ، ولكنها كانت تبدو شاردة الذهن ، وبينما كانت تسير فى الفناء استرعت شجرة السنار انتباهها ، فقفزت فكرة بقوة فى عقلها الباطن وبدا لها أن هذه الشجرة تذكرها بشىء ما ، وحاولت أن تصل إلى هذه الفكرة وهذا الشىء ، ولكنها لم تستطع .

بعد ذلك ضعف عقلها ، فلم تكن تفهم جيدًا كلام زوجة صاحب المنزل ، وكانت تحطم الأوانى والأطباق ؛ وإذا ما وضعت شيئًا فى مكان ما كانت لا تتذكره ، وكانت سيدة المنزل البدينة تسبها فى مثل هذه المواقف وتعنفها ، فكانت تسمع هذه الأشياء فى صمت وتتخيل أن عباس سيعود يومًا ما .

وذات ليلة حيث استمعت لصوت عباس توجهت للفناء ، وكان قد انقضى من الليل نصفه ، وكان الجو باردًا ، والريح تسقط أوراق الأشجار ، ولم تجد أحدًا فى الفناء ؛ فجلست فى أحد الأركان ، وراحت

فى نفس الحالة من اللاوعى ، بيد أن صوت خشخشة الأوراق كانت تسترعى انتباهها ، وكأنها أنفاس عباس فتنظر إليها ، ورأت فى ضوء مصباح الفناء أوراق شجرة السنار التى تسقطها الريح على الأرض فانتبهت لشجرة السنار.

وسقطت عدة أوراق أخرى من الشجرة على الأرض ؛ فبرزت فجأة وبقوة تلك الفكرة من أعماقها ، وأدركت أن شجرة السنار تذكرها بشىء معين ؛ إنها تذكرها بعباس ، فالشجرة كانت مثل عباس طويلة القد نحيفة القوام وهى تزداد نحافة مثله يومًا بعد يوم ، وتبين عن جسدها .

منذ ذلك اليوم توثقت علاقتها وصلتها بشجرة السنار وكثيرًا ما كانت تحمل طفلها بالقرب من شجرة السنار وتشير بيدها إلى شجرة السنار وتقول له :

- والدك...والدك...

فكان الطفل يبتسم.

وكانت كل يوم تتحسس بيدها قد شجرة السنار لعدة مرات ، كان قوام الشجرة فى خشونته يشبه عباس بعظامه ، وكانت تتصور أن قدّ الشجرة يتألم ؛ فكانت تدلكه بكف يدها وتضغط عليه ، وفى بعض الأوقات حين كانت تجمع أوراق الشجرة الصفراء فإنها لم تكن تذهب بها إلى المحرقة لتحرقها فكانت تجمعها خفية وتحملها إلى الخارج وتلقيها فى نفس المكان الذى كانت تلقى فيه كتل الدم التى كانت تخرج من فم عباس.

بعد ذلك انتابتها الوسوسة والشعور بالخوف ؛ حيث كانت الشجرة تزداد نحافة يومًا تلو الآخر وتتساقط أوراقها ، وكانت خاور تتصور أن

هذه الأوراق هى الكتل الدموية التى تخرج من أعماق وصدر الشجرة ، وكانت تعتقد أنه حين تتساقط كل أوراق الشجرة فستموت الشجرة ويموت عباس ؛ فكانت ترتعد خوفًا وهلعًا .

وكثيرًا ما كانت تخرج إلى الفناء ولعدة مرات فى الليل حتى تتأكد أن الشجرة ما زالت حية ، فكانت تقترب من الشجرة وتتحسسها بيدها ، كان ظهر عباس يتألم ، ويتصبب عرقًا ، وتنساب كتل الدماء من فمه ، وكانت أوراق الشجرة تتساقط ؛ فكانت تقبل جسم الشجرة ، رائحة العرق تفوح من ظهر عباس ، كانت الريح تهز الشجرة فكان عباس يهتز من الحمى.

ذات ليلة ، كانت السماء ممطرة والريح تهب فلم تهدأ خاور ولم تنم ، فقد استيقظت بذهنها ذكرى تلك الليلة التى كان قد عاد فيها عباس عاجزًا منهكًا ، فكان قلبها ينتفض من شدة الخوف ، وأصيبت بالهلع وهى تسمع رخات المطر ، وكانت حبات المطر تتساقط فوق الزجاج ، وفجأة زمجر الرعد ، واهتزت خاور.

قال " عباس " :

- سأنام.

- قالت خاور متضرعة.

- لا...لا...

وجرت مسرعة إلى الفناء.

بللت الأمطار جسدها بالكامل فى الفناء ، وتحت قطرات المطر تسمرت فى مكانها فجأة من الخوف ، ورأت فى ضوء مصباح الفناء أن شجرة السنار لم تعد بها ورقة واحدة ، كانت كافة الأوراق قد تساقطت على الأرض ؛ لقد امتلأ سطح وسادة عباس بقطع من الدماء ، كانت شجرة السنار صامتة لأن المطر قد توقف ، وكان عباس مستلقيًا على الفراش دون حراك ، وفى البداية تسمرت خاور من الخوف ثم توجهت صوب شجرة السنار وقالت :

- كيف حالك ؟

- لم تسمع إجابة ، كانت الشجرة باردة صامتة ، لقد مات عباس وخطت بضع خطوات فى اتجاه المبنى ، وعندما وصلت إلى الدرج توقفت واستدارت بوجهها ونظرت صوب الشجرة فإذا بالشجرة واقفة تحت المطر عارية بلا أوراق ، كان المطر يغسل جثمان العارى ، فجأة انفجرت بداخلها قوة هائلة كانت قد كمنت بداخلها منذ اليوم الذى مات فيه عباس ، وجاءت هذه القوة فى صورة صرخة مهولة مرعبة خرجت من فم خاور ، وصرخت مرة أخرى ، وجحظت عيناها ، وبدا جلدها فوق جسدها مثل الجليد الأبيض ، وزلزلت صرختها الثالثة أرجاء الفناء.

- أشعلت مصابيح الغرف ، وهرول صاحب البيت وزوجته خائفين ووصلا أعلى الدرج.

- ما الذى جرى ، ما الذى جارى يا خاور؟

صعدت خاور مسرعة ، وأمسكت بيدها بكم زوجة صاحب البيت بشدة ، وأشارت بيدها الأخرى إلى شجرة السنار تحت المطر وقالت :

- عباس... مات عباس .

مدرس الرسم

كل شىء يضم قصة فى داخله " لكل شىء قصة " ، ومعلم الرسم الذى يعلمنا له قصة أيضًا .

تعرفت عليه فى الصف الخامس ، ذو قوام طويل ، ولأننا كنا صغارًا فكان يبدو أكثر طولاً حين نمر من أمامه ، وكان شعره غير مرتب دائمًا ، ونادرًا ما كان يحلق لحيته.

كان وجهه مستطيلاً أيضًا ، وله جبهة عريضة ، أنفه تقوس كالكمان ، وعيناه تلمعان ببريق خاص ، وكأنما انعقد الدمع فى عينيه بصفة دائمة ، وكانت ثيابه قديمة ، وكانت فتحة أكمامه وياقته ومنطقة عنقه ممزقة ، وأثناء سيره كان يطرق برأسه بطريقة معينة ، وكأنه يبحث عن شىء على الأرض.

فى اليوم الأول الذى دخل فيه فصلنا ، لم ينطق بكلمة واحدة ، كان هادئًا صامتًا وضع مقعده فى مواجهة النافذة وجلس ، وكان وقار وجهه له تأثيره على الأولاد حتى إن أكثر الأولاد شقاوة صاروا هادئين . كنا جميعًا نرقبه بدهشة وإعجاب ، وكان ينظر إلى السماء من خلف الزجاج بصمت وهدوء ، وكأنه يجلس وحده ولا يوجد أحد داخل الحجرة .

مـر أسـبـوعـان كـامـلان على نفس المنوال ؛ فكان إذا دخل الفـصل يضـع مـقـعده بجانب النافذة ويجلس عليه يفكر بـهدوء ، فكان يتطلع إلى السماء أو يقرأ فى كتاب .

وكنا نحن أيضًا نرقبه بدهشة وإعجاب ونتفحصه بالكامل ، فهذا زر القميص وعقدة العنق وخصلة شعره ، أشياء تجعلنا سعداء للحظات طوال .

وأخيرًا ذات يوم ، وكأنه انتبه مؤخرًا إلى وجود أحياء آخرين غيره بداخل القاعة ، وفى ذلك اليوم الذى دخل فيه الفصل كعادته راح ينظر إلى السماء ، ونحن أيضًا مشدودين إليه ، وفجأة أومأ برأسه والتفت إلينا ونظر إلى الجميع بحيرة واستعجاب ثم قام من مجلسه وسأل :

– أيها الأولاد كيف حالكم ؟

فتسارعنا جميعًا بصوت ضعيف كله لهفة وتردد الصوت فى فناء الفصل :

– شكرًا ، نحن بخير.

لعل هذه الأصوات كان لها تأثير على المدرس ، ورأينا ابتسامة لأول مرة ، فى ذلك الوقت لم أفهم شيئًا من هذه الابتسامة ، كانت ممزوجة بالشفقة والسخرية ، فكانت بسمته مثل شهاب سطع واختفى وأبقى على السماء بشكلها المظلم والحزين ، إنها نفس عيونه اللامعة ، وطبيعته الغارقة أو المستغرقة فى التفكير.

فى هذه الحالة سأل :

– أتحبون الرسم ؟

أجبنا جميعًا :

– نعم نحبه .

سأل مرة أخرى:

– لماذا تحبونه ؟

أجاب البعض :

– لأنه يسعدنا ويعجبنا .

فأطرق برأسه وقال :

يسعدكم حقًا ؟

فأشرنا نحن أيضًا برءوسنا وقلنا :

– نعم ، يسعدنا .

تطلع المعلم إلى الفضاء الخارجى ثم أعاد النظر إلينا وقال :

– هل من الممكن أن يحب إنسان شيئًا لا يروق له أو يسعده ؟

لم يستطع أحد الرد على هذا السؤال ؛ فعاد إلى حالته صامتًا مستغرقًا فى التفكير مثل الأيام السابقة .

وذات يوم دخل الفصل وقال :

- سنعمل اليوم.

وتوجه ناحية السبورة ، وأمسك بالطباشير ، وراح يرسم بها على السبورة ، وأسرعت أصابعه الطويلة والنحيفة تتحرك بمهارة على السبورة ، وبعد لحظة قصيرة رأينا شكلاً مرسومًا كان عبارة عن يد خشنة بائسة معلقة لها كم قديم ، قديم جدًا ، كانت تبدو هذه اليد وكأنها تطلب شيئًا من الناظر إليها.

تراجع المعلم بضع أقدام ونظر إلى رسمه ثم نظر تجاهنا وسأل :

- جيد ؟

قلنا :

- عظيم جدًا .

قال المعلم بوجهه المليء بالفكر :

- تعلمون أن لكل رسم اسمًا ، فلتسموا هذه الصورة " كُم الثوب القديم " .

- قلنا :

- حسن جدًا.

قال المعلم :

- الآن ارسموا واحدًا آخر.

انكبت رءوس الأولاد على دفاترهم ، وتوجه هو وجلس فى مكانه ، وانشغل بالتطلع إلى الفضاء ، وكان صامتًا مستغرقًا فى التفكير .

وفى اليوم التالى قمنا بأداء نفس الشىء ، نفس كم الثوب القديم ، كذلك رسمناه فى اليوم الثالث وأيضًا فى الأيام التالية ، إنها نفس اليد المعقودة الخشنة ونفس كم الثوب القديم ، كنا نراه على السبورة ونرسمه ، كانت اليد كما هى خشنة معقودة ، وكان كم الثوب كما هو قديم ، واليد كانت تبدو كأنها تستجدى الناظر شيئًا .

ولمدة شهر رسمنا تلك اليد وذلك الكم ، حتى شعر الأولاد بالتعب أخيرًا ، وكان المعلم - كما هو - هادئًا صامتًا مثل تمثال لا يعنف أحدًا ولا يقول لأحد أحسنت " لا يشجع أحدًا " ، فقط كان صامتًا يفكر صامتًا مثل سالف الأيام ، وكنا نراه أوقات الراحة جالسًا تحت شجرة بعيدًا عن بقية المعلمين غارقًا فى التفكير ، وكان الأولاد الذين يمرون بجانبه يلقون عليه السلام ، لكنه لم يكن ينتبه لأحد ، وكان يبدو بهذه الصورة ، وكأنه غير موجود فى هذه الدنيا أصلاً ، ولا علاقة له بها ، كان يفكر ويفكر ، وهكذا أيضًا كانت تبدو ثيابه قديمة وغير مهندمة ، وكان شعره غير مرتب ، ولحيته كذلك نادرًا ما كان يحلقها . وبدورنا نحن أيضًا كنا نرسم نفس كم الثوب القديم حتى امتلأت دفاترنا بنفس الصورة ، يد معقودة خشنة حتى الساعد بكمها القديم والممزق . اليد التى كانت تبدو وكأنها تستجدى شيئًا من الناظر إليها ، ونحن أيضًا كنا قد أصبنا بالتعب والإرهاق من رسم هذه الصورة.

وذات يوم قال أحد الأولاد :

– سيدى المعلم ·

انتفض المعلم وقال :

– نعم أتسـأل عن شىء ؟

قال ذلك الولد خائفًا :

– اليوم··· اليوم ارسم شكلاً آخر·

نهض المعلم وتوجه صوب السبورة ، ونظر إلى الشكل ثم عاد ونظر إليه مرة أخرى ، وعندئذ قال سائلاً :

– ما الداعى لهذا ؟ هل هذا سيئ ؟

قال الأولاد :

– لا ، إنه عظيم جداً .

فأعاد المعلم السؤال مرة أخرى :

إذن لماذا تطلبون أن أرسم شكلاً آخر ؟

أجاب الأولاد :

– رسمناه كثيراً ، وهذا يكفى·

بدا الحزن واضحاً على وجه المعلم وقال بصوت كسير :

– كم الثوب القديم لا يروق لكم ، نعم ؟

لم يرد أحد ، فراح المعلم فى تلك الحالة من الحزن والفكر ، وبعد ذلك ودون أن يلتفت إلينا قال بهدوء :

– أوه ، كلا ، كلا ، لا يوجد من يعجب بكم الثوب القديم ، وتطلع إلى السماء ثم توجه ناحية السبورة ، وبدأت أصابعه الطويلة والنحيفة تتحرك على السبورة ، ورأينا منظراً عجيباً ، كانت الصورة لهيكل عظمى لجسم إنسان قد أمسك بين عظام أصابعه باقة ورد ، وكان يبدو أنه يقدمها للمشاهد ، كما أن أسنانه كانت منفرجة وكأنه يضحك .

ابتعد المعلم عدة خطوات عن السبورة ، ونظر إلى القطعة المرسومة ، ثم استدار إلينا وسأل :

– هل هو جيد ؟

أجبنا جميعاً :

– إنه جيد جداً .

قال المعلم :

– أطلقوا على هذه الصورة اسم " الموت ".

استفسر أحد الأولاد قائلاً :

– لماذا أمسك بهذه الباقة من الورد ؟

أشار المعلم إلى باقة الورد ذات الأوراق الممزقة وقال :

– هذه الوردة " الزهرة " هى الحياة ٠

لم نفهم شيئًا ، وأصابتنا الدهشة والحيرة :

– الحياة فى يد الموت ؟

أعجب المعلم بالصورة ، وقال فى هدوءٍ وتأنٍ :

– أجل ، إنها الحياة ، الحياة فى يد الموت ٠ إنه يمنحنا الحياة ثم يستردها منا بعد ذلك ، ولم يقل شيئا آخر ، وتوجه بالقرب من النافذة ، وراح يرقب السـماء الصافية ، وبدأنا نرسم٠

وفى مساء ذلك اليوم رأيت حلمًا مخيفًا ، رأيت حارة ضيقة ملتوية سد طرفاها بجدران مرتفعة عالية ، وكان المعلم الذى يعلمنا الرسم واقفًا فى منتصف تلك الحارة ، ينظر إلى السماء وقد أمسك بيده باقة ورد ممزقة الأوراق ، فجأة خرج من أحد أركان الحارة نفس الرسم الذى كان موجودًا على سبورة الفصل إنه نفس الهيكل العظمى ، وسار فى اتجاه المعلم ، كان هو ذاته الهيكل العظمى بدون جلد أو عظام ، وبأسنانه المنفرجة وكأنه كان يضحك ، والاختلاف الوحيد هو أن هذا الهيكل العظمى لم يكن يمسك بيده باقة ورد ، توجه الهيكل نحو معلمنا وضحك بصوت خشن ، وحين رآه المعلم ارتعد من الخوف اقترب الهيكل العظمى من المعلم وقال :

– أعطنى ، أعطنى الحياة٠

كانت قطرات العرق تلمع فوق جبين المعلم ، نظر إلى باقة الورد وضمها إلى صدره بشغف ، ثم بدأ يتحرك منسحبًا ، كما أن الهيكل العظمى بدأ يقترب منه أكثر وأكثر وقال له :

- أعطنى الزهرة ، أعطنى حياتك ، ردّ لى ما قد أعطيتك إياه.

وخرجت من بين أسنانه قهقهة (فجة) ، وكان المعلم يعتصر الزهرة فى صدره ، وبدأ ينسحب وهو يحرك رأسه رافضًا ، ولكنه لم يكن ينبس بكلمة ، وكان الهيكل العظمى يزداد اقترابًا منه وهو يقول بصوت أجش غليظ:

- أعطنى الزهرة ، أعطنى الزهرة .

فجأة بدأ المعلم فى العدو ، والهيكل العظمى يعدو خلفه أيضًا ، وراح المعلم يقطع الحارة الملتوية والهيكل العظمى وراءه وهو يصيح :

- سآخذها ، حتمًا سآخذها ... فهى ملكى.

وكان وقع أقدام الهيكل العظمى يحدث فى الحارة الملتوية أصداء عجيبة مرعبة ، لقد احترق نفس المعلم ولم تعد به قدرة على الصمود ، لكنه كان ما زال يعدو حتى وصل إلى المنطقة المغلقة عند طرف الحارة ولا سبيل للفرار ، فكان المعلم المسكين يلتصق بالجدار وكأنه يحاول اختراقه ، وكان صوت أقدام الهيكل يقترب ، وعندما وصل بالقرب من المعلم مد يده صوب باقة الورد وقال :

- أخذتها ... أخيرًا أخذتها.

وسرت فى الحارة الضيقة قهقهته الفجة المهولة .

ومنذ تلك الليلة تغيرت فى نظرى صورة معلم الرسم ، وصارت له منزلة خاصة فى قلبى ، وقتما كنت أراه ، أصير حزينًا جدًا ، وكنت أفكر فيه حين أخلو بنفسى ، وكذلك كان رسمه موضع إعجابى ، كما أن ثيابه القديمة وشعره المنكوش وعيناه ذات البريق وأحذيته البالية الرثة التى تبدو من ثقوبها أقدامه التى لا يضمها جورب ، إنها جميعًا أشياء تدعو للشفقة .

كانت الأيام ما تزال تمضى ، ونحن ما زلنا نرسم نفس الهيكل العظمى ، وكان هو يجلس أيضًا بجانب النافذة يتطلع بدهشة إلى السماء أو يقرأ كتابًا ، وذات يوم كنا نرسم نفس الصورة شعرت أنى قد ضقت ذرعًا من رسم ذلك الهيكل البسيط ، وودت لو أتيحت الفرصة لأرسم ذلك الحلم الذى كنت قد رأيته فى المنام ؛ فرسمت رجلاً وقد التصق فى ركن جدار فاغرًا فاه من الخوف والرعب ، وقد وقف أمامه هيكل عظمى كان يريد أن ينتزع منه باقة الورد التى قد ضمها ذلك الرجل إلى صدره ، مع أن الصورة كانت سيئة وغير متناسقة إلا أننى كنت سعيدًا بها وضعتها فوق الطاولة ، ورحت أنظر إليها ، ورحت أفكر فى حلم ليلتى تلك ، وكنت أشاهد الرسم باستمتاع وتلذذ ، وفجأة شعرت بظل فوق المنضدة ، كان ظل المعلم ، انحنى المعلم وكان ينظر فى الصورة بدقة وتمعن ، وبدت على وجهه ملامح وحالة خاصة ، وعندئذ قال متسائلاً :

– لماذا رسمت هذا ؟

انتابنى الخوف وأجبته متلعثمًا :

– هكذا كانت رغبتى ، ولن أرسم شيئًا آخر.

أسرع المعلم معقبًا على كلامى :

– أوه ، لا... لا... إنه جيد للغاية ، كيف خطر هذا بفكرك ؟ كيف ؟

– هذا رأيته فى المنام

تماسكت قليلاً :

سأل المعلم بلهفة واشتياق :

– ماذا رأيت ؟ وكيف ؟ قل كل شىء.

وكانت عيناه تبرق وتلمع أكثر من أى وقت مضى ، وكانت فرائصه ترتعد ، فابتلعت لعابى ورويت له ما رأيت فى المنام بالتفصيل.

قال المعلم بنفس اللهفة والاشتياق:

– من كان ذلك الرجل ؟

قلت متناسيًا :

– أى رجل ؟ ..نعم... لا أعرفه ... كان شخصًا غريبًا.

قال المعلم مصرًا ، وهو فى حالة من الهياج :

– انظر ، انظر ، ألم أكن أنا ذلك الرجل ؟

– نعم ... كنت أنت .

وتنهد بعمق واستراح ، وكان الأولاد ينظرون إلينا بكل عيونهم ، فقد أصابتهم الدهشة والحيرة ، عندئذ تمتم المعلم بهدوء وفى صمت وكأنى الوحيد الذى أسمعه وقال :

– هل تدرك لماذا رأيتنى فى المنام ؟ لا تعرف ، نعم ؟ حسنًا رأيتنى لأننى أعتقد أن الموت يسلب منا الحياة بالقوة أما الآخرون الذين لا يؤمنون بهذه الفكرة فهم مشغولون ، إنهم دمى لاهية .

وبعد فترة من الصمت بدت خلالها ابتسامة ساخرة على شفتيه اقترب بفمه من أذنى فجأة وقال:

– حين كان يريد الهيكل العظمى أن يأخذ منى باقة الورد هل كنت خائفًا بشدة ؟

ترددت، فقال المعلم بإصرار :

– تكلم ... تكلم ، هل كنت خائفًا ؟

خفضت رأسى وقلت :

– نعم كنت خائفًا ! كنت خائفًا للغاية!

ابتسم المعلم وقال :

– إذًا فأنا أيضًا أخشى الموت وأحب الحياة ، واعترته حالة من التشنج ، وراح فى صمته .

وبعد أسبوعين لم نعد نرى معلمنا ، وكنا قد اعتدنا رؤيته ، ولابد أن أرى تلك الحالة غير العادية وتلك العيون البراقة وذلك الشعر الغجرى الثائر ، كنت أعتقد أنه مريض.

وذات يوم رأيت طفلاً صغيراً فى السوق كان يعرض لوحة للبيع وحين نظرت للوحة ارتعدت ؛ إنها كانت عبارة عن الهيكل العظمى ؛ إنها لنفس الهيكل العظمى الذى كان مرسومًا على السبورة فى فصلنا ، وهناك رجل يقف فى مواجهة الهيكل العظمى يعطيه باقة ورد بابتسامة مليئة بالسخرية والاستهزاء.

تخيلت أن الرجل يشبه المعلم الذى يعلمنا الرسم ؛ فسألت الطفل :

– من الذى رسم هذه اللوحة ؟

أجاب الطفل :

– والدى .

فقلت بسعادة :

– إنه معلمنا ، أين ذهب الآن ؟

امتلأ حلق الطفل بالمرارة : وامتلأت عيناه بالدمع وعندئذ قال :

– مات أبى...

الخفافيش

كان هناك طفل صغير انزوى فى أحد الأركان وقد غطى وجهه بيديه ، وراح يبكى بصوت حبيس .. وزوجة الأب ترفع فى صمت اللحاف القديم الباهت ، وتحاول إصلاحه وهى جالسة تحت خيوط الشمس الصفراء التى تسللت بأشعتها عبر النافذة الصغيرة.

كانت اللحظات تمر ببطء ، وبعد فترة انقطع صوت البكاء ، وفضل الطفل الهدوء ، فافترش فناء المنزل وراح فى النوم خالى البال ، ورأى فى منامه كأن المعلم دخل الفصل وقبل أن تنتهى إشارته نهض الجميع بتلقائية ، وبعد أن جلسوا طلب منهم الواجبات المنزلية.

حاول الطفل أن يجلس خلف طاولته مختفيًا عن الأعين... وبدأ المعلم النداء على الأسماء ، وحين وصل المعلم إلى اسمه امتعض جبينه ، وبحدة رفع نظارته السميكة من فوق أنفه وراح ينظر باشمئزاز وسأله:

- يا أيها الملعون أين كنت ؟ .. كنت غائبًا ؟

كان يكره صوته وينفر منه ، وكذلك من وجوه الأولاد وحركاتهم حين تطلع إليهم ، واكتفى بالنظر إلى أصابع قدمه البارزة من الحذاء ولم يرد ؛ فكان يبدو له أن الجميع ينظرون إليه ويريدون التهامه بعيونهم اللعينة البغيضة.

كان يلتقط أنفاسه بصعوبة وتتلاحق ضربات قلبه وكأن شيئًا ضخمًا يثقل كاهله الصغير فيجعله فاقد القدرة على الاتزان .

كان دائمًا ما يهرب أو يلفت انتباه المعلم أنه بدون قلم أو ورقة أو كتاب ، وأشار المعلم إليه قائلاً:

- انهض .

كان وقع هذا الأمر وكأنه مطرقة هوت على أم رأسه ؛ فنهض على الفور ، ولكنه ما لبث أن فقد توازنه وسقط على التلميذ الذى كان جالسًا أمامه.

كانت رأسه مطأطأة ولا يستطيع أن ينظر للآخرين ، ولكنه كان يستشعر مدى ثقل نظرتهم المليئة بالازدراء إليه ، والتى تثقل كاهله ، وتحتوى كيانه ووجوده المهين.

رفع المعلم نظارته، وبينما كان يحركها بيده اليمنى صرخ بصوت غاضب مخيف:

- العصا!.. أحضروا العصا بسرعة !

انتهى الحلم واهتز مرة أخرى ، وتكسرت بدمع عينيه كافة المناظر والأخيلة الموجودة والمحيطة ، وبعد ذلك عادت كافة الأمور إلى طبيعتها .

وكانت زوجة الأب ترقع اللحاف الرث البالى وهى تجلس صامتة فى ضوء خيوط أشعة الشمس الرقيقة الخافتة ، التى زحفت عبر النافذة

الصغيرة لتغطى قدرًا بسيطًا من أرضية الغرفة ، وكان وجهها الذى ظهر عليه الذبول يرى بالكاد وهى تجلس على أرضية البيت خافتة الضوء.

كانت الأصوات تسمع من فناء المنزل واضحة أحيانًا ومتداخلة أحيانًا أخرى ، وتصل للأسماع صوت الأطفال وهم يعدون خلف بعضهم البعض ، وتمنى الطفل أن يذهب ليستطلع ما يحدث.

فسمع صوت الوالد المتعب والحزين وهو فى حالة سعال يشكو لأحد الأشخاص ؛ فتوقف وارتفع وقع حذائه الممزق صاعدًا الدرج ، فغطى الطفل وجهه بكلتا يديه ، وجلس متكورًا وقد استند بظهره إلى أحد الجدران.

– إلى متى أيتها المرأة ، وماذا حدث حتى انعقدت شفتاك ؟

لم ترد زوجة الأب ، بينما الطفل ينظر فى صمت من خلال أصابع يديه التى وضعها فوق وجهه ، وكان يبدو وجهه أكثر اصفرارًا وانكسارًا من ذى قبل.

نظر الأب فيما حوله ثم توقف عند الصبى.

كانت عيناه المتعبتان تبدوان كأنهما كأسان من الدماء ، وهكذا كان دائمًا إذا ما ظل بدون عمل ، ولم يتمكن الصبى من تحمل نظرته الحارقة وازداد تكورًا والتصق بالجدار.

– إلى متى أيتها المرأة ، لماذا لا تنطقين بكلمة ؟ ولماذا صرت كالخشبة ؟ هل فاضت روحك ؟

وراح فى نوبه شديدة ومؤلمة من السعال الطويل فانحنى ووضع يده على صدره٠

– إنك تريدين قتلى ! إنك تريدين قتلى ! ماذا أفعل ؟

واستدار بوجهه نحو ولده وصرخ :

– أيها اللص ، إنى أتحدث إليك ، ما الذى حدث ؟ وماذا فعلت ؟

ولأنه لم يسمع إجابة فأسرع وسحب اللحاف من يد زوجته وألقى بنفسه فى أحد الأركان وراح يسعل وظل منحنيًا للحظة ٠

– لماذا لا تتحدثين أيتها المرأة ، لماذا ؟٠٠ إنك تريدين قتلى! إنك تنوين قتلى !

بدأت زوجة الأب تتحدث بنغمة واثقة محققة٠

– ماذا أقول ؟ لقد عاد وفر من المدرسة ، ولا أعلم كيف تكون نهايته وماذا يريد ، إنه يطمطم ويغرغر ولا يقول شيئًا ، ولم يكفه يوم ولا يومان وفى النهاية نكس رءوسنا ، فإلى متى الصبر ؟ إلى متى ؟

اشتاط الأب غضبًا وصرخ:

– إلى متى أيها اللص عديم الحياء ، أولم تعد إنسانا؟ لقد يئست منك ، وماذا أفعل معك ؟ ماذا أفعل ؟

لم يكن يضربه على الإطلاق ، وكان يكتفى بمثل هذه الأقاويل.

تناولت زوجة الأب مرة أخرى طرف اللحاف كي ترقعه وقد وضعته على ركبتها ، وقد مسحت دمعها ، وكل يوم كانت تردد معترضة وتقول : " قلت مائة مرة ، ما شأننا نحن بمدرسته ؟ ما شأننا نحن بدروسه ومعلمه ؟! " نحن فقراء ومن لهم أطفال مثلنا كيف يكون لديهم تلاميذ ؟ إن الفقير بحاجة إلى أى شيء وعليه أن يجد له عملاً ، ألم تسمع .. كلها أخطاؤك أنت! كلها! ودائماً ما تجلب علينا المصائب.

جلس الأب وكأنه لم يسمع لقولها ، واستند بظهره إلى الجدار غاضباً ووضع رأسه فوق ركبته وتصاعدت حدة السعال.

وبعد لحظات ساد خلالها الصمت المهول ، قام الصبى مستنداً إلى الحائط بيديه ، وكان يراقب زوجة أبيه ، وسار على أطراف أصابعه وصعد السلم.

جلست بعض الفتيات الصغيرات فوق بساط قديم فى وسط الفناء تلعبن ، وكان هناك طفل صغير يبكى فى إحدى الحجرات.

والبيت كان عبارة عن بناء قديم من الآجر له صحن أو فناء شاسع ، توجد حوله وتحيطه سراديب وحجرات قديمة سيئة البناء ، وجدرانه سوداء تبدو عليها آثار الأمطار ، أما الأبواب والنوافذ فهى بالية متهالكة زجاجها محطم وتسدها الأوراق ؛ مما يعكس صورة حزينة .

كانت هناك عدة أسر تقطن هذه الخرابة ، وفى أوقات العصر تخرج عشرات الفتيات والصبية الحفاة بملابسهم القذرة الرثة ، ويتسللون عبر تلك الفتحات والثقوب إلى الحارة ، وينشغلون فى حوارات وأحاديث ، ويلهون حتى المساء بين التراب والطين ، وكما يبدو لهم كانوا يلعبون ، كانت الأصوات تأتى من الحارة ، وخرج الصبى وانزوى جانبًا ينظر وهو حزين مهموم .

" الحمام الصغير " كان هو اسم اللعبة ، كان الأولاد قد جلسوا وأقاموا أكوامًا من التراب ؛ فكانوا يحضرون الماء من المجرى المائى الملوث الموجود وسط الحارة ويصبونه فوق الحمامات الصغيرة ، ويهيلون عليها التراب ، ويخلطونه ويعجنونه بأيديهم حتى يتيبس الطين ، ويفتح أحدهم فتحة صغيرة أسفل كومة الطين مستعملاً قضيباً حديدياً ثم تفتح ثلاث فتحات أخرى بنفس الطريقة وفتحة من أعلى ، ويسحبون من خلال هذه الفتحات التراب الموجود تحت الطين اليابس ؛ مما يؤدى فى النهاية إلى وجود سقف أو قبة ، وإذا استطاع أحد أن يجد شعرة فى طين الحمام فإنه يصيح مسرورًا سعيدًا ويعرضها على الآخرين ، ذلك أن العثور على شعرة فى الحمام الصغير مصدر بركة وسعادة.

كان قلبه مليئًا بالحزن والغضب ، وكان قد انتحى جانبًا ، ووقف ينظر إلى الأطفال جميعهم ، كانوا يتجاهلونه ولم يناد عليه أحد ويقول له : " لماذا تقف هكذا يا نثار أقبل لتلعب لعبة الحمام الصغير!

كان ينفر من الجميع حتى من نفسه ، وكانت ضحكات الأطفال ولهوهم تؤذيه ، وكان مجرد رؤية وجوههم المليئة بالبغض والكراهية له – كما يتخيل – تزلزل وجوده وتقهر كيانه .

" لص عديم الحياء ! لص عديم الحياء ! إنك لص ، أنت لص.. " .

وتخيل أن الجميع التقطوا هذه الكلمات من فم والده وهم يرددونها ، والمعلم أيضًا يردد ويقول : " إنك لص ... أنت لص ! " .

كما أن صوته كله بغض وكراهية وهو يصرخ :

" العصا ! العصا ! " .

كانت الكراهية تفوح من وجوه التلاميذ ، إنهم جميعًا ينبهون المدرس ، ويشيرون إليه مهددين ، ويذهبون إلى زوجة أبيه ويقولون لها:

" إنه لم يقم اليوم بكتابة الواجب المنزلى وعاقبه المعلم !" .

" اليوم لم يحفظ درسه !" ، " لقد ضرب صبيًا و ... " ، " إنه لم يذهب اليوم إلى المدرسة ... وفر منها " ، " إنه دائم الفرار من المدرسة ! "

رأى ابن شاكوكو ، وقد بنى لنفسه حمامًا صغيرًا بعيدًا عن الآخرين كان يحمل الماء فى فاخورة مكسورة ويسكبه من خلال فتحة بها رأى الجميع يحملون المياه ويسكبونها فى حماماتهم ثم يعبثون بها فى جلبة وسرور ، ولاحت برأسه فكرة كالبرق " إنى أعرف ماذا قالت أمى اليوم ، أنا أعلم وأعرف.. ابن شاكوكو " وبسرعة حطم حمام ابن

شاكوكو بركلة واحدة من قدمه ، فغمر الماء الممزوج بالطين رأس ووجه ابن شاكوكو... ووقف لحظة يرقب نظراته المليئة بالدهشة ؛ فكانت نيران البغض والعداء تشب وتندلع عيونهما ، وكان كل منهما يريد أن يفتك بالآخر بنظراته الحادة

وكان وجه ابن شاكوكو الشاحب والملطخ بالطين يبدو مثيراً للضحك ؛ فراحت عيونه تقدح شرراً ، وحاول أن ينظف أجفانه ويمسح الطين بظهر يده ؛ فإذا به يلطخ بالطين المنطقة المحيطة بأعينه ؛ فبدا منظره أكثر إثارة للضحك والسخرية ، وامتلأت نظرته بالوحشة والرعب.

عادت أمه إلى السرداب ، وبسرعة وعصبية كانت تهددهم بإخراجهم من المنزل ، وكانت تطالبهم بالإيجار المتأخر ، والتى كانت قد أسقطته عنهم ، كانت هى صاحبة المنزل ، وكانوا جميعًا يقترضون منها ويتحاسبون معها ، وكان الصغير نثار أصغر من ابن صاحبة المنزل ، إلا أن زوجة أبيه كانت تعاقبه وتضربه بسبب أنه كان يمسك بخناقه.

توقف الأولاد عن اللعب ، وكانوا ينظرون إليهما بدهشة وانفعال ، وكانت تبدو فى أعينهم تساؤلات هى مزيج من الاحتقار والغضب والنفور ، لم يقو نثار الصغير على الصمود ، وبدأ فى التراجع والانسحاب .

جفل عائداً وأسرع بالعدو ، فراح الجميع يعدون خلفه ويزيدون من سرعتهم لحظة بلحظة ؛ فكان يسمع صوت لهاثهم وخشية أن يصلوا إليه ويمسكون به فكان هو الآخر يزيد من سرعته ، وفجأة سقط على الأرض وقد سقط وهو يتأوه على أحد أضلعه وسط التراب ، وبرقت

عيناه ثم اسودت ، ولم يشعر بضلعه أو أطرافه ، وتخيل أن يده قد كسرت .

اجتاح الألم كافة أوصاله ؛ فكان وقع الأقدام يؤذى أسماعه بشدة وقد اقتربت منه ، تحامل على نفسه حتى يهرب منهم ، لكنه سقط تحت وطأة جسد ابن شاكوكو.

كانت الكلمات تنهال عليه من كل صوب ، ولم تتح له الفرصة للحركة ؛ فكان يتكور من شدة الآلام ويصرخ باكيًا كما تفعل النساء ، وكان يحرك يده عدة مرات حتى يتحاشى الإصابة أو الضرب فى مكان ما بجسده ، وبسبب عجزه قضم بأسنانه ساعد أحد الخصوم من شدة الغيظ (حاول بساعده أن يحمى أسنانه) ، ارتفع الصراخ والعويل ، واستطاع بصعوبة بالغة أن يخلص نفسه من تحت أيديهم وأقدامهم ، ونهض ودمعه ينهمر بغزارة

كان جسده كله ملطخًا بالأتربة ؛ فكان يتلفظ بالألفاظ النابية ، ويسب ويلعن ، وكان الأولاد قد أمسكوا يديه بقبضتهم ولم يتركوه لغريمه الذى كان يرد عليه سبابه ولعناته ، ويرمقه بنظراته التى تفيض تجاهه بالغضب والكراهية.

– كان يصرخ ويحاول متألمًا وغاضبًا أن يتخلص من أيديهم ، ورويدًا رويدًا كانوا يبعدونه ، ويسخرون منه كما كانوا يسخرون أيضًا من ابن شاكوكو ؛ فكانت أصواتهم وسخريتهم ممزوجة بالاستهزاء والاحتقار وقد امتلأت نظراتهم وحركاتهم بالنفور ، وبعد ساعة كان

الجميع يلومونه ويلقون بالتبعة واللوم عليه ، أما هو فقد التزم الصمت وابتلع غضبه ولم يكن يرد على أحد.

وفى النهاية انصرف عنه الجميع ، وواصلوا لعبهم وظل هو وحيداً ، جفف دمعه وجلس بجوار جدار الحارة بعيداً عن الجميع.

كان كيانه يفيض ألمًا وحزنًا ، ولم يكن ينادى عليه أحد ليلعب ، فالجميع يتصرفون حياله بغير إنصاف ، ولم يكن أحد يطلب منه شيئًا ، وكان الجميع يبتعدون عنه ويرمقونه بنظرات البغض والكراهية.

لم يكن يعلم لماذا الجميع سعداء مسرورون ، بينما هو حزين كسير ، ولماذا تضربه زوجة أبيه ويسبه والده ويقول له " أيها اللص عديم الحياء ، إنك لست إنسانا! ماذا أفعل معك فى النهاية ؟ والمعلم هو الآخر ينادى عليه ويسبه قائلاً :

- أيها اللعين ، لم تحضر الورقة ولم تحضر القلم ؟ ... أين كتابك ؟... أين كتابك ؟... لماذا تأخرت ؟ فى أى قبر كنت ؟ ... لماذا لم تحضر بالأمس ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

لماذا يذهب الأطفال إلى زوجة أبيه ويذمونه عندها ؟ لماذا ابن شاكوكو بجسده الثقيل حين يضربه يستلقى عليه بجسده ويضربه بقدر استطاعته ولا يجوز لأحد أن ينقذه ؟

غداً سيقول المعلم : لماذا تشاجرت مع جارك ؟ وسوف يقتص منك ويضربك على يديك ، سوف يصرخ :

– العصا! العصا!

وسوف يغضب ويمتعض لونه ، وسيرفع نظارته من فوق عينيه ، وسوف يدفع الأولاد ويشجعهم على السخرية منى والاستهزاء بى...

ظل فترة طويلة تحت تأثير هذه الفكرة ، وكان الأولاد سعداء بألعابهم والمارة يتجاهلونه ، وإذا ما كانوا يلقون إلى نثار بنظرة فهى نظرة عابرة ، كان نثار الصغير يقاسى الوحدة ، وتمنى من كل قلبه أن يجد شخصًا يواسيه.

وإذا بطفلة شاحبة اللون عيناها زرقاوان تقترب بحذر وخوف من نثار ، وتجلس بجواره ثم تسأله بهدوء :

– ما الذى حدث يا نثار ؟ لماذا عيناك حمراء ؟ أكنت تبكى ؟

لم يرد نثار وأشاح بوجهه ، وراح يرسم بأصابعه نقوشًا وخطوطًا متداخلة على التراب.

كانت زوجة أبيه تعاقبه وتحذره حتى لا يلعب مع البنات ، وكانت توخزه بالإبرة ؛ لأنه لا يحق للولد أن يلعب مع البنت ، وكانت تسبه وتحذر من أن النار ستحرقه.

وكانت النسوة الأخريات يقلن أحيانًا أشياء أخرى ، ويوخزن بالإبر ، لكن أم البنت كانت تبدى له احترامها ، وكانت تريد منه أن يهتم بها ، وأن يكون لها بمثابة أخ رحيم ولا يترك الآخرين يؤذونها أو يضربونها ، وحين كانت تستعيد بعض الذكريات ، كانت تبكى حيث كان

لها طفل عمره عشر سنوات فى سن نثار كان اسمه " شير على " وكان شير على يساعد والده " عبد العلى " الذى كان يعمل " محارًا " ، وفى تلك الأوقات كانت المعيشة والحياة رخيصة ، ولم يكن هناك هذا الكم من الرجال الجشعين الظالمين ، فكان دخلهم كافيًا يوفر لهم حياة كريمة ، وذات يوم منذ أحد عشر عامًا حيث كان عبد العلى مشغولاً بترميم سقف أحد المنازل ينهار السقف فجأة بعد أن سقطت أحجاره ليهوى الوالد عبد العلى من فوق السقالة على الأرض وتسقط الأحجار على وسط عبد العلى فتكسره ، ويسقط أيضًا شير على بشدة ويرتطم جسده بالأرض ، وكان موجوداً فوق السقف يقوم بترميم وسد الفتحات فى أرضية السطح ، ويحملون الاثنين فاقدى الوعى إلى المنزل ، وبسبب الفقر والعوز لا يتوفر لهما الطبيب ولا العلاج الكافى ؛ فيموت الابن بعد شهر واحد ، ويلحق به الأب بعد عام ؛ وتبقى الأم والبنت الصغيرة وحيدتين بلا راع ، وشيئًا فشيئًا يفقدا كل ما لديهما ويصيرا بائسين ، وتصبح الأسرة مطمعًا ، وتكابد الأم المآسى والأهوال حتى توفر قوت يومها ، وما زالا يعانيان نفس الظروف حتى الآن ؛ حتى إن الحياة تضيق بهما يومًا تلو الآخر.

بعد سماع الصغير نثار لقصتهما ؛ بدا وكأنه كان يتمنى أن يعمل فى مهنة المحارة وترميم البيوت وتشييدها ، وراح يفكر فى شير على ووالده ، وعلى الرغم من أن هذه المجريات والأحداث كانت مجهولة بالنسبة له ، إلا أن تأثيرها كان واضحًا على نثار حيث كانت تسرى بداخله مسحة من الخوف فيجهز لها بدنه ، فكان يتذكر فقر وعوز والده

ومصيبة أمه والجيران والمعلم والتلاميذ ؛ فيرتعد قلبه ، ويصاب بالأزمات.

يبدو له أن الهواء ثقيل يكاد يخنقه ، وتضيق عليه عقدة قميصه ، وأن رأسه وجبهته كالنار تكاد تحرق وجنتيه ، وكان جسده يتصبب عرقًا منكس الرأس مثل شخص فقد شيئًا غير معلوم ، فظل صامتًا يتابع الذكريات التى كانت قد ترددت مرات عديدة.

وبعد عدة دقائق من الصمت القاتل ، نهضت البنت التى كان يبدو عليها الاضطراب وقالت :

- طالبتنى أمى بأن أعود بسرعة فهناك أمر ما.

- أى أمر ؟

- لا أعرف.

- قلتى إننا سنذهب معًا.

- حسنًا ، إذا جئنا لنلعب ، ولكن كيف ؟

- هذا جيد ، لنلعب ، هل تعرفين ماذا نلعب ؟

- ماذا ؟

- لعبة الحمام الصغير !

- الحمام الصغير ؟ ... هذا جيد ، جيد ، من المؤكد.

ذهب الاثنان إلى المبنى وأعطتهم السيدة بوبو النقود والمنديل حتى يذهبا لشراء الخبز.

وفى الطريق روى نثار للبنت الصغيرة كل شىء ، وكان فى غاية التأثر ، كلاهما كان متأثرًا ، وحاولت البنت الصغيرة تسريته والتخفيف عنه ، وأن تزيل الحزن من قلبه ، فبشرته أن السيدة بوبو ستحكى لهما الليلة قصة جديدة ، قصة ملك الجن .

– ما لم أعرفه تذكرت والدتى " بوبوجان " وقد كانت تحكى لى.

– أحقًا بالله ؟ وهل قالت ذلك بنفسها ؟

– أنا صادقة فيما أقول ، وقد قالت ذلك بنفسها ، ومن المؤكد أنها ستحكى الليلة قصة.

– حسن جدًا ؛ فنحن لم نستمع لأية قصة مطلقًا !

– ستسمع الليلة ، وستعرف كم هى القصة جميلة !

وفى العودة كان وقت العصر على وشك الزوال ، وكان الغبار قد غطى صفحة السماء ، وتوارت الشمس خلف طيات السحاب.

كانت أسراب الطيور فى طريق عودتها بأصواتها وضجيجها تهبط فوق أشجار الصنوبر الموجودة عند مسجد الحارة وتردد الطيور أصداء ها وتسمع أصواتها الفوضوية والمتداخلة ، لعل الليل كان يخيفهم ، ولعلهم كانوا يخشون الظلام فكانوا يشكونه ، ولعلهم أيضًا كانوا يمجدون فى الأشياء التى كانوا قد رأوها طيلة اليوم أو الأماكن الجديدة أو الأصدقاء الجدد الذين كانوا قد التقوا بهم.

توقف الاثنان لحظات للمشاهدة والاستمتاع ، يستمعان إلى نغمات الطيور الرائعة على الرغم من أنها كانت صاخبة.

كان الجيران يأتون وينظرون أولا ينظرون ، ثم يعبرون ، والبعض كان ينصحهم بأن الوقت متأخر وعليهم أن يعودوا للبيت ؛ فذهبوا عائدين إلى بيوتهم ، وبعد أن عادوا انشغلوا باللعب مع ثلاثة أطفال .

كان ميدان اللعب يضيق شيئًا فشيئًا ، وكان الأولاد يعودون إلى الفناء فرادى وجماعات.

أوشك الظلام أن يخيم على الفناء ، لكن أحدًا لم يكن يريد أن يدخل غرفته ، كانت حلقات اللعب تضيق ويتقارب الأصدقاء أكثر وكانوا يحاولون أن يستمتعوا قدر الإمكان من وجودهم معًا ، وكان إحساسهم بالحب يزداد ويتنامى ؛ فمجرد وجودهم معًا كان يثلج صدورهم ويسعد قلوبهم ، كان الآباء والأمهات ينادون بأن الليل قد حان وعليهم العودة إلى منازلهم ، لكن من كان منهم له أذن صاغية ، ومن ذا الذى كان يريد أن يضيع آخر اللحظات الغالية لهذا اليوم السعيد ويعود منزويًا فى أحد الأركان.

فى هذه الأثناء ثارت هيمهمة بين الأطفال ، حيوانات أو مخلوقات صغيرة سوداء اللون كانت تحلق بقوة وسرعة فى فضاء المبنى ؛ فجذبت إليها انتباه الجميع.

كانوا يطلقون عليها اسم الخفافيش ، وقد سمعوا أن الخفافيش لها نفس صورة الفئران ولها أجنحة من اللحم الرقيق الخفيف ، وأثناء

النهار كانت تظل معلقة فى أسقف الزرائب والمخازن المظلمة ، ولا تستطيع الطيران والترحال إلا أثناء الليل .

لم يكن أحد قد رأى خفاشاً عن قرب ، وللمرة الأولى فى العام كان ظهورها فى المبنى وتحليقها السريع وظلالها قد أصاب الجميع بحالة من الترقب والهياج.

كانت أشباح صغيرة تظهر فجأة وتطير في أحد الاتجاهات ، وبسرعة تحلق بأجنحتها فوق رءوس الأطفال ، وعندما كان يحين الظلام ويفرد جناحه كانت تتفرق وتختفى عن الأنظار.

وإذا ما كان أحدها يطير على ارتفاع منخفض كان يبتعد الجميع وهم في سعادة وسرور ، وكان يراود بعضهم الأمل فى الإمساك به.

كان كل واحد منهم يريد أن يمسك واحداً من الخفافيش ، ويرى كيف يكون هذا الخفاش ، هل هو على نفس الهيئة التى قيل لهم عنها أم لا ؟

(هل هو فأر له جناح ويطير !) ، وهل من الممكن وجود مثل هذا الشيء ؟

لم تنجح محاولات أحد ، وفشل الجميع ، كانوا يعدون هنا وهناك ، وتضيع محاولاتهم هباء.

" ليتنى كنت أستطيع الإمساك بأحدها وأراه ! ليتنى كنت أستطيع ! " ، كانت هذه هى الأمنية التى تخرج من القلوب وتجرى على الألسنة وتصل الأسماع ، " ليت ! ليت ! " أمل ضئيل لم يتحقق.

كان ابن شاكوكو يقول :

- لا يستطيع أحد الإمساك بأفراخ الشيطان هذه ! لا أحد ! إنها شياطين صغيرة ، كانت أمى تقول إنها شياطين صغيرة.

وتواتر الحديث يؤيده:

- بوبوجان تقول أيضًا إنها شياطين الظلام ، تعيش فى الظلام !

واصل ابن شاكوكو الحديث ، وكان أقوى من الجميع وبسبب قوته الملحوظة كان الجميع يعمل له ألف حساب :

- حقًا ، إنها تعيش فى الظلام ، الخفافيش تعيش فى الظلام ، تأتى وتنصرف وتصطاد فى الظلام .

إنها تحلق أيضًا فى الظلام ، ولا يستطيع أحد الإمساك بها ، ولا يستطيع أحد! كان نثار الصغير واقفًا بعيدًا فى أحد الأركان مع فتاته الصغيرة ، وكان قلبه يشارك الآخرين ويدق ، وكان يتمنى لو كان يمسك بإحداها ويراها ، وفكر فى سخرية واستهزاء : " لا يستطيع ! لا أحد يستطيع ! شيطان كاذب ، لص خسيس ! " وبدون أن يدرى صدرت عن نثار صيحة مدوية :

- كيف لا يستطيع ؟ من يقول إنه لا يستطيع ؟

صمت الجميع ، وكان كل منهم ينظر إلى الآخر وهم فى حالة تساؤل وذهول ؛ فقد استمعوا إليه باهتمام.

– أنا أقول إنه يستطيع ؟ فهذا الأمر ليس شاقًا ٠

برز ابن شاكوكو من بين الجميع وقال فى سخرية :

– إذا كان الأمر يسيراً ، معنى ذلك أن هناك من استطاع ؟ فمن يكون ذلك ؟

رد نثار ببرود:

– من استطاع ؟ الجميع يعلم من الذى تمكن من ذلك ! زميلنا فى الدراسة " هيبت " جميعًا نعرفه ، هو نفسه استطاع ذات يوم أن يمسك بأحد الخفافيش٠

قال ابن شاكوكو على سبيل التحقير والاستهزاء:

– كذب ! كله كذب ! كاذب ، وأنا أعرفه٠

ونظر تجاه الأطفال وضحك ، وضحك الأطفال جميعًا ، وكانت ضحكة منفرة ٠

شبت النيران فى نثار واحترق قلبه ، وصرخ غاضبًا وقال :

– كذب! كذب! ٠٠ أنا أستطيع الإمساك بها ، أنا٠

قال ابن شاكوكو وهو يسخر منه:

– أنت تستطيع ؟ أنت ! أنت أيها الفأر ؟!

وأطلق ضحكة عالية ، وضحك كذلك الأطفال جميعًا ٠ كان نثار يسبه ويلعنه

وكان قد اشتاط غضبًا مما قاله ابن شاكوكو ، وقال له : " الفأر هو أنت ! " .

الفأر هو أبوك ! الفأر هى أمك ! الفأر هو جدك ! وأسرع وأمسك بخناقه ؛ فباعد بينهما الأطفال ، وكانوا يقولون جميعًا على سبيل السخرية : " نثار الصغير يستطيع ، الصغير نثار يستطيع " ، وظل متحاملاً على نفسه حتى سكت معظمهم ، وقال وهو يخطو للأمام فى ثقة وغرور :

– نعم أنا أستطيع ! هل هناك من يقول غير ذلك !

وقال فى نفسه :

" لصوص بلا حياء ! اضحكوا! اضحكوا جميعا! فأنتم مجموعة حيوانات ، حمير بلا غيرة ! "

وقال أحدهم بنغمة خاصة ، وكان دائمًا ما يتملق ابن شاكوكو :

– حسنًا ، تفضل ، وأرنا كيف تمسك بها !

وأطلق ضحكة غامضة ، وكانت ضحكته عالية مصحوبة بحركات مضحكة أداها بجسده حتى أن الآخرين انفجروا فى الضحك أيضًا ، وقال نثار بثقة تامة وهو الذى هزه وآلمه هذا الوضع :

– حالاً سوف ترون ، وسأثبت لكم ما إذا كان الموضوع يسيرًا أو غير ذلك ، أعطونى مظلة ، وكان " هيبت " زميله فى الدراسة قد علمه كيف استطاع أن يمسك الخفاش بالمظلة.

لم يمهل أحداً ، وعلى الفور تناول مظلة الفتاة الصغيرة التى كانت تشاركه اللعب ، والتى كانت تنظر إليهم بدهشة وتعجب وبسرعة ارتقى درجات السلم حتى وصل السقف.

كان صوت الطيور يتردد ويرتفع بين أشجار الصنوبر الموجودة بالمسجد ، كان الأطفال صامتين يرقبون بهدوء حركاته فوق السقف ، وأحياناً ما كان أحدهم يقول لرفيقه :

" لن يستطيع ، لن يستطيع الإمساك به ، إنه محال "

وكان الآخرون يكررون نفس القول فى هدوء :

" لن يستطيع ! لن يستطيع! " .

كان قلب نثار ينتفض بشدة داخل صدره ، وكانت همهمة الطيور تؤذى أسماعه ؛ فكان يتخيل أن الطيور تسخر منه أيضاً ، وكان يتصور أنه يسمع صوت الأطفال من فناء البيت يقولون:

" إنه يكذب! لن يستطيع! لن يستطيع! ، وكانت كلمة " لن يستطيع " تشغل تفكيره ، وتخلق به نغمة تؤذيه ، وكان يتمنى أن يثبت أنه يستطيع ، وأنه لا يكذب ، وأنهم هم الكاذبون والمنافقون ، وكانوا يسخرون منه ، ولا يلعبون معه ، وإنهم كانوا يسبونه ويفترون عليه أمام زوجة أبيه ، ويقولون لها :

" نثار ضربه المعلم اليوم " ، نثار لم يقم بأداء واجباته المنزلية ، نثار فر اليوم من المدرسة ".

وكانوا يقولون للمعلم :

" نثار تعارك أمس مع فلان ، نثار سرق أمس كذا وكذا ٠٠٠" .

فكان المعلم يوقفه ويطلب العصا ويضربه ، وكان الأطفال يرمقونه بنظرات تفيض بغضاً وكراهية ويسخرون منه ، وكانت زوجة أبيه تضربه وتعنفه وتقول للوالد ، اليوم فعل كذا وكذا ، وكان الوالد يمتقع لونه من الغضب ويسعل وينحنى ويصرخ ويصيح :

– ما هو الحل ؟ عديم الحياء ، إنك لست آدمياً ، ماذا أفعل معك ؟ ماذا أفعل ؟

وبعد ذلك يعود إلى نوبة السعال ، ويقول وهو يتألم :

" إنك ستقتلنى ! إنك ستقتلنى ! " .

وكان يجرى متعقباً الخفافيش التى تأتى وتروح بسرعة ، كان يترقبهم ويرقبهم ويكمن فى طريقهم وقد أعد المظلة لكنه لم يحقق شيئاً ، يصاب باليأس ، ثم يعود للمحاولة مرة أخرى ، ولم يكن يسمع صوتاً سوى صوت نبضات قلبه المتلاحقة وهمهمة الخفافيش بين الأشجار فى المسجد ، أصبح فى حيرة وضاق قلبه ، وكان يفكر ماذا يفعل ، ما الحيلة التى يلجأ إليها ؟ وقع تحت بصره أحد الخفافيش وقام يقتفى أثره وتصور أنه سيصل إليه ، لكنه سرعان ما عدل عن طريقه وطار فوق سطح المنزل وأسرع نثار يرتقى سلم البيت حتى وصل السقف واستجمع حواسه وجلس ينتظر وأعد المظلة ينتظر وقوع الخفاش فى المصيدة .

كان الخفاش الذى كان نثار قد رآه يحلق فوق مبنى مظلم مجاور ، وكانت كافة المنازل والبيوت القريبة والمحيطة يلفها الظلام ، وصمتت الأصداء المتداخلة وأصوات الطيور ، خيم سكون الليل على كافة الأرجاء ، كان الأفق فى لون حمرة الشفق ، وكانت مواكب السحب الرمادية اللون تتقدم ، ويقترب منه وبسرعة ظل صغير.

تهيأ واستعد وبحركة سريعة فتح المظلة ورفعها أمامه ، وسمع صوت أبيه يناديه من أسفل ، ارتعد واختل توازنه ورجع للوراء بضع خطوات ، وفجأة دوّت صرخة مهولة ، لقد انزلقت قدماه نحو الفضاء.

كابل ٣٥٣١ ش ١٩٧٤م

الفريسة

اسـودت الأخـاديد الغـائرة فـى وجـه أبيـه الأصـفـر الـهـزيل ، وعض بأسنانه على شفتيه المشقوقتين والمتورمتين ، وراح يحرك جوارحه بأنات متقطعة تدل على ألـــم شـديـد ، وأخذ يضـغط بتـوتر شـديد على بطنه بفراشه المبعثر ، أخفى وجهه فى وسـادته ، ثارت بطنه ولكنه لم يتقيأ ، كان يُسمع شخير من حلقه كأن هيولاً غير مرئية قد سقطت عليه وأخذت تضغط بقبضتـها القوية على عنقه تريد قتله ، وكان شـخيره يشبـه صوت خروف سقط فى المسلخ تحت يدى الجزار وقدميه ؛ فمزقت ضربة سكينة حلقه.

لبث لحظة على نفس الوضـع ثم تحـرك ، وعـاد فى هدوء إلى جـانب ابنه الصـغير الذى كان جالسًـا فوق فراش ممزق وغير مـرتب وقذر ، وكان ينظر إليه وهو خـائــف يبكى ، وبعد ذلك حين تجـرع أناته شيـئًا فشيئًا فتح قليلاً عينيه الميتتين بمشقة ، وكانت غائرتين فى جمجمته ، وأسرعت حبات الدمع تجرى تحت جفنيه فتدحرجت من عينيه فوق خديه ولحيته الشعثاء الغبراء فسدت الطريق على نظرته المتبصرة.

كانت شفتاه تتحـركان ، ويبـــدو أنه كان يريد أن يقـــول شــــيئًا ولا يستطيع ، ناداه ابنه:

- أبى... أبى...!

لم يسمع ردًا ، كانت عينا أبيه مغمضتين ، وظلت شفتاه تتحركان ، مضت ثلاثة أيام ، وكان يكتوى بنار الحمى ، وسائر جسده يتلوى لحظة بعد لحظة ، وتثور بطنه فيتساقط من جانبى فمه ماء أصفر به زبد ، وكان يصدر أنات متألمة أخذت تتصاعد شيئًا فشيئًا حتى تحولت إلى صرخات ، ثم انقطعت فجأة فلم يعد يلفظ قولاً ولا يأكل شيئًا .

وبدأ الألم ببطء وخفيه ، ثم اشتد بغتةً فوقف ابنه لكى يفعل شيئًا أو يفكر فى حل ، لم يكن يعرف أحدًا يطلب مساعدته ، وكان يخشى بشدة التوجه إلى صاحب المنزل.

فمنذ ثلاثة أيام رآه يحدث أباه ويهدده بأنه سوف يرمى عفشه و (كراكيبه) إلى الشارع إذا لم يدفع الإيجار بعد أسبوع واحد ، وفى ذاك اليوم حل بأبيه هذا المرض الجديد ، وجاء صاحب المنزل إلى هذه الحظيرة المهجورة بقوامه القصير الممتلئ والبارز الكرش وعينيه الحمراوين اللتين ترسلان شررًا وهو يصرخ ويزعق ، وبعد أن صرخ وسب وشتم وهدد انصرف ، فساءت حالة أبيه ولزم الفراش.

فى الماضى كانا يسكنان فى منزل الشيخ رحيم ، لم يكن يضن بأى مساعدة ، لكنه مات فى الشهر الماضى فأتى ورثته وطردوهما ، وبعد أن بحث أبوه بحثًا طويلاً نقل إلى هذا المكان أثاثهما البالى القليل.

كان أبوه قد وعده بأن يدفع الإيجار قبل نهاية الشهر ، وكان قد جمع فى الأسبوعين الأخيرين نقوداً أيضًا ، ويود الوفاء بوعده ، ولكن٠٠٠

كان ابنه الصغير يسكب دمعه بصمت ، ويرتعش كشجر الصفصاف من الخوف ، وقد انتصب شعر جسده فانحنى على وجه أبيه بعينين جاحظتين وتحت الضوء الخافت للمصباح الزيتى الذى كان يبعث الدخان فى الحجرة وهو يشتعل ، فوقف ذاهلاً حين رأى وجه أبيه الهزيل الشاحب٠

كانت أنفاسه تسمع بصعوبة ، ويعلو صدره ويهبط ببطء ، وشخص وجهه فى هدوء تام تجاهه٠

كان السكون المطبق يخيم على الحظيرة ولا يمزقه سوى زقزقة الفئران التى كانت تبحث بين الفنية والأخرى عن طعام هنا وهناك أو عواء كلب من بعيد٠

فى الخارج كانت بداية ثلوج الشتاء تبسط لحافها الثقيل ، ومع أن الجو كان يمتلىء بالبرودة القارسة ، إلا أن الوليد كان يشعر بالحرارة الشديدة ؛ حيث إن عرقًا باردًا كان ينصب من تحت إبطيه ومن صدره وجبهته ، وكان صوت ضربات قلبه تدق رأسه حتى كأن شخصًا يعدو فوق السطح أو خلف الجدار ويتعقبه آخرون ، وفى سكوت منتصف الليل ثارت ضوضاء مفزعة من أصوات الأقدام وزقزقة الفئران وعواء الكلاب والأصوات غير المنتظمة لأنفاس أبيه ، أما النور الخافت المرتعش للمصباح فكان يزيد هذه الضوضاء فزعًا ورعبًا٠

ظل الابن بلا حراك كالمسحور يركز عينيه بنظرة متأملة وقلقة على أبيه الذى كان يبدو نائماً . انقضت ثلاث ليال لم يغمض خلالها المريض جفنيه ، وها هو الآن يغوص فى ثبات عميق ، وهو بدوره لم يهنأ خلال هذه الفترة بطعام أو شراب ، وكان يشعر بشدة أنه مريض ، فكانت رأسه ثقيلة وطعم فمه مراً ، ويحترق فى حمى شديدة ، ويرتعد من الخوف ، ويعجز عن النهوض والقيام بعمل شىء ، فهو فى الأصل لم يكن يعلم ما الذى يجب أن يفعله ؛ فلم يفعل شيئاً .

وفى النهاية نهض بلا اختيار ، ورفع لحافه المنزلق بأحد جانبيه ، وغطى أباه بهدوء وحذر ، وتمدد بلا صوت فى فراشه الذى كان مهيئاً فوق ركام من الأوراق والأعشاب ، وأخذ ينظر ، وأفكاره أضغاث وأخلاط إلى العروق البالية والمتآكلة فى السقف.

كانت العناكب تتحرك فوق خيوطها التى نسجتها فى كل صوب ، وتنمحى ظلالها المتفرقة فى النور المرتعش للمصباح فوق العروق المسودة بفعل الدخان ، كانت الجدران سوداء وقد نقش عليها الماء النافذ من السقف إلى الداخل خطوطاً بيضاء طويلة ، كانت تتشابك فى بعض الأماكن فتصنع صوراً غائرة وغامضة.

وظلت الفئران تزقزق بأصوات تثير الاشمئزاز ، وكان عواء الكلاب المستجير الذى يصل من بعيد يؤذى الآذان.

انقطع وقع الأقدام شيئًا فشيئًا ، وخفتت ثم انطفأت نار الموقد التى كانت مشتعلة حتى ساعة سابقة بالأوراق وقطع الحطب ، ولكن ظل بخار كثيف يتصاعد من غصن أخضر فى ركن من الموقد.

بقيت الظلال تتلوى وتتداخل فوق الجدران ، وكانت شعلة المصباح متوترة ترسل دخانًا ، وكانت رعشة البرودة تنفذ إلى سائر أوصال الولد ببطء ، وتجمد الدم فى عروقه بفعل خوف أصم وغامض.

أخفى وجهه تحت لحافه ، وتدحرج على أحد جانبيه ، وقرب ركبتيه إلى بطنه ، ثقلت رأسه ، وتمرر فمه ، ونسجت خيوط ملونة تنفجر منها شرارات صغيرة ، وأخذ حجر يتهاوى وهو ينطلق كالسهم بداخل الخيوط الشفافة المنسوجة غير المتناهية ، وراحت الأنوار المذهلة الحمراء والصفراء والزرقاء والبنفسجية والبيضاء تشع من كل جانب ، فكانت تنفتح فتحة واسعة لجبٍ عميق ، وتظهر قصور صفراء وزمردية لازوردية ومكان يشبه القاع ، وأمه التى كانت تدلله وتسند رأسه على ركبتيها وحولهما ألعاب مختلفة ، كان كل شىء يتنفس بالحياة ويجرى على شفتى أمه اللطيفتين ابتسامة ملائكية.

كان كلاهما صامت ينظر أحدهما للآخر بعينين مبتسمتين ، أمامها سهل واسع تموج الخضرة فى كافة أركانه تُسمع أصوات ، يلوح من بعيد فارس على جواد أبيض يعدو بسرعة نحوهما ، كان الفارس أباه... وخف لاستقباله الولد والأم كلاهما كانا مبتسمين ومتشابكى اليدين ، وكأنهما يطيران وكأن الفارس يطير، وحين وصل إليهما احتضنهما مبتسمًا سعيدًا، وأردفهما خلفه ، وحملهما إلى بلاد النور والأساطير.

كانت الشمس تسطع بضوء شديد وسط القرية من خلف غبار حار غطى صفحة السماء ، وتجمع الأولاد ، وأخذوا يقفزون ، وانبعث صوت شجى من أحد البيوت ، وأخذت نسوة متدثرات بعباءاتهن السوداء تختفى عن النظر بداخل نافذة خشبية ، وكان يجرى ويضرب طفلاً بسرواله على ظهره ؛ فيقع الطفل على الأرض ؛ فراح يبكى ، ويدعو بالسوء : " إلهى تموت أمك ويحمل جسدها إلى المقبرة ، فتخرج جماعة من النافذة الخشبية حاملة تابوتًا على أكتافها ، تابوتًا أسود ، وتسلك طريقًا معوجًا صوب المقابر ، كان الجميع متشحًا بالسواد ، تظهر وجوههم السوداء ، وحين كانوا يمرون بجانبه كانوا ينظرون إليه ، وكان سؤال يُقرأ فى أعينهم ، سؤال غامض .

كان الأطفال كالغرباء ينظرون إليه وقد تجمعوا فى ناحية بسكون وصمت ، أما هو فكان وحيداً ينظر متعجبًا إلى جماعة المشيعين ، وبداخله يتنامى سؤال من هؤلاء الذين يخرجون من منزلنا ، ماذا يفعلون هناك ، ومن صاحب هذا النعش الأسود المحمول على الأعناق ؟

فكان يجرى نحو أبيه الذى يخرج من بوابة منزله ويتعقب الجماعة بثوب أسود ووجه أسود باك.

– أبى! . . . أبى. . . !

لم يكن أبوه يرد عليه ، وراح يواصل السير كالغريب ودون مبالاة ، ويخرج شيخ عجوز من بين الجموع برداء أسود ووجه غير واضح كان هو الرجل الطيب صاحب البيت ، ويُسمع تشنج بكائه ببطء ؛ فكان يمد يديه النحيفتين ليحتضنه ؛ فلا يدعها رجل قصير القامة بدين بارز

الكرش ، يتقدم نحوهما بعينين يتطاير فيهما الشرر ، يلوح بعصا فى يده ، ويتفوه بكلمات غير مفهومة فى غلظة وجفاء وصراخ غير مسموع ولا يدع فرصة للشيخ العجوز كى يتحدث ، ويأخذه من ساعده المرتعش ، ويدفعه نحو الناس ، ويتوارى النعش والمشيعون خلف خرابات القرية ، وكان الأطفال يزحفون فى صمت وهدوء إلى بيوتهم ، ويتساقط فى كل مكان الغبار الذى كان قد عم السماء ، ليترك القرية يلفها الظلام.

توقف مطر البارحة الذى كان يمطر بهدوء ، وبدأت الشمس المبهجة تنثر أشعتها ، ويأخذ أبوه فى الابتسام ، وينظر إليه خلافًا لما سبق حين كان يبدو مهمومًا مطأطئ الرأس غارقًا فى بحر الفكر والقلق ، فقد كانت سعادة غير مألوفة تتراقص فى إنسان عينيه الصافيتين ، وكان المارة سعداء يبتسمون وتتلألأ أعينهم.

ألقى والده عباءته على كتفه وأمسكها بيد وأحاط بالأخرى كتفى ولده ، وكان الاثنان يتقدمان سعيدين ضاحكين ، لم يكن أبوه يعرج ولا ترى عصاه بيده ، وانبسط أمامهما شارع طويل.

كانت أصوات السعادة تسمع ونسيم الربيع العليل يُشم ، والمارة يلقون عليهما السلام بحب على خلاف ما سبق ، حين كانوا يمرون عليهما بلا اهتمام عابثين ؛ فكانت نظراتهم وحركاتهم ودودة يقفون ويلقون بالنقود فى قلنسوته ويتركونهما بابتسامات ودودة.

خلا الطريق من الزحام ، وكان الناس يظهرون فرادى وجماعات ، ويتجهون إليهما ، ويقابلونهما بحب ويواصلون سيرهما ، ولا عجب فى هذا أن الجميع كانوا يسيرون فى شارع واحد نهايته يلفها

ضباب أزرق وبنفسجى ، وكلما كانا يتقدمان كان الطريق يزداد طولاً وصعوبة فى الوصول إلى نهايته وتزيد الخطوات بطئًا .

ولم يكن واضحًا كم مضى من الوقت ، ومن أين عبرا؟

كانا يسيران فى زقاق ضيق طويل ، وكان الضباب يلف نهايته ، كان ركام السحاب الكثيف يمضى بأعلى السماء ، وكانت ظلاله ذات اللحظات القصيرة تظلم الطريق وعلى جانبى الزقاق بنحو منظم ، استقرت بوابات خضراء ، كلما وصلا إلى واحدة منها ، فتحت أبوابها ؛ فيخرج منها أحد الرجال الذين كانا يرونهما فى الطريق ويعرفانهما ويهديهما شيئًا ثم يختفى ضاحكًا ، فكان الوالد يجمع الهدايا فى عباءته وينظر إلى عين ولده فتبرق من عينيه سعادة غامضة ، وكان الأولاد والنساء والرجال الذين ظهروا بالشارع يبدو كل منهم من خلف الأبواب الخضراء للزقاق ثم يختفون ، وكان يبدو له أنه رآهم من قبل فى الشارع أو فى مكان آخر ؛ فوجوههم جميعًا تبدو مألوفة له لحد ما ....، وفى النهاية انقشع الضباب ووصلت نهاية الزقاق إلى طريق مسدود، كانت السحب السوداء تغطى صفحة السماء تدريجيًا وتتراكم ، ويعم الزقاق الظلام ، كانت الريح التى تهب شديدة قارسة ، تنفذ البرودة من الجلد إلى العظام ، وتأخذ الريح فى العواء ، ويلف الصمت الزقاق ، وتتراكم السحب ، وتتساقط حبات الثلج بهدوء على الأرض ؛ فتبسط لحافًا أبيض وثقيلاً ، أما من تلاصقوا متخفيين بجانب غائر من الجدار فكانوا يزدادون التصاقًا ، ويضغطون على الجدار ، وفجأة تنفتح من خلفهم بوابة خضراء لم تكن مرئية حتى تلك اللحظة ، وأوشكت أن تسقط فى

هوة مظلمة سحيقة فيتقهقرون خوفًا من كلب ضخم يزمجر وهو يتقدم نحوهم ، لكن البوابات الخضراء التى كانت غير مرئية من وراء الأستار الفضية تنفتح واحدة بعد الأخرى ؛ فتخرج كلاب قوية لها أفواه دموية وعيون حمراء وأسنان بحدة الفولاذ ومضاءه ، وحين كانت ترتعش أجسادها الضخمة وتفغر أفواهها كانت تتقدم نحوهم بتثاقل وبرود ، وكان الأب يضغط بيد على ابنه فى حضنه ، ويستعد بالعصا فى يده الأخرى ، وهو يثبت نظرته على حركات الكلاب المتعجرفة ، كان كلاهما يحترق ويتصبب عرقًا ، أخذت الكلاب تحيطهما وتكشر عن أنيابها مزمجرة ، كان الأب يحاول أن يلوح بعصاه ، لكنه كان عاجزًا .

قرب رأسه من أذن ولده وحرك شفتيه ، لكنه لم يصدر صوتًا ، ثم حاول أن يلوح بعصاه دون جدوى ، وعوى كلب بنظرات ترسل شررًا ؛ فأخذت الكلاب الأخرى فى العواء هى أيضًا أمامه ، وفجأة تقدم أحدهما وأمسك بأسنانه قدم أبيه العرجاء ، وطرحه أرضًا وأسرعت الكلاب الأخرى نحو أبيه ، وكان أبوه يحرك شفتيه ويتمتم بكلمات غير مسموعة مثبتًا عينيه عليه يائسًا ، وقد مد يده إليه متضرعًا بينما جرته الكلاب فوق الثلوج.

سال خط عريض من الدماء فوق البياض الناصع للثلوج ، وقد حاول الولد أن يحرك ساكنًا ويخف لنجدة أبيه ، لكنه لم يجرؤ على الحركة ، وتسمر فى نفس مكانه ، وكانت جوارحه متصلبة من شدة الخوف ، كان يود الصراخ ويطلب النجدة وفتح فمه لكن لم يصدر عنه صوت ، وفجأة رأى بفزع تام جميع الكلاب تعوى فى صوت واحد ، وهاجمت جسد أبيه ؛ وصرخ بكل ما أوتى من قوة .

- لا ! ...

انتفض من مكانه غارقًا فى عرقه مرتعداً ، كان يود أن يخرج من قفص صدره ، نظر حوله مضطربًا ، لم يكن يدرى أين ولماذا كان يصرخ ، بدا له أنه يسمع وقع أقدام متعجلة تدق بشدة على السقف وخلف الجدران ، وتثور همهمات معها أصوات بعيدة وقريبة أخرى ، كانت ظلال المصباح الآيلة إلى الانطفاء تتراقص فوق الجدران ، والفئران تزقزق ببطء ، والعناكب تهبط وتعلو فوق خيوطها التى غطت السقف ، وكانت عينا أبيه قد أظلمتا وعجزتا عن الرؤية وتجمدتا فى جمجمته ، بينما تناثر زبد أبيض على لحيته الغبراء الشعثاء من شفتيه نصف المفتوحتين اللتين جف عليهما سؤال أو رجاء.

عجز الولد حين رأى هذا المنظر عن التحمل ؛ فصدرت عنه صرخة أخرى تفيض بالألم والخوف.

- لا !

وأخفى وجهه بين كفيه وهو يرتعد بشدة مذهولاً ، وتكور فوق فراشه.

ألـن تـزوجـنـى ابـنـتـك ؟

كانت أفكار مخنوقة تتغلب على وجودها شيئًا فشيئًا ، وكانت تعد قرارًا حين تحركت المريضة واختلطت أناتها العاجزة مع الوقع الحزين لسيور المقعد فمزقت خيط الذكريات.

كانت الحجرة الصغيرة باردة ، وتبدو من مدخلها الظلمة الشديدة بحيث كان لا يكاد يرى الأشياء المختلطة الملقاة والمبعثرة فى كل صوب بها ، وكان زجاج نافذة الحجرة والباب يصدر أصواتًا ، وكانت الريح تجعلها تصرخ ، هذه الرياح التى تبكى بالخارج وتدق كالمجنون فوق الجدران وتنثر حولها الثلوج التى تجمعها وتشكلها فى صور متعرجة.

أنّت المريضة مرة أخرى ، ثم أزاحت اللحاف القذر المتغضن فى حركة حادة من يديها النحيفتين الشاحبتين ، وحركت رأسها بشدة هنا وهناك وسط الركام الضخم لشعرها الأسود الطويل الذى تبعثر فوق وسادتها ، وأنّت للمرة الثالثة ، وفجأة خلط سعال شديد الأسارير الواضحة فى وجهها الذى كان يبدو من خلاله أنها مصابة بحمى شديدة ، حاولت أن تنهض قليلاً ، وأن تستند إلى مرفقيها البارزة من

عظامها ، لكنها عجزت وأصابتها نوبة من السعال المتتابع فجرحت صدرها من الداخل ، وجعلتها تتوجع كأنها كانت تود أن تفجرها ، وأخذت صدرها التى تعانى الصداع الشديد تهتز بفعل السعال وعيناها الملتهبتان بعروقها الدامية الجارية فيهما تفتحان وتغمضان بسرعة ، وفى النهاية استراحت قليلاً ، واستندت بظهرها إلى فراشها بأنفاس محترقة كإنسان عاد وهو يعدو من طريق طويل وبعيد ، وبعد لحظة تمتمت ببطء:

– أمى... أمى

فنهضت الأم الجالسة فوق كرسيها وقد أسندت جانبى وجهها الهرم والأسود البشرة على يديها المتجعدتين الهزيلتين ، وكانت تنظر إليها بحدة وفزع ، واقتربت منحنية بكرسيها إلى المريضة وسألتها :

– ماذا تقولين يا عزيزتى ؟ أكنت تريدين شيئًا ؟

فتحت المريضة ببطء جفنيها المتورمتين ، وألقت إليها نظرة كان يختبىء بها عالم من الألم والحزن وقالت :

– ماء... قليلاً من الماء .

وبللت بلسانها شفتيها الزرقاوين اليابستين.

صبت الأم ماء فى كوب من غلاية الشاى النحاسية الموضوعة فى فتحة الجدار وأتت به ، وساعدت ابنتها المريضة كى ترفع رأسها ،

وقربت الكأس من شفتيها ، ثم سوت وسادتها بعد ذلك ووضعت رأس المريضة عليها ورتبت لحافها عليها وسألتها:

- كيف حالك يا بنيتى الآن ؟ هل لا يزال صدرك يؤلمك ؟

- لماذا ؟ يؤلمنى... قليلاً.

- إن شاء الله سوف تتحسنين ، لا تقلقى ، إن شاء الله سوف تتحسنين ، استقرى إن شاء الله سنخيف المرض .

وبالسؤال الذى كان يتردد دائمًا فى ذهنها ، ما هو الوقت ... كم الساعة ؟

لم تستطع أن تنظر مباشرة فى عينى ابنتها ، ولو كانت تستطيع لقرأت ذلك السؤال ولعانت منه.

شغلت نفسها فى أطراف سرير ابنتها وبعد إطراقة قصيرة قالت :

- نامى يا ابنتى ، إن نومك يريحك .

أغمضت المريضة أهدابها السوداء الطويلة ، وعادت الأم إلى مكانها وخواطرها التى كانت ترد إلى ذاكرتها ، وغاص القرار الذى كان يختمر فى ذهنها :

منذ أربع سنوات حين بدأوا حياة جديدة مع الربيع ، تخلص زوجها من حياة التشتت وتملك محلاً للبقالة ، وصارت أمورهم تتحسن

يومًا تلو الآخر ، وتبدلت أحوالهم نحو الأفضل ، وأخذت تنمو فى قلوبهم الأمانى البعيدة والطويلة والعذبة.

كان آصف - وهو عين أمل الأسرة - يتردد على المدرسة ، وكانت زهراء وهى تشب عن الطوق شيئًا فشيئًا ، ويظهر جمالها وملاحتها ، وتبعث الشغب بشقاوتها وحركاتها الطفولية أصبحت الابنة الأثيرة لدى الأم ، وكانت نسوة الحى يحسدنها عليها ويثرثرن ويتحدثن معها ضاحكات حول مستقبلها ، وحينما كن تقلن أشياء للابنة فتحمر خجلاً وتقطب جبينها أو تهرب.

وكان أغا صاحب جارهم الملاصق هو سبب هذه النعم التى يتنعمون فيها ، كان رجلاً سمسارًا غنيًا ، فقد عقد أغا صاحب منذ فترة علاقة خاصة بهذه الأسرة وكثر اختلاطه مع زوجها الذى كان رجلاً بسيطًا طيب القلب، وكان أغا صاحب يزورهم فى منزلهم البسيط يسأل عن أوضاعهم وأحوالهم وهو الذى جلس يومًا مع رب الأسرة واقترح عليه بنية خالصة ، وحين كانا يتبادلان حسن النية اقترح أن يقرض الزوج بضعة آلاف كرأس مال ، ويفتح له دكانًا لكنه لم يقبل ، وانقضت فترة على هذه الحالة وعاود أغا صاحب نفس الاقتراح وأصر عليه ؛ فوافق الزوج فى النهاية ، وبدأت حياة جديدة مختلفة.

وبعد فترة بسيطة استطاعا أن يوفرا لكى يسددا قرضهما بالتدريج ، كان أغا ينتهز الفرص ، ويحاول اكتساب المزيد من حبهما وإخلاصهما حتى كانا يقولان بشكر عميق:

لو كان هناك رجل صالح ، لكان أغا صاحب ، ولو كان هناك أبناء صالحون للنبى لكان أغا صاحب ... ، وكانا يكرران هذا القول فى كل مكان ، وفى كل إنسان وكان اسم أغا صاحب فى كل موضع يجرى على لسانهما بتعظيم خاص ، لا يملان من ذكره ، لكن كثيراً ما كان يحدث أنه كثيراً ما كان يوافقهما على ابتساماتهما المبررة ويعقبها بملاحظات مختلفة وعجيبة ، فحين كان يأتى لزيارتهما كان أغا صاحب يشكو من زوجته:

" أم سيف الدين لا تعى كيف تكون ربة بيت فى الأساس .. أم سيف الدين تريد منى اليوم القميص الفلانى والسروال الذى نوعه كذا .. والحذاء الذى شكله كذا ، ومهما قلت لها : يا سيدتى أنا لا أستطيع أن أشترى كل هذا الشىء وذلك الشىء أعجز عن إقناعها ، ومهما قدمت الدليل والحجة فإنها لا تسمع منى ، وتصرخ وتصيح وتبكى قائلة إنك لا تحبنى أصلاً وقد ضقت بى ، وأنا لا أفهم ماذا أفعل مع هذه المرأة الجاهلة قليلة الحياء ، وأى تراب أحشو به رأسى ، ويوماً بعد يوم تزداد حججها ويزداد جنونها الصبيانى ، وتطلب كل ما تراه فى أى مكان أو فى يد أى إنسان ، وتضغط علىّ أنا المسكين بكل حيلها كى أشتريها لها وتظن أننى أمتلك خزينة نقود ، وتظن ذلك دائمًا " ، " هذه المرأة مجنونة فى الأصل ، حتمًا يجرى فيها عرق من الجنون ، وحين تصرخ أو تتجمد أنفاسها تضرب نفسها وتشد شعرها وأى شىء تجده فى متناول يدها هنا أو هناك تقذف به أو تحطمه ، وأنا لا أعرف كيف أتصرف حيالها ".

ثم كان يأخذ فى الحديث عن عقم زوجته وعدم إنجابها ، ويذكر بتأثر الذكرى الأولى والأخيرة وهى ابنه سيف الدين الذى مات طفلاً ، فيأخذ الاثنان فى التسرية عنه ومواساته ، وهكذا تصير الأحداث .

وكان أغا يمتدح حياتهما وأحوالهما وهو سعيد ، وحين كان يلتقى بالطفلين كان يدلل آصف ويشجعه على الدراسة ويشجع زهراء على الدراسة ومساعدة أمها ، ثم يناجى بعيداً عن عينيها أمها بابتسامة ونظرة غريبة ، ابنتك اسم الله عليها سوف تصبح جوهرة فريدة ... ألن تزوجينها حين يحين زواجها ؟

كانت الأم تبتسم وتأخذ كلام صديق الأسرة كبير السن على أنه مزاح وتقول فى خجل : لا يزال الوقت مبكراً ، لابد من الانتظار ، ثم تغير مجرى الحديث ، وكان أغا لا يمل قط من السؤال ، مع أنه كان يسمع رداً سلبياً ، لكنه كان ينبه أمها حين تسنح الفرصة " ألن تزوجى ابنتك ؟ " ألن تزوجى إبنتك ؟ ومن كثرة تكرار هذا السؤال تسبب فى وجود غضب وحساسية كانا يزيدان يوماً تلو الآخر.

وفى صيف ذلك العام ، وفى أحد الأيام القائظة أصيب آصف بحمى شديدة وعاد إلى المنزل ولازم الفراش ، وكان يشعر بالغثيان ويتقيء وظل على نفس الحال لمدة يومين ، ولم تجد المحاولات التى بذلها الأب ولا الدواء أو الطبيب الذى استعان به ، وفى اليوم الثالث رحلت السعادة والفرحة والبهجة من الدار وحل محلهم مأتم أليم.

شاع أنه وباء ؛ لأنه حدثت وفيات أخرى فى منازل عديدة أخرى ، ولكن على أى تقدير كانت مصيبتها مصيبة مباغتة ، بل مصيبة أفظع من كل المصائب التى تأتى فجأة ، ولم تمض بضعة أيام على هذا المأتم حتى قلل أغا من زيارتهما وتغير حاله مرة واحدة وزال حبه وإخلاصه ، وصار وجهه وسحنته جافين ورسميين متكلفين ، وانتهت ضحكاته وشكواه من همومه.

لم يكن أحد يدرى السبب ولم يكن واضحًا ماذا رآه أو سمعه وجعله باردًا معهما ، وحين كان يحاول زوجها طرح هذا الموضوع فى كلامه معه ويميط اللثام عن السر لم يكن يرد ردًا حاسمًا عليه ، وظل أغا على حالة من الجفاف والرسمية والتجنب .

وذات يوم أتى زوجها وقال وهو متغير الوجه لها (أغا صاحب يريد نقوده) ، وحين أتى فى اليوم التالى كرر نفس الكلمة وزاد ، ولم يقبل أغا كل الأعذار التى قدمها زوجها من أنه لا يحتكم على مال ، وأن ما وفره أنفق على تكاليف مرض آصف ودفنه والدكان لا يدر دخلاً ، وكان أغا يغضب بشدة ويركز على أنه لا يطيق صبرًا ، ولابد من تسديد دينه لأنه يريد ماله لأمر مهم ، وبعد يومين قال : (إما أن تجهز النقود بأسرع ما يمكنك وتعيده إلىّ أو تستعد الصفقة) ، ولم يحدد نوعية هذه الصفقة وأمهل ذلك حين يأتى إليه فيما بعد ويوضح قصده.

وحار فى فهم كلمة (صفقة) وهما فى انتظار مؤلم وانتظرا بفارغ الصبر المستقبل ليريا ماذا أعد لهما أغا صاحب.

وفى اليوم التالى ، بعد تناول العشاء ، أتى أغا صاحب وجلس صامتًا عابسًا فترة ، وبعد تناول الشاى أفضى بأشياء إلى الزوج فى عدم حضور زوجته وبنته ، ولما دخلت عليهما زوجته قال لها زوجها بصوت مبحوح ووجه شاحب بسبب الغضب وجبهة مقطبة :

– يا أم زهراء ! ماذا تقولين لأغا صاحب ، يريد أن يخطب ابنتنا ، فماذا تقولين ؟

فتظاهرت بعدم فهم طلبه ، وكانت قد حدثت فيما سبق أشياء كهذه ، وكانت كلمة أغا ترن دائمًا فى أذنيها (ألن تزوجى ابنتك ؟ ألن تزوجى ابنتك ؟) وقالت غير مصدقة :

– أى خطبة ، ومن الخطيب ؟

فقال زوجها بلهجة ساخرة :

– هو الخطيب!

كانت تنظر ذاهلة فى كل صوب وحدب ، وتريد أن تخفى نظرتها الخائفة ، وقالت فى صوت منخفض متهدج:

– أغا صاحب ! ... والله ، ماذا أقول ، أنا لم أفكر فى هذا مطلقًا ! ...

فاغتصب أغا ابتسامة وتنحنح وهز رأسه قائلاً :

– صحيح، صحيح ، الآن يجب أن تفكرا .

– أنا لا أستطيع أن أقول شيئًا الدها عندك له الحرية ، هو الذى يفهم ، وهذا شأنه ، فأجاب زوجها بلهجة معتذرة:

– بالله ماذا أقول يا أغا صاحب ، كما تريد ، إنك بنفسك تعلم أن مثل هذا الأمر لا يمكن البت فيه بسرعة ، أرجو أن تمهلنا بعض الوقت .

– أطرق أغا لحظة وقال بغرور من يثق من أنه يستطيع نيل كل ما يريد:

كما تريدون ، يمكن أن أصبر يومين آخرين ، وعلى أية حال أنتم المستفيدون ، المنزل ، الدكان، عدم الاحتياج ، والحياة المريحة ، الأمان وسعادة ابنتكما ، وكل شىء ·· ونهض منصرفًا·

مضت الليلة فى سكون ، كانا يشعران بإهانة مؤلمة بدون إفصاح ، وخاصة الأب الذى كان يرى حتى ذلك الوقت أغا صاحب على أنه صديق وأخ معين ، ومع سنه الكبير ووجود امرأته لم يخطر بباله أن لديه هدفًا غير الصداقة ، وأن خلف وجهه الذى يفيض مودة وشهامة يختفى وجه قبيح لإنسان يتاجر بالناس ويزن كل شىء بميزان المنفعة·

لم يذهب زوجها إلى المحل فى اليوم التالى ، وغاص فى هم عظيم ، وأخذ يكرر في نفسه ما قاله أغا (أنتم المستفيدون : المنزل ، الدكان ، عدم الاحتياج ، الحياة المريحة ، الأمان ، سعادة ابنتكما ، الصفقة) ويتذكر أنه لم يرد عليه بشىء··· وفى النهاية طفح به الكيل ، وفى وقت متأخر حين كان يشرب مع زوجته الشاى قال لها بغضب :

– إذا لم تقولى وتخبرينى على أن آخذ قرضًا منه ما انتهى الأمر إلى هذه الحال ! ماذا أصابنا حينما كنا فقراء ومساكين ؟ لماذا رمينا بأنفسنا فى هذا الشقاء ؟!

فردت وهى تشعر بندم عميق :

– لم أكن أفهم شيئًا ، لم أكن أعلم الغيب ، كنت أظنه رجلاً طيبًا معنا ويشفق على أحوالنا ، ويقدم لنا حبه وصداقته ، هل كنت أعرف ماذا يضمره فى قلبه ؟

ثم تتذكر باستياء تام أن أغا كان يسألها دائما ،ألن تزوجى ابنتك ؟ فتجسم أمامها بوضوح الشىء الذى كانت تظنه فى البداية صورة غامضة ، ولم تدعه يعشش بداخلها ، وتنبهت أنها لم تكن تستريح لأغا من الأساس ، وأنها كانت تسىء الظن فى لهجته وضحكته الصفراء ، وتضيق به الآن فإن كلمة الصفقة وإسعاد البنت وإلى غير ذلك ، تجرح داخلها ، كانت تشعر بداخلها ببغض عميق لأغا ، وكان زوجها أيضًا يفيض بهذا الإحساس وهذا الشعور ، وحينما كانت تتذكر ما يقوله الناس بالإشارة والكناية عن أغا ، وأنها لم تعرهم اهتمامًا كانت نار كرهها تزداد اشتعالاً وتصرخ :

– كم الناس ظالمون !

وضاق زوجها ذرعًا بالإهانة التى لحقت به ؛ فأخذ يسب ويشتم ، وبدا أنه أصيب بالحمى وبشدة المرض ، ومع أنه كان فقير الحال ، إلا أنه كان يعتز بنفسه ولا يذل نفسه لأحد ، كان له طبع حساس وتشتعل نارًا إذا ضايقه شىء ، ولم يكن بمقدور أحد قط أن يمنعه من اتخاذ

القرار ، وفى ذلك اليوم وبدون أن يتفوه بكلمة لامرأته أخذ قرارًا منفردًا كحاله دائمًا ، وتوجه ليلاً إلى منزل أغا وأجابه بالرفض ، وبعد ذلك بيومين أعطاه ما توفر لديه من مال من بضاعته وأساس دكانه وبعض أساس منزله ، لكن المال لم يكف وظل مدينًا له بمبلغ كبير ، وكان أغا يصر بشدة ويطلب دفع ما بقى ، ولم يكن لديه شىء آخر يقدمه له.

كان أغا يأتى ويصرخ ويصيح ويثير الفضائح ويطالب بنقوده ؛ فكانا يردان عليه اليوم أو غدًا ويتغصصان ألمًا ، ويبحثان عن وسيلة للخروج من الأبواب المغلقة ، انقضت عليهم ثلاثة أشهر وهم على هذه الحال من الضغط على الأعصاب والتشتت ، وكان أغا قد بدأ ينبه عليهم ببيع المنزل ؛ فكان الزوج يرفض ويبحث عن حيلة من هنا أو هناك ؛ وفجأة أصيب بالمرض ولزم فراشه يومين ونصف اليوم.

كان نفس المرض الذى أصاب ابنهما آصف فكانت نفس النتيجة ، وبدأ المأتم والشقاء الحقيقى ، وبعد فترة اضطرت الأم والابنة إلى بيع مأواهما بواسطة سمسار مكار مخادع بسعر زهيد ، سددا ما عليهما ، وبما تبقى من المال استأجرتا غرفتين حقيرتين للغاية فى منزل كان يقع بعيدًا عن زقاقهما وانتقلتا إليهما.

استمرت الحياة أربعة أعوام أخرى ، وكانت الأم وابنتها تحصلان على ما يسد الرمق بأعمال متعددة شاقة ، وبكل صعوبة وألم ، وكانت إحداهما تعتبر أن رؤية الأخرى غنيمة واستسلمتا لقدرهما ، وذات يوم من خريف ذلك العام أصيبت الابنة ببرد وسعال ، واشتد عليها المرض

دفعة واحدة ، وحينما كانت الأم والابنة عائدتين من عملهما فى المغسلة ، وكانت فى غاية التعب والذبول ، وفى جو بارد ومقبض أصيبت أثناء الطريق بسعال شديد حتى إن وجهها اتقد وازرق وعجزت عن الوقوف باستقامة ؛ فانحنت وانحدرت على خديها المحمومتين ، وحين بصقت على الأرض ظهرت قطرات دماء فى بصاقها ، عادت كلتاهما إلى المنزل مضطربتين ، وعجزت البنت على المقاومة بعد أسبوع من الحمى والاحتراق والحرارة الشديدة فلازمت الفراش.

فى هذه الأثناء استمعت الأم أنينًا خافتًا فحركت مقعدها وأزاحت اللحاف القذر المتغضن عن خدى المريضة الأصفرين البارزين ، وقطع صوت كأنه خارج من حفرة عميقة للمرة الثانية حبل الذكريات الطويلة والبعيدة للأم.

– أمى!...أمى!...

نهضت الأم من مكانها واقتربت بمقعدها وسألتها بلطف:

– هل قلت شيئًا يا عزيزتى... هل تريدين شيئًا ؟

فأجابت المريضة بصوت خفيض جداً .

– لا ، أريد أن أجلس .

– حسنًا!

وساعدتها الأم ، فأتت بثلاث وسائد أسندت المريضة إليها .

– اجلسى أمامى.

– سأجلس .

وجلست على حافة المقعد بهدوء وسألتها بلهجة مطمئنة:

– أظن أن حالتك تحسنت ، كيف حالك ؟

–. . .

– أعطنى يدك!

تحسست بدقة نبضها وقالت بسعادة :

– حرارتك معتدلة، الحمد لله ، لقد انخفضت كثيراً ، وكذلك اعتدل لون وجهك ، وسوف تصبحين بخير . كان الطبيب يقول : " ابنتك سوف تتحسن حتماً سوف تتحسن ، عليها فقط أن تحاول " ، وتذكرت اليوم قوله كونى مطمئنة إن شاء الله سوف تعافين ، وسوف تدعين هذا الفراش وتضحكين وتجرين وتفرحين وتسعدين أمك المسكينة التى ليس لها غيرك وليس فى المنزل سواها : حتماً ، حتماً يا بنيتى الجميلة !

ونظرت إلى عينى ابنتها المريضة ، وركزت النظر فيهما فاصطدمت بنظرة غريبة وعجيبة كانت تموج بها ، وعجزت عن تحملها ، طأطأت رأسها وتظاهرت بالانشغال باللحاف ؛ فقد ظهرت فى جوانبه بقع صغيرة وكبيرة من الدم اليابس فرفعت اللحاف حتى كتفى المريضة وقالت :

– الجو بارد يجب أن تدفئى نفسك.

وحين كانت تحاول الابتسام وتمنح قولها نغمة مضحكة قالت :

– بنيتى جميلة من المؤكد أنها ستتحسن ، لو تدرين كم أود أن أرى فرحك وهناءك وكم أود أن أرى ابنتى جالسة على كرسى العرس ، وأسلم يديها إلى يد عريسها العزيز ، وكم أود ان تتركى بسرعة فراش المرض والمرض ، وتحتضنى أمك العزيزة وتقبليها حتماً ، حتماً .

وأضافت بعد صمت:

– يا بنيتى ، لم تسعلى قط حين استيقظت من النوم !

وضغطت برفق على يد المريضة التى كانت لا تزال بيدها وتبسمت المريضة بسمة غامضة وخيالية وهى لا تزال تنظر نظرة غريبة وغير مألوفة إلى أمها ، لم يكن واضحاً ما الذى تفكر فيه ، فى كلام أمها أم فى فكرة تجسدت فى ذهنها .

كانت حالتها غامضة ، وكانت عيناها مع أنها كانت مركزة بدقة على وجه أمها قد طرأت عليها حالة مباغتة كأنها لم تكن تنظر إلى أمها وإنما كانت تنظر على نحو أن شيئًا مذهلاً ظهر خلف أمها ، وكان البريق العجيب فى نظرتها يضفى على الجو المقبض والخافت فى الحجرة حالة من الفزع.

نهضت الأم فزعة ؛ فهى لم تعد قادرة على التحمل ، وقالت بصوت مرتعش .

– من الأفضل أن تنامى ولا تظلى جالسة أكثر من هذا ؛ فالراحة أفضل لك.

وساعدت ابنتها التى كانت تنظر إليها دون أن تتفوه بكلمة وكانت تمتثل لنصحها حتى تتمدد فى فراشها وتغطى وجهها باللحاف ، ظنت أنها تريد أن تقول شيئًا ، تمهلت لحظة ، لكنها لم تسمع شيئًا ، وظلت البنت تنظر إليها بنظرة غامضة وخاوية .

كانت الأم تريد أن تذهب لتجلس فى مكانها وتستعيد أفكارها المنسية ؛ فارتدت على عجل عباءتها القديمة ، وعادت وهى تقول بصوت تسمع ابنتها:

- أنا ذاهبة إلى السوق ، وسوف أعود بسرعة ، فهمت يا عزيزتى ؟

فأجابت بصوت كان يسمع بصعوبة من تحت اللحاف .

- حسنًا .

فتحت الأم الباب بحذر فدخلت موجة من الهواء البارد والمختلط بحبيبات الثلج واليوم المتكدر ليوم قاتم مقبض من أيام الشتاء ثم أغلقته مرة أخرى.

وكانت ظلمة الليل قد امتدت ، وأخذت رياح شديدة البرودة تعوى وتضرب الباب وتدق الحائط بشدة وحدة وترفع الثلج من فوق الأسطح والأسقف فتثيرها وتقلبها وتنثرها حولها ، وحين فتح الباب دخلت الأم وفى صحبتها رجل عجوز فأدخلا الهواء والبرودة الشديدة فاهتزت النوافذ وناح الزجاج المعقود بالثلج.

تقدمت العجوز إلى فتحة بالجدار وأشعلت مصباحها المطفأ وحملته واقتربت إلى المقعد وأزاحت اللحاف ببطء عن وجه ابنتها الذى كان تموج فيه راحة كاملة وقد استراحت رموشها الطويلة السوداء بعضها على بعض ، وارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيها الزرقاوين ، انحنت على وجهها ورفعت رأسها فجأة وهى تشعر ببرودة شديدة ورغبة فى التقىء ، وناحت وصرخت بصوت كأنه ينبعث من أغوار قبر ، وبلهجة متضرعة يائسة إلى الرجل الذى كان يقف على عتبة الحجرة وكانت تنظر إليه مذهولة.

- أغا صاحب . أغا صاحب.

ويصق الرجل على الأرض وأغلق الباب بإحكام وهو يزمجر أى أناس أنتم ؟ أى أناس ؟ وخرج ونفذت إلى الداخل صيحات وصرخات حزينة .

أسطورة ابنة أمير باميان

كانت ليالى تموز القصيرة المفعمة بالنجوم ، تمددت الأميرة على فراش من الأطلس الأخضر موضوع على سرير فضى فى الصفة الداخلة لقلعة الأميرة ، تمازج الضوء المتراقص للقمر بالشذى الآتى من ورود الروضة ، غاص باب القلعة وسقفها فى صمت ، وأخذت جاريتان تدلكان برفق كف قدم الأميرة ، بينما وضعت فى ذاك الطرف فوق المنضدة قدح أزرق بللورى يمتلىء بشراب ماء الورد والسكر ومعه كأس ذهبى.

جلست جلتشهره البالغة من العمر خمسين عامًا وقد رأت خريف عمرها ، جلست على وسادة الأميرة وهى تهز مروحة من ريش الطاووس لتدفع نسيم الليل إلى وجه الأميرة وضفيرتيها ، ماتت فى جلتشهره شأنها شأن جميع الوصيفات ، كافة الأحاسيس الأنثوية ورغباتها ، ودفنت وسط جدران القلعة الأربعة ، ثم كانت هذه المسكينة عبارة عن تمثال من الصخر سُلب منه كافة أنواع الحرية والإرادة ، كما أنها بمثابة ظل لولىّ نعمتها فضلاً عن أنها ملك مسلم وبلا منازع لها مثل سائر أثاث القصر.

وضعت الأميرة رأسها فوق وسادة وثيرة كانت أطرافها الذهبية تشع نورًا تحت ضوء القمر وتنتظر أن تبدأ جلتشهره كعادتها قصتها كل ليلة .

قالت بتوعدة :

– لقد سئمت من قصص الأمير حمزة وألف ليلة والفقراء الأربعة .

يجب أن تقص عليّ حكاية جديدة ، كانت جلتشهره مريضة ولا تقوى على السهر ، ولم تجد قصة أخرى رغم بحثها في ذاكرتها غير قصتها الحزينة.

قالت لنفسها ماذا يحدث لو عرفت الأميرة أننى أقص حكايتى وأتحدث عن نفسى أن مصيرنا فى رأيهم فى حكم الأسطورة ، وبدأت تروى حكايتها على النحو التالى :

كان يا ما كان ولا إله إلا الله .

كان على سفوح جبل عال ومخيف تغطيه الغابات والثلوج قرية صغيرة ، وكان فى تلك القرية قلعة تشبه هذه القلعة التى للأميرة لها أسوار عالية وأبراج أربعة محكمة ، وكانت تلك القلعة ملكًا لرجل غنى ذى مال وعقار واشتهرت قطعان جياده وأغنامه شهرة واسعة ، كان الناس يجلونه ويحبونه كأب للقبيلة ، وكانت له ابنة جميلة يفضلها على أولاده الآخرين ، لم تكن تنفصل قط عن أبيها الذى كان يصطحبها معه فى أى مكان يذهب إليه ، فكان يركبها دائمًا خلفه على جواده فى المزارع وصيد الغزلان وطيور القطا وصيد الأسماك ، وكان يوصى شيخ القرية ويؤكد عليه أن يعلمها القراءة والكتابة ، وكانت أمها أيضًا تحبها أكثر من إخوانها الآخرين ، فكانت كل صباح تتلو لها أدعية خاصة ، ثم

تنفث فى وجهها ثم تحرق لها البخور خوفًا من الحسد ، كانت الابنة تعلق دائمًا فى عنقها الأحجبة ذات الغلاف الجلدى الأسود وبها مخلب أسد وعملة فضية منقوش عليها اسم الله.

كانت تقضى شهر تموز الحار على ضفاف النهر البارد الهادر وتحت الظلال الوراقة لشجر الصفصاف والسنار ، وتنام الليالى فوق السقف بجانب والديها وتداعب النجوم من بعيد.

وفى أيام الشتاء الباردة كانت تجلس إلى جانب نافذة البرج المطلة على المزارع وقد لفت جسدها بلحاف لتشاهد الثلوج.

كانت تتلذذ برؤية الأغصان التى امتلأت بالثلج فى فصل الشتاء نفس تلذذها برؤية الأغصان التى امتلأت بالورود فى فصل الربيع .

لقب الناس أباها بلقب أمير باميان ، وكانت ابنته هذه أجمل وردة فى باقة ورد باميان ، وكانت كلما كبرت البنت ازدادت جمالاً ؛ فلم يعد أبوها يصطحبها معه للصيد.

ذات يوم من أيام الربيع توجه الأمير للصيد وحل الليل وامتدت ظلال الجبل على القرية ، وغاصت أبراج القلعة فى الظلام ، لكن الأمير لم يكن قد عاد بعد.

انتظرت الأميرة عودة والدها بعيدًا عن القلعة ، وهى تشعر بالقلق والخوف كانت تتلفت فيما حولها فزعة وقلبها يدق بشدة حتى إنها كانت تسمع صوت ضرباته.

كانت تتخيل كل لحظة أن شيئًا ما يتعقبها فتتلفت فى كل اتجاه ، ولكنها لم تكن ترى شيئًا أرادت العودة للقرية وإعلام أمها بنبأ عدم عودة

أبيها فولت وجهها نحو القلعة ، وفجأة جذبتها يدان قويتان بسرعة كأنهما خطافان فولاذيان ، وعقدت عينيها بمنديل أسود بشدة وكممت فمها وأردفتها خلفها على الحصان بحركة سريعة.

اعتقدت الابنة الساذجة التعسة أن أباها - كما هى عادته - أحب أن يمازحها فبقيت هادئة ، وأخذت تخمش بلطف رأسه وتضمه إلى صدرها ، ولم تستطع فك المنديل الذى عقدت به عيناها وفمها لشدة إحكامه.

كان الفارس يجرى بسرعة وكان صوت اصطكاك حافر جواده بالأحجار يطوى الوادى ، لم يكن يوجد أدنى مانع أمام هذا الجواد القوى السريع.

كانت لحظات الزمان تخف مسرعة أيضًا ، وانتبهت الابنة بالتدريج من صوت سنابك الجواد وبسبب العصابة والكمامة إلى أى مصير شؤم صارت أسيرة ، فكانت قد سمعت من أمها مصير بضع فتيات أخريات حدث لهن مثل ذلك فى القريب والبعيد.

لم تجد محاولاتها لإلقاء نفسها من ظهر الجواد على الأرض ؛ لأن هذا المختطف القاسى كان قد ربط من الوهلة الأولى قدميها برباط يمر بأسفل بطن الجواد.

ولما ابتعد الفارس عن العمران ، أنزل الابنة المسكينة من على ظهر الجواد وفك الغمامة والعصابة عن فمها وعينيها ، وما أن أخذت عيناها تعتاد الظلام حتى وجدت نفسها فى واد ضيق ومفزع ومرعب بين جدارين من الجبال وأمامها جثة تشبه الشيطان لرجل غريب عقد وجهه وفمه ، كانت تظهر حذاؤه الطويلة كأنهما عمودان فولاذيان ، وقد حمل

بندقية قصيرة على كتفه وامسك بيده سوطًا غليظًا صرخت الابنة وراحت فى بكاء وعويل أما من هذا الذى يسرع لنجدتها فى ذلك الوادى الخالى البعيد عن الطريق العام ، وجعل صوت عويلها وصراخها الفارس يهددها بالموت قائلاً :

لو ارتفع صوتها فسوف يقتلها فى مضيق الوادى ويحمل جسدها إلى الذئاب الضارية الجائعة ، فألقت بنفسها على قدم الفارس وأخذت تقبل التراب والحجر ، أردفها المختطف العنيف بسرعة خلفه على الجواد ، وقيد يديها إلى وسطها بحبل ، وعقد قدميها بحبل تحت بطن الجواد ، وغطى بشال أسود رأسها ، وانطلق فى طريقه مسرعًا.

صارت هذه الآنسة المنعمة البريئة كائنًا أسيرًا عاجزًا مقيد اليدين والقدمين ، كانت هذه المسافرة فى الديار غير المعلومة تبكى بحرقة ، لكنها لم تستطيع الحركة ، كانت كأنها حمل صغير سقط فى مقبض ذئب ضار أو كأنه فرخ حمام اختطفه من عشه عقاب جائع.

عقدت عيناها بشدة ، لم تكن تعرف ما هى وجهتها ، ولم تكن تدرى شروق الشمس أو غروبها ، وبما أن صوتًا لم يكن يبلغ مسامعها أدركت أنها تسير فى طريق قفر بعيد عن العمران كان الصوت ذو الرتم الواحد لحافر الجواد يضرب رأس البنت المسكينة كالمطرقة.

كان الظلام والوحشة والفزع تسود فى كل مكان ، لم تكن تشعر بشىء غير الفزع ويأس الظلام والإرهاق ، كان الفارس يتوقف فى إنصاف الليالى ساعتين أو أكثر ليطعم جواده ويهتم به وينزل صيده الجريح أيضًا لكى ينيمه على فراش من الأشواك والأحجار ويطعمه شيئًا

من الخبز ، وكانت المسكينة تجد فرصة لتحريك يديها وقدميها وتخفف آلامها وحين كانت عيناها تنظران إلى جمال السماء وتشاهدان النجوم ، كانت ذكرى السماء الزرقاء والشفاف لباميان تضرب قلبها كالخنجر.

أين أمهـــا الرحيمة لكى تضع مرهماً على جروحها وتمطر وجهها ورأسها بالقبلات ؟

أين أبوها الشجاع لكى ينتقم من هذا الحيوان الوحشى؟

أين السكان الودودون فى القرية وأين تلك الفتيات صاحباتها ؟

لا يعلم أحد كم انقضى من يوم فى هذا السفر المشئوم.

ذبلت المسكينة ونحفت وأعجزتها الحمى المحرقة والجوع والعطش وعدم النوم.

أزالت كثرة البثور والجروح الإحساس من الجزء الأسفل من جسدها وأعجز الحبل يديها وقدميها عن الحركة ، وفيما بقى من الرحلة كانت تغيب عن الوعى أحياناً وتسند رأسها إلى كتف عدوها .

وبعد مرور بضعة أيام وليال رأت فجأة نور مصباح فأخذت تفيق تدريجياً وتشعر بالراحة رأت بضع نساء حولها ، ظنت أن أمها بينهن فصرخت أمى ، أمى فركت عينيها لعلها كانت نائمة .

أخذت النساء فيما حولها ولكل منهن مصير يشبه مصيرها فى التسرية عنها وتسليتها ، وفى خلال عدة أيام انطفأت نار الحمى والتأمت الجراح وعادت بالتدريج إلى حالتها الأصلية ، لكن ما أن علمت أنها تبتعد بفراسخ عن منزل أمها حتى انخرطت فى بكاء وعويل.

رأت نفسها فى قلعة ناطحت أسوارها السماء ، كان كل شىء يبدو غريبًا فى نظرها : المبانى المنقوشة ، والمفروشات المتنوعة ، والورود غير المأنوسة الوجوه غــير الأليفة ، والأردية العجيبة ، والأطعمة المختلفة ، والألعاب والكلمات غير المفهومة ، أدركت بالتدريج أن هناك علاقات مختلفة ، هناك تتحكم علاقات العبد والجارية بالسيدة والسيد ، هناك آمر ومأمور .

كانت ترى أن للخطأ والصواب فى ذلك المكان معنى آخر وأن العقوبات أيضًا لها نظام مختلف،هناك الجارية والعبد بشر ؛ ولكن بشكل الآلات والأثاث الجامد كانت ترى هناك الإنسان قردًا لابد وأن يطأطىء رأسه دائمًا تعظيمًا ويقف منحنيًا ويحرس أحذية الآخرين ، ينصت دائمًا إلى الأوامر ، يفقد جوهرة عينه فى الدخان والنار فى المطبخ وأدواته ، يقف جائعًا مغلول اليد حتى تنتهى السفرة المتنوعة للطعام فى الإفطار والعشاء.

سماع السباب وتلقى الضربات والشد إلى الفلقة جزء لا يتجزأ من حياته ، سمعت المسكينة أن فى العهود القديمة فى دور الحريم هذه كم من الأجنة اسقطت بالعنف وكم من الأرواح أزهقت ، ولحسن الحظ فقلعة الأميرة هذه أكثر أمانًا وراحة من دور الحريم الأخرى ، وبعد بضعة أيام أدخلوا ذاك الظبى الصغير لمقابلة السيدة الكبرى الحاكمة لهذه القلعة ، كانت السيدة الكبرى قد استندت بضفيرتيها المخضبتين على وسادة حريرية بيضاء ، وكان يبدو ومن بعيد وهج الخواتم الذهبية والفصوص القيمة فى أصابعها المحناة.

وقفت جاريتان شابتان تلبسان سوارًا وتمسكان مروحتين من ذيل الثور الأسود باميرى لتطرد الذباب ، وقد تدلى شال أزرق على كتفها ووقف بضعة غلمان وجوارى شباب فى الناحية الأخرى من الايوان ، وقد انعقدت أيديهم انتظار الأوامر ، نظرت السيدة الكبرى بعينين ضاقتا وضعفتا بسبب الشيخوخة إلى البنت من أخمص قدميها إلى مفرق شعرها . كانت المسكينة ابنة أمير باميان ترى نفسها كأنها مجرم حملوه للعقاب.

كانت ترتعد من الخوف وأسنانها تصطك وكانت نظراتها مثبتة بالأرض.

بعد قليل من الصمت قالت السيدة بصوت متحشرج :

- إنها تساوى النقود التى دفعتها فيها .

أمرت بتنظيف رأسها وجسمها وتغيير ثيابها ، وحين علمت أنها على قدر قليل من التعليم ، أوصت الشيخ بأن يجد فى تعليمها .

وبما أنها كانت تبدو جميلة كما تبدو نجيبة الأصل ، فقد اعتبرت من بين خواص القلعة وكانت ما أدركته البنت فى غاية البساطة.

فبدلاً من أن يعاقب المختطف الشرير السفاح أعطوه مالاً واشتروا هذه الفتاة منه.

أى أنها جارية ومحرومة وأسيرة.

أى أن علاقتها بالدنيا انقطعت عند هذا الحد ولابد أن تظل بالقلعة حتى الموت أى أنها حرمت من رؤية والديها المحبين وباميان الجميلة والبنات صويحباتها .

لن تسعد بعد هذا بالنظر إلى السفوح الخضراء المغطاة بالثلوج وسماع نغمات الأمواج وضحكات القطا أى أنها بعد هذه الحياة وذاك السجن لن تتحقق أمنياتها بأن تموت فى باميان وتدفن فى مقابر القرية ، وتأتى أمها الحزينة لتبلل بدمعها قبرها كل يوم ويأتى أبوها الرحيم ليزين قبرها كل ربيع بالورود والأعشاب العطرية الربيعية لكن سجن هذه القلعة قبر تودع فيه منسية للأبد ، ولما وصلت قصتها لهذا الحد غص حلق جلتشهره بالبكاء وكانت على وشك الصراخ ، لكنها تنبهت بسرعة إلى أنها جالسة بالقرب من وسادة الأميرة وقد ارتفع صوت منامها الهانىء

اللوح الخشبى التذكارى

حين كـان قـربان يعـود إلى منزله فـى المسـاء كانت كل المتـاعب فى نهـاره تبرح ذاكـرته دفـعـة واحـدة،كان قـد تزوج حـديثًـا من خـورشـيـد ، مـضى مـا يقـرب من العـام وهو يحب خـورشـيـد كـانت المرة الأولى التى رآها فى المخـبـز ، كان قـربان صـبيًـا عند المعلم كـاظم حين كـان يتجـه للمخبز فى الصبـاح الباكر ويجلس خلف طاولة المخبز ، وحين كان المعلم كاظم يسـحب الأرغـفة من الفرن بالسـيخ ويلقى بها فـوق الطاولة ؛ كـان قـربان يلتـقطهـا من فـوق الطـاولة ويضـعـهـا أمـامـه وينتظر بضـع دقـائق ويكومـهـا فـوق بعضـهـا ، لو كان الزبائن مـوجودين فقد كان يحـمل الخبز بسرعة من فوق الطاولة ويضعها أمامهم ويحصل منهم النقود ويلقيها فى صندوق صغير وقديم موجود أمامه .

كـانت خـورشـيـد تأتى فـى الصـبـاح بالعـجين للمـخـبـز وتتـركـه ثم تنصـرف وبعد ذلك بسـاعـة كـانت تعـود ومـعـهـا لوح التسـجـيل الخـشـبى فيأخـذه منها ويسـجل فوقـه خطًا بالسكينة الكبيرة بعـدد قطعات الفـحـم ، وقـد تكرر هذا الفعل إلى حد أنه لم يعد مـكان فـوق اللوح لكى يكتب فـيـه كتابة جديدة فكانت خورشيد تعود بنفس اللوح ويأخذ قربان فى البـحث بدقة عن مكان فى أطرافه ويخط فيه بسكينة ، وحين كان يرفع رأسه من

فوق هذا اللوح كان ينشغل بسرعة بالزبائن الآخرين دون التفات إليها حتى ذلك اليوم بعد أن رفع قربان الأرغفة الساخنة ووضعها فى السلة وأراد أن يأخذ لوح التسجيل من يد خورشيد فوقع نظره فى نفس اللحظة على عينى خورشيد ، وتلاقت نظراتهما فى لحظة قصيرة احمر وجه خورشيد وأطرقت برأسها ومر شىء بقلب قربان فتتابعت أنفاسه ٠

وارتعدت يداه ، ذاك اليوم حين رفعت خورشيد سلة الخبز وانصرفت فكر قربان لحظة فيها ، فكر فى خورشيد وأن خديها المتوردين كانا مثل زهرة الخوخ ، وفى عينيها الشديدتى السواد ، فكان يقول فى نفسه : ليت المعلم كاظم لم يلحظنا ٠

كان المعلم كاظم يكره الجرأة وعدم الحياء ، كان يكره شيرجان ابن أخيه بسبب مثل هذه الجرأة وعدم الحياء ، وكان يعتبر قربان مثل أولاده ، لكنه كان دائمًا ما يقول : أفضل للمسلم أن يموت من أن ينظر بعين شريرة إلى أخت إنسان أو أمه ٠

وفى الأيام التالية عندما كانت تأتى خورشيد بالعجين ، لم يجرؤ قربان بسهولة على مد يده وتناول لوح التسجيل من يدها ، كانت يداه ترتعشان ، ويعتقد أن المعلم كاظم وجميع الزبائن ينظرون إليه ذاهلين ، ولم ترفع خورشيد نظرها عن الأرض حتى تنصرف ، كانت تتمنى النظر إلى قربان لكنها كانت تشعر بالخجل ، فحملت السلة وانطلقت مسرعة نحو منزلها ، ولم يجرؤ قربان على النظر إليها من الخلف ، وذات مرة نظر إليها من خلفها فرآها تحمل السلة بمشقة ، لكنها كانت تسير مستقيمة ومتزنة ، كانت مشيتها تشبه سير طائر القطا الملوك للمعلم

حيدر القهوجى ، تبدل حال قربان ، أدار فى عجلة وجهه فرأى خير محمد ينظر نحوها منتشياً فتمنى أن يلتقط حجراً من جانبه ويدق رأس خير محمد ، كان يكره خير محمد بشدة ، أما خير محمد فكان مجدر الوجه مشرداً ، وأمضى فى العام الماضى فترة سجيناً بقسم الشرطة.

كانت الأيام تمضى على نفس المنوال ، والحياة مليئة بالمتاعب والهموم لكن قربان لم يكن يمل السعى والمشقة ، كان ابناً للألم والكفاح فهو لم يعتد شيئاً غير ذلك ، فكانت الحياة رغم مصاعبها تمضى مقبولة واستطاع قربان أن يوفر لنفسه ولأمه العجوز وأخته حياة معقولة ، كان يدخر المال ويرسل مائة وخمسين روبية لأخيه حسين على الذى كان جندياً فى بدخشان ، لم يكن يدفع إيجار للمنزل فقد كانوا يعيشون فى منزل جارهم العريف ، وكانت أم قربان تعمل فى منزل العريف تغسل الملابس وتمسح وترعى أحياناً ابن العريف الصغير ، وكانت تسمى بالدادة سكينة.

ذات ليلة جلس قربان شارداً وأخذ ينظر إلى نقطة فى البساط الرث تحت قدمه ، كانت أخته نائمة وكان قربان شارداً كان يفكر فى الحياة وفى أعماله وفى المعلم كاظم وفى خير محمد المتشرد ، ويفكر أكثر فى خورشيد التى يشبه وجهها الرمان ، كم كان يتمنى أن يمتلك نقوداً ويشترى لخورشيد بعض الثيلاب ، كان يتمنى أن يلبس خورشيد جميع الملابس الجميلة فى العالم ، رفع رأسه دفعة واحدة وقال:

– نينة!

قطعت النينة سكينة الخيط بأسنانها وقالت : ماذا تريد يا قربان ، ولم يقل قربان شيئًا ولم تكرر النينة سكينة السؤال بدورها ، وعاود الشرود قربان فركز نظره على نقطة بالبساط ، نظرت العجوز بدهشة إليه فى هذه المرة وقالت : ماذا حدث يا قربان ؟ لماذا أنت شارد ؟ فسألها قربان هل تعرفين يا أمى هذه الفتاة التى تحضر العجين كل يوم إلى المخبز ؟ هل تعرفينها وهى التى تأتى من شارع فى اتجاه الشمال فضحكت العجوز بلا شعور وبرقت عيناها وقالت : ما هو الموضوع بالتحديد يا قربان؟

ذكر قربان بعض صفاتها جعلت العجوز تضحك حتى صاحت مرة واحدة فى سعادة وفرح :

– عرفتها ، عرفتها ، إنك تتحدث عن ابنة كلثوم ، وكلثوم دلاكة فى حمام نسائى وتعيش فى زقاق بشارع فى الشمال.

سعدت العجوز من اكتشافها ، ومن الصباح الباكر تهيأت ووصلت إلى الشارع الشمالى ، كانت تذهب إلى الحمام حينما تكون فارغة من الأعمال ؛ وتأخذ فى معاونة أم خورشيد فى تدليك وتنظيف حجرات انتظار النساء ، وحينما كانت ترى خورشيد تسمى الله وتنظر إليها بعين فاحصة حين كانت تعود إلى منزلها ؛ كانت تغلق بوابة بيتها الصغير من الداخل وتذهب لتنزل الصرة من فتحة بالجدار وتفك بأسنانها منديلاً انعقد بإحكام ووضع تحت الصرة ، كان بداخلها لفافة من الورق مربوطة من الداخل بخيط ، فتفتح العجوز اللفافة بدقة وتفك الخيط من

حولها وتخرج مزهوة ثلاث ورقات نقدية من فئة الخمسمائة روبية وخاتماً من العقيق وقرطاً من الفضة وتبتسم بشفتيها المجعدتين بسعادة تامة وتتراءى أمام ناظرها خورشيد ، وقد ارتدت ثياب العرس الخضراء وبجوارها قربان وقد ارتدى قميصاً وسروالاً جديدين ، وأمسك بمنديل زهر التفاح وما أن تسمع وقع أقدام أو تناديها زوجة العريف كانت تعقد اللفافة والمناديل بسرعة مرة ثانية وتضعها أسفل الصرة.

مضت الشهور وصارت النينة سكينة حماة ، كان جهاز خورشيد عبارة عن إناء ضخم من النحاس وقميصين منقوشين بالورود وأشياء أخرى أقل قيمة ، وإضافة إلى هذا كان هناك شيء آخر لفته خورشيد بقطعتين حريريتين صغيرتين وأتت به منذ اليوم لدخولها منزل قربان واحتفظت به فى فتحة بالجدار ، كانت النينة سكينة لا تسعها السعادة أملاً فى أنها سوف ترزق بعد بضعة شهور بأول حفيد لها ، تجملت الدنيا أكثر فى عين قربان حينما كان يودع المعلم كاظم فى المساء ، كان يحمل معه خبزاً وعنباً ويعود إلى منزله ويدق قلبه من السعادة ، كم هى الحياة جميلة ، خورشيد مثل الربيع الناضر ومزدهرة ومحبة ، وكان المعلم كاظم فى منزلة والده وكانت أمه فى غاية الشفقة.

أحياناً كان يتمنى أن يقبل يديها الخشنتين المجعدتين ، لكن الوالدة كانت ترفض هذا الفعل وتبعده عنها ، وكانت خورشيد تستغرق فى الضحك.

وفى أحد أيام الربيع كان قربان كعادته جالساً خلف طاولة المخبز سمع فجأة أصواتاً مهيبة مفزعة تتبعها أصوات ، كانت أصوات

الدبابات والمدافع والرشاشات ، كان الجميع ينظر أحدهم للآخر فى دهشة وحيرة ، وفى المخبز كان المعلم كاظم أكثر من الجميع اندهاشًا وحيرة ، كان يستمع بخوف ودقة إلى صوت الطلقات ، وقال وهو يشير بيده إلى نقطة ما:

– لا قدر الله يبدو وإن شيئًا ما قد حدث فى قصر الرئاسة.

علم الجميع فى عصر ذلك اليوم بما حدث ، لم يكن قربان يدرى ماذا يقول وإنما ظل حائرًا ، لكن المعلم كاظم أخذ يهز رأسه كل دقيقة وهو يقول : أيتها الدنيا الغادرة ! أيتها الدنيا الغادرة !

فى نفس تلك الأيام حين كان يريد المعلم كاظم أن يفتح مخبزه ذات يوم فى الصباح الباكر اقترب منه قربان ، وبعد السلام قال بثورة وحيرة : المعلم كاظم ! عزيزى المعلم! إن العريف صاحب منزلنا ارتقى بالأمس درجتين ، يقال إنه صار ملازمًا ، هز المعلم كاظم رأسه وقال : عجيب ، عجيب.

وامتزجت الحياة تدريجيًا بالخوف والرهبة والسوء ، كان المعلم خليفة يزداد تألمًا كل يوم ، لكنه كان يظل ساكنًا صامتًا حين كان يسمع أن الحكومة الجديدة كانت تسرق الناس من بيوتهم فى الليل كاللصوص وتقتلهم فيدق قلبه بشدة ، فيقول اللعنة عليكم أيها الكافرون ، هيأ الله الخير للمسلمين ، حين كان يختلى بقربان كان يقول : لقد حل الكفر وجاء الإلحاد ، سقطت الحكومة فى أيدى الكفار ، ذهب الوطن أدراج الرياح ، ثم يأخذ فى الحديث عن المجاهدين وهو يقول :

هؤلاء يضحون بأنفسهم فى سبيل الإسلام والوطن إنهم ليسوا مثل هؤلاء اتباع حزب خلق يطمعون فى شرف الشعب وأمواله ، هل تعرف يا قربان أنهم لا يرتكبون أى فعل دنئ قط ؟

وحين يسمع قربان هذا الكلام ينظر بانفعال وبفم مفتوح للمعلم كاظم ويشعر بسعادة ، كان يجسد صورة للمجاهدين فى عينيه وحيناً كان يضع نفسه مكانهم فيحمل على كتفه بندقية وقد استاق أمامه عشرين رجلاً خبيثًا من أعضاء حزب خلق الشيوعى.

كم كان يتمنى أن يصبح مجاهداً .

ذات ليلة ازداد كرهه لاتباع حزب خلق وعند منتصف الليل سمع صوت سيارة ، وعلم أن العريف صاحب المنزل قد أتى ، كان يأتى متأخرًا كل ليلة ، حينما كان يفتح البوابة كان يسمعه وهو يصيح عاليًا وضاحكًا وسعيداً ويقول لرفيقه:

- يكفى هذا الليلة ، قتلنا منهم خمسة وثلاثين والباقون يحين دورهم الليلة القادمة ، حين تعود قل لهم بأن يجمعوا جثثهم.

فى تلك اللحظة مر العريف بجوار قربان ، سمع قربان صوت أنفاسه واشتم رائحتها ، كانت رائحة الخمر تفوح من فمه.

وفى اليوم التالى ، قص على المعلم كاظم ما حدث بالليل ، ونظر كاظم إلى الأرض بغيظ وألم وسب وشتم ، ولما قال قربان إن الخمر كانت تفوح من فم العريف ، بصق كاظم على الأرض.

ذات يوم أرسل كاظم قربان إلى المدينة لكى يسترد دينه من حبيب الله تاجر الفاكهة عند سينما بامير وأن يأتى بثلاثة أجولة من الدقيق من بائع الدقيق ، كانت الأوضاع فى ذلك اليوم فى شارع ميوند وسينما بامير مختلفة ، كان الناس يقولون إن ثورة شبت ضد الحكومة ، كان قربان جاهلاً بمن قام بهذا الأمر ، لكنه كان سعيداً ، قال فى نفسه لعل مخبز المعلم قد انفتح ، لكنه لم يكد يبلغ سينما بامير حتى رأى الناس يجرون فى كل صوب ، وقف ولم يكن يدرى ماذا يفعل ، فى هذا الوقت تقدم نحوه رجلان كثاف الشارب كانا يمسكان بالبنادق ويتعقبهم بصنعة آخرون ، وفجأة أحاطوا جميعًا بقربان وراحوا يضربونه بقبضاتهم وأرجلهم وساقوه إلى السيارة ، انعقد لسان قربان ، لم يفق إلى نفسه إلا حين زجوا به داخل السيارة ورأى قربان أشخاصًا آخرين فى السيارة تحت قدميه وصدره : كان ثلاثة من الضباط المسلحين يجلسون على كرسى وكان الأشخاص مثل قربان قد تراكم بعضهم فوق بعض بداخل السيارة ، تحركت السيارة وكأنها كانت فى انتظار قربان.

أثناء الطريق كان كل من يتحرك منهم يشبعه الضباط بركلات محكمة قوية ، حتى لو أن السيارة هى التى حركت أحداً كان الضباط يضربونه ، وكانوا أحيانًا يضربون المحيطين بذلك الرجل الذى تحرك ويسبونه ويلعنون آبائهم وأمهاتهم ، وكانوا يتفوهون أيضًا بألفاظ الكفر.

وقفت خورشيد والنينة سكينة تنتظران فى مساء ذلك اليوم ، كانت زوجة العريف خائفة ورفعت صوت المذياع لتعرف ما الذى حدث حتى أعلن المذياع أشياء فرحت لها زوجة العريف وقالت : جميل جداً ، لقد

قبضوا على الأجانب ، كانت النينة سكينة مضطربة بسبب عدم رجوع قربان ، زال عنها بعض الخوف وشكرت الله فى نفسها لأن قربان ليس أجنبيًا .

لم يعد قربان تلك الليلة ولم يعد أيضًا فى الليالى التالية ، ذهبت خورشيد والنينة سكينة وهما تبكيان إلى المعلم كاظم لكنه لم يفعل شيئًا .

بكت النينة أمام زوجة العريف وقبلت يديها لكى يفعل سعادة العريف شيئًا لكنها سمعت فى اليوم التالى العريف يقول :

ليس بإمكان أحد أن يجد قربان بين المئات من الخونة والعملاء .

وجلست خورشيد تنتظر انتظارًا صامتًا يائسًا ، ومرت الأسابيع والأشهر ولم يعد قربان ، وذات يوم ذهبت وأخرجت تلك القماشة الذهبية المطوية من فتحة الجدار ، وفتحتها ببطء وقد امتلأت نظراتها عشقًا وألمًا ، نظرت إليها لحظة ، لكن الدمع حال بينها وبين رؤيتها بوضوح ، طأطأت رأسها وقبلت اللوح الخشبى الذى كان يمتلئ كل موضع فيه بالخطوط وراحت تهمس والبكاء يمنع همسها وهى تقول : أحرق الله قلوبهم ، خرب الله بيوتهم

ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا لم يعد غير هذا اللوح الخشبى التذكارى مؤنسًا لقلب خورشيد .

شق الجدار

كان الجو بين الظلمة والنور وقد نام بضعة من الديوك والدجاجات البيضاء والسوداء على درجة واحدة من درجات السلم ، وأخذت قطة سوداء مملة ومحزنة في المواء فكانت تحطم زجاج الصمت المطبق الثقيل ، ورفع حبيب وقد أتى لتوه من عمله دلو ماء من البئر وغسل منه يديه ووجهه ، وقد وقفت أمه على الجانب الآخر كالتمثال مذهولة مبهوتة ولم تكن تنتبه إلى شيء كما هي عادتها . ناداها حبيب : أمي ، فأجابت أمه بلا وعي : نعم يا عزيزي.

سألها حبيب: ماذا لدينا هذه الليلة ؟

فأعادت أمه الجواب بلا وعي : نعم روح أمك

فاشتكى حبيب مستعملاً الكناية (أمي أسألك عن القرية فتخبريني عن الشجر !)

فلم تجر أمه جوابًا كأنها لم تسمع شيئًا

ناداها حبيب بشيء من العتاب : أمي العزيزة !

تحركت الأم وتمزق حرير ذهولها كأنها قفزت من نوم عميق وسألته :

– هه ، هه ماذا تقول يا عزيزى ؟

أدرك حبيب أن أمه تعيش حالة وجواً مختلفين فاقترب إليها وسألها :

– أمى أى مصيبة حلت ، ماذا سقط وماذا تحطم حتى جعلك لا تتكلمين ؟

ولكى تقول الأم شيئًا صاحت مباشرة حين وقعت عيناها على الهلال الشاحب الظاهر من بين فروع شجرة التوت الوحيدة وسط فناء الدار (هيا يا حبيب يا عزيزى هات الماء !)

أسرع حبيب نحو المطبخ وأتى إليها ماءً نظيفًا فى قدح . رأى أمه قد أغمضت عينيها تمامًا ولا تود أن ترى أحدًا ؛ فصاح حبيب حائرًا : خذى يا أمى الماء فقد أحضرته.

نظفت الأم القدح من الخارج بأصابعها ثم رفعته بيديها ، ثم فتحت عينيها ورأت الماء الزلال وتمتمت بدعواها وفى هذه الأثناء حين رفع المؤذن صوته بالآذان ، نظرت أم حبيب إلى كفى يديها وقرأت كلمة الشهادة وقالت : (عزيزى حبيب ، فتحت طالعك ورأيت صورتك فى الماء فظهر لى أن الله سوف يعطيك العمر المديد والرزق ويبلغك مرادك)

ثم ضغطت بعد ذلك على رأس ولدها ومسحت شعره بيدها لكنها صاحت شبه صارخة ، ولم تنتظر لكى ترى شعرة بيضاء واحدة نمت فى

أحد جوانب رأس حبيب قائلة : (واألماه يا ولدى فقد صرت شيخًا بدون زوجـــة ولا أولاد ولا نعيم ولا متاع ، يا ويلى)

فقال حبيب:لا قدر الله يا أمى ماذا حدث ؟

فأجابت أمه : ابيضت رأسك مثل رأس أمك فهل يا ربى حل وقت مشيبك ؟

رفع حبيب رأسه وانهض أمه من كتفيها بيديه – وكانت أقصر منه قامة بحد كبير – وقال بافتخار :(أمى إن شعرى لم يبيض فى عملى فى الطاحونة من استيقاظى مبكرًا ودخان المصباح ولا يكون الرجل رجلاً إلا إذا ابيض شعره مبكرًا)

فقالت أمه (أنا فاهمة كلامك يا ولدى ، الحمد لله أنك رجل . لما رأيت أنا شعرًا أبيض برأسى لأول مرة بكيت)

تحرك حبيب وأدار ظهره لأمه وتقدم خطوات وضغطت عقدة مُرة على جذور عنقه أراد الصراخ والبكاء لكنه تحامل على نفسه حياءً وتذكر قول الشاعر الآتى وواسى به نفسه :

لم يعطنى الفلك شعرى الأبيض   بل إننى اشتريته بنقود شبابى

لكن الأم استقبلت هذا الشعر بابتسام كأنها قرأت كف يد حبيب وهى تعلم أنه تظاهر بأنه أكبر سنًا مما هو عليه افتخارًا وتباهيًا . سكت الاثنان ... فلو زاد فى حديثهما شيئًا فلعل سترًا يسقط عن

السر وتقوم مناحة · غير حبيب الموضوع الذى كان باعثًا للهم والألم وقال :(قولى يا أمى الآن كلامًا آخر وغيرى الموضوع !)

فقالت أمه : (أى كلام أحادثك فيه يا بنى ، لقد تمزقنا يا بنى وأنا طائر أعمى ، طائر أعمى وثائر) وفى هذه الحالة ارتفعت أصوات الموسيقى والطبل والغناء من دار الجيران ؟ ففى الجانب الآخر من جدار منزلهما أقيم حفل عرس بنت الجيران ؟ بنت الجيران التى أحبها حبيب ولم يذع قصة حبه لأحد · أشار حبيب إلى منزل جيرانه سائلاً : (ماذا يجرى يا أمى ؟) فأجابت : (لم يخبرونا بأى خبر عن زفاف ليلى ؟ إنهم لا يتصلون أو يختلطون بنا) ·

شحب لون وجه حبيب ، كأنه جير أبيض وقال لنفسه : (لا كلام ولا سلام ، وما شأننا بزفاف ليلى) ، لكن أمه لم تنتبه له وعادت هى إلى ماضيها ، إلى الأيام السالفة التى تأتى إلى ذاكرتها شيئًا فشيئًا إلى نحو خمس وأربعين عامًا خلت ، إلى تذكر خطبتها ، إلى أيام الصبا والمرح حين كان زوجها يتردد على منزل والديها ويتمنى أن يقبلاه زوجًا لابنتهما ، لقد رن فى أذنها وطن أصوات الموسيقى والطبل والطار فى تلك الأيام البعيدة وكانت هذه الموسيقى تتقدمها وهى تسير ومعها عريسها فى الزفة حين دار أهل عريسها بعروسهم الجميلة بأرجاء المدينة ، وكان عدد عظيم من الرجال والنساء والأطفال يشايعونها وهم يركبون العربات القديمة والجديدة حتى دار سعادتها ·

مرت الأيام الماضية لحظة فى ذاكرتها وتذكرت أول مرة خطت بها بقدمها عتبة باب منزل عريسها وكيف أنها تجاوزت الباب سعيدة تملؤها الفرحة ودخلت قلعة كانت تعتقد أنها منزل مرادها ودار سعادتها ·

ازدادت الجلبة خلف الجدار فانتبهت الأم وولدها إلى نفسيهما ، وأخذ المطرب يغنى أغنية قديمة بصوت رخيم عـــذب ومطـــلعها (حبيبتى إن قوامك اللطيف يشبه الورد) ، فالتفتت الأم إلى ابنها قائلة :

كانوا قديمًا يا بنى يغنون عن الحبيب أغنية تقول :

اذكرونى يا أخوتى وأخواتى

واصنعوا نعشى من خشب البقْس

واحملوا نعشى خطوة بعد خطوة

وضعوه على التراب الأسود واصرخوا

فسألها حبيب : ثم ماذا بعد ؟

فأجابت الأم بضحكة مرة : كانوا يغنون بعد ذاك :

حبيبتى إن قوامك اللطيف يشبه الورد

فتقدم أيها الحبيب القمرى وأنر علينا

قال حبيب : عجيبة هذه الدنيا

قالت أمه : انظر يا بنى إن الأمور جرى بها قلم التقدير ، والقلم الأسود صنع القدر الأسود والزفاف أحيانًا يكون له أول ولا يكون له آخر.

فقال حبيب : صدقت يا أمى ؟ حقًا إن صوت الطبل أحسن حين يكون من بعيد

وإذ ذاك تذكر والده ؛ تذكر والده الذى ألقى رادًا على سلامه سلامًا باردًا نحو أربع مرات فقط قابله فى الشارع أو فى الميدان ، ونظر إلى يدى أمه المضارتين ، يدى أمه التى كانت أطعمت ابنها طول عمرها وهى تحيك له ملابسه وتمسح وتطبخ وتغسل حتى لا يشعر بنقص لعدم وجود أبيه أو بمتاعب زوجة أبيه . أحس بشديد الاستياء بسبب إهانتها وتحقيرها فحك جبينه بأسفل الجدار كأنه سقط من فرط عجز ضراعته وحقارته . كانت أمه تبكى هى الأخرى لم يحب حبيب أن يلوث بكلماته الواهنة جلال آلامها أو أن يمنع دموعها . كان يعتقد أن هذه الدموع هى ميراث قيم نفيس تراكم من آلاف النساء المظلومات اللاتى سقطن كالورد الذى لا ثمن له بأيدى جنون الرجال ولابد أن تجل أمه هذا الميراث وتقدره.

سمع أصوات زغردة النساء حين يحملن العروس إلى حجرة دخلتها ، ثار طوفان فى قلبه واشتعلت فى سائر جسده نار حسرة أخر لقاء له بها كان يتحرق شوقًا إلى أن يمتع ناظريه برؤية ليلى ؛ لكن هناك جدارًا كأنه سد الإسكندر شيد من الطوب والحجر كان يحجز بينهما . ناح وبكى فى نفسه ، كم مرة يموت فيها المجنون خلف جدار حبيبته بينما تتبختر ليلى إلى صدر آخر بدون أن تفكر فيه !

ضرب رأسه بشدة بالجدار وخمش بأظافره القش وسط الطوب لكنه لم تهدأ ثائرته ؛ أدرك أن الدنيا لا تساوى متاعبها وأنها ليست إلا هباء منبثًا ، وقع نظره على ساق شجرة ضخمة ووجدها مناسبة لكى يشنق عليها نفسه ؛ لكن أمه نادته باضطراب وكانت تعرف أن هناك شقًا عميقًا بالجدار يبدأ من أسفله وينتهى إلى أعلاه : (حبيب ، حبيب ابتعد يا حبيبى عن الجدار المشقوق لأنه يهتز !)

فتراجع حبيب حائرًا هائجًا وابتعد عن الجدار ما استطاع.

حين يُزهر البوص

كانت المطارق الحديدية للحدادين تهوى دائمًا وبلا سابق انذار على رءوس الحديد الملتهب فكان الشرريتطاير مع كل طرقة ويتحول الحديد غير المشكل إلى حديد مشكل ، كانت أصوات الطرقات المتتابعة على الحديد وصرخات السندانات تشق كبد الحوارى الطويلة والبعيدة من الصباح إلى المساء وتقطع مرارة السكوت والصمت فى نهاية الأزقة المتلوية والحوارى المظلمة المسدودة وتنشر أهازيج الرجال الحديدية ، كانت دماء الحياة تسرى فى شرايين الحارة بهذه الأصوات فتجد الأبواب والجدران حرارة الحياة.

كانت الحدادة بحارة الأبطال ، وهى حارة الكيران المحترقة ومواقد النار الملتهبة وحارة الأفران المشتعلة التى كانت تحمى بحرارة أجساد الحدادين والحديد وتصقل مادة كل شىء ، وكان صبية الحدادين يمتلئون صخبًا مثل حارتهم إذا كانت تتخلل الآذان صخب حارتهم حيثما كان يسمع من أول (شور بـازار) أو بـآخر (تحفـة بل) أو بمنتصـف (سراجى) و (تشوك) و(بابين تشوك) و (بيزار دوزا) . لقد تعود أولاد الحدادة على هذه الأصوات منذ المهد ، وكانت ترن بآذانهم أصوات

طرق الحديد وكأنها الأغنية التى تجلب النوم حين يسمعونها بآذانهم الصغيرة من أمهاتهم.

كانت الوجوه المحترقة من حرارة المواقد والأيدى السوداء التى تفيض بالبركة والأصوات الناضجة الصادقة الدالة على الكبار والشباب من الحدادين دليلاً على الأبطال الذين كأنهم وصلوا النضج من إلتواء الحديد المذاب.

كان (كاكا) أو البطل الشجاع واسمه (كاكا أكبر) أو البطل الأكبر يصنع السيوف ، سيوف حادة وماضية كانت زينة قامة الرجال الأقوياء المحاربين (نفس هؤلاء الرجال الذين كانوا يقاتلون الفرنجة من زقاق إلى آخر ، ويقيمون منارات من جماجمهم) ، كان رجل تصوف ومناجاة ، وكان الجميع يحبونه من أول شيخ المسجد حتى الشيخ الصوفى حتى القائمين على أضرحة العشاق والعارفين وتكايا زقاقى (بابا خودى) و (على رضا خان) ، وكانوا يعلمون أن كاكا هو الوجه النضر لعالم الدين.

وأحد أيام الفراغ المباغت من العمل كان يسير بطريقه حين رأى السوق وقد ثار واضطرب ووجد السوقة حيارى مشتتين فعلم سبب الهيجان لكنه لم يحول طريقه ولم يول دبره ، وبعد لحظة وصل الأمير الماجن الداعر الذى كان يستطلع محارم الناس ويتصفح وجوه نسائهم وبناتهم فى كوكبة من رفاقه وغلمانه الصبيان الطائشين ؛ فلم يجد فى الزقاق غير كاكا أكبر : سأل أحد هذه الجماعة – وكان أكثر حقداً ونقمة وحسداً على كاكا من غيره – رفاقه بسخرية:

- من هذا الفرخ بدوره ؟ فأجابه أحدهم:

- هذا الفرخ هو طير البغاث الحقير . وضحك ثالث بقوله:

- صدقت إن مكانه هو الفت تحت الأرز والثريد : وضحكوا جميعًا ، ووقف وهو وحده أمام هذا الجمع المتجمع ولم يكن معه أحد ، وسأل بلا خوف ووجل :

- ما هذا الكلام ؟ ما سبب ضحككم أيها الأطفال الأغرار؟

فأجاب الأمير ابن الحاكم ضاحكًا : إن رائحته هى رائحة طعام اللحم المفروم وكأن رأسه تفوح منه رائحة طعام اللحم المفروم ، فقال كاكا : إن كانت رأس فهى رأسك يا بن الحاكم.

وهجم عليه ابن الحاكم بلا تمهل لكنه جعل يدور حول نفسه فى لمح البصر كأنه قشة ثم أنزله من ظهر حصانه دفعة واحدة ، وكان رفاق ابن الحاكم الوضعاء يريدون مهاجمته بسيوفهم المشهرة الحادة وإزهاق روحه وفصل عنقه ؛ لكن الأمير ناداهم بقوله:

- اتركوه إن رأسه لا تساوى شيئًا .

كان ابن الحاكم أريبًا يتدبر العواقب فما أن وطأت قدماه الأرض وبدون أن يدير ظهره قبل وجه كاكا أكبر وقال : حقيقة أنك بطل أفضل من مائة ألف !

وكانت هذه الواقعة دافعًا لابن الحاكم لكى يصاحب كاكا أكبر ويحوز حبه بكل ما وسعته الحيلة والمكيدة صار الاثنان كأنهما أخوان من هذا الوقت ، وكان (أكبر) يخاطر بحياته فى حوادث كثيرة لكى

ينقذ حياة ذاك الشاب الشرير المغامر ويوفى حقوق الصداقة ، وكان ابن الحاكم يسمى كاكا أكبر (الولد القوى) وكان أكبر يسميه (ابن الحاكم) أو (ولد النينة) على سبيل الكناية.

ثم اتفق أن اشتبك ابن الحاكم وكان متعطشًا للحكم والدم مع أعمامه وأولادهم وهام على وجهه فى الصحراء والبيداء ، وانقطع حبل صداقته مع كاكا فترة إلى أن تلألأت ثانية نجمة حظ ابن الحاكم وهبت عليه نسائم المجد والسلطة ، لكن أكبر ظل مقيمًا فى مقامه فى محله بجوار الكيران المشتعلة التى منها يتطاير الشرر.

كان بمجرد أن يقفل محله يرتدى حذاءه القديم البالى ويتعمم بعمامته الحريرية الشفافة التى يتدلى طرفاها حتى صدره ويتجه إلى قهوة (دينوى) القهوجى على طريق (تخته بل) ، ثم يصيح بلا سبب (ابن الحاكم قبر يلمه) كل بضع خطوات ويبصق بعدها على الأرض ، كانت هذه عادته عادة قديمة من أوائل شبابه حين كان صديقًا لابن الحاكم . كان يجلس فى صدر المقهى فوق سرير ناعم خشبى ويتجاذب أطراف الحديث مع اللاعبين بالطيور والقمار والحمام عن الطيور والسمك والسماء والأرض وكل شيء ويرتشف من كوب شايه الكبير لحظة بعد لحظة ، وحين يكون سعيداً كان يأخذ فى دق قدحه ببطء بالغلاية الكبيرة للشاى ، ثم ينبه الآخرين بقرع مقبول على صينيه الشاى إلى وجوب السكوت والإنصات إليه ، وإذا ذاك لم يكن ينبس الأبطال الآخرون ببنت شفه كأنهم فئران ميتة ؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه إذا حضر أكبر لم يعد لهم الحضور وضربة واحدة منه تغنى عن مائة ضربة حدادة منهم.

في مثل هذا الصمت المطبق كان يؤدى الكلام وإزجاء القصص .

وفى ليلة خالية من صخب حدادى كابل وخالية من أصوات طرقات حديدهم واحتراق كيرانهم ومواقدهم ؛ استدعى ابن الحاكم الذى صارحاكم كابل فى وقته وخليفة أبيه نديمة الخاص ليقول له بدقة واتزان : (فى تخته بل يوجد مقهى هو محل لقاء أبطال كابل وفتواتها وجلساتهم وأحاديثهم هناك كثير منهم لكن آخر من يدخل المقهى منهم حداد اسمه أكبر. كان صديقى منذ سنوات سابقة ورفيق عهد طفولتى ، إنه لا يخشى الأسد ، وسليط اللسان ، قبل أن يبدأ كلامه يصيح : ابن الحاكم قبر يلمه ، وهذه هى عادته وورد لسانه وهى دعاؤه علىّ فلا تعاقبه على ذلك . علاوة على أنه إذا دخل المقهى لزم جميع الفتوات والأبطال الصمت والسكوت المطبق وقبل أن يلقى السلام يبصق على الأرض ويصيح : قاتلنى الله ، قاتلنى الله فأنا حاكم عليكم حاكم للجبال السبعة والبحار السبعة)

ويحير (شاغاسى) ويفغر فاه فيقول له الأمير : لا تأخذك الحيرة إنه الوحيد فى هذا العالم الذى لا يرهب الموت ؛ ولهذا فإن قوته عالية أعلى من القمر).

فيطلب شاغاسى أولاً الأمان بتواضع وإجلال عظيمين ثم يستأذن للسؤال ، فيقول الأمير :

قل ما تريد قوله ، فيقبل شاغاسى أرض الطاعة ويسأل : بلا شك فإن أمر الأمير هو أن أفصل رأسه عن جسده ؟

- لا تفعل هذا أيها الأحمق ، إن قتله ليس سهلاً . إن الشعب يحبه ، فإذا نقصت شعرة من رأسه قاموا بالثورة وحدثت المصائب ووقفوا إلى جانبه ، ولكن قل له بأدب إن صاحبك ابن الحاكم بعد أن يقرئك السلام أن تأتى إليه فى الحال لأنه بحاجة إليك.

وينصاع شاغاسى للأمر وفى عصر اليوم التالى يجد فى مقهى (دينوى القهوجى) كاكا أكبر وكان يفوق الجميع ضخامة فى رأسه وعنقه ويبلغه فى رفق رسالة الحاكم ، فيقهقه أكبر ضاحكًا كأنه طير قطا مقاتلة تغلبت على قرينتها ويقول :

- ماذا ، عجيب ، حسنًا ، ابن الحاكم ، ابن النينة يريدنى ؟ قبر يلمه ، أين هو ، ما مكانه ماذا تقول قل ثانية ؟

فيعيد شاغاسى برفق الرسالة ويقول : الله أعلم لديه أمر ضرورى ، أمر صعب وخصوصى .

فيهرش كاكا رأسه ويقول :

- هه ، هه ، تفو ، لعنة الله عليه ، هذه هى عادته كان خسيساً من بداية أمره.

لا يرد السلام بل يقول : حسنًا ، قل له إن كاكا آت لكى يخلصك من المصيدة.

وفى الصباح الباكر بلا كلام يتجه إلى (باغ بالا) بدل محله ويصيح بلا خوف ووجل من وراء سور القصر : يا بن الحاكم ، يا آكل الأرز ، أنا جاهز ، ماذا تقول ؟

ويسمح له البوابون وكانوا على علم بالأمر بالدخول بلا تمهل للقاء الحاكم ، ويدخل كاكا بنفس حذائه البالي وعمامته بجلبة وضوضاء إلى القاعة المكسوة جدرانها بالمرايا ويصيح مقهقهاً :

– حسنًا يا بن الحاكم ماذا حدث حتى تذكرتنا ٠ جئنا الآن فتكلم ؛ ويسرع الحاكم من مكان بعيد ويحتضن كاكا أكبر ويقبله ، ويجلس الاثنان كما كانا قديمًا متجاورين ويحكي كل منهم للآخر خصوصياته ٠ ويبرق النظر شاغاسى إليهما من خلال شق بالستارة ويحير فى احترام الأمير وافتخار كاكا ، وبعد ذلك يتساران هذا الاثنان معًا ولايسمح شاغاسى شيئًا ، ووقت الوداع يبدو الحاكم وكاكا كلاهما حائرين ويخاطب الحاكم شاغاسى:

– اصطحب كاكا وأعد له فرسه ثم أملأ خُرْجى فرسه بالذهب ، الذهب الخالص لأن وراءه سفرًا ، سفرًا قاصيًا نائيًا ٠

– ويترك كاكا الحاكم ويسلك طريق العودة فى حارة الحدادين ٠ يشرد ويسرح فكره طوال الطريق كأن عمامته تضغط على رأسه فتجعله يطأطىء عنقه ، إنه يفكر فى أمر غامض ٠ لايستلفت نظره أدنى شىء وهو فى طريقه من مرتفع (باغبالا) حتى (باغ شهر آرا) و (جهان أرا) و (بوستان سراى) لكنه ما إن يصل شاطىء البحر وتتخلل أذنيه أصوات الأمواج وتمزق شروده ٠ يتمعن فى مجرى النهر المياه السكرى المختلط بالطين التى تضيق ذرعًا بحضن مجراها غير المناسب وتبحث عن اتساع أرحب٠

وتصل سمعه صخب المياه من تحت جسر (بل جذرجاه) وهو أقدم جسرخشتى ومن تحت جسر بُل مستان وهو مكان قواعد الرجال ، ومن تحت جسر بل خشتى ؛ وهو أقدم تذكار للمهندسين الأصفياء الذين كانوا يعقدون الجسور ويربطون الطرق للعامة والخاصة فتزيل عن قلبه الأوشاب والصدأ . بقى كاكا ساعة على مقعده الهنئ جالسًا لا يعبأ بشيء كأنه أحد الجمال الهائجة التى ترغد وتزيد بالرغو الأبيض .

كان كاكا يعشق البحر من وقت بعيد منذ العهد الذى كانت أصوات البحر العذبة والهادرة تخالط الأنفاس الحارة لشيخه خطيب مسجد (بل خشتى) رحمة الله ، ويجعل هذا المزيج طعم غزليات حافظ وسعدى العذبة أكثر عذوبة ، كان يجلس دائمًا فى أيام الصيف حين يجف بحر كابل بجوار مقهى دينوى ويسمع إلى خرير مائة القليل ويتذكر الربيع والأمواج المجنونة كان عالم كاكا هو البحر فى ثوراته الصاخبة وفى دواماته المرعبة فى ألحانه وقصصه الشجية المثيرة وفى فيضاناته السوداء التى تخرب البيوت ، كان البحر يناديه كأنه صاحبه ويبلغ من بعيد صوته إلى مسامعه من وقت الصبا حين كان يلعب على شاطئه بالرمل والطين.

وأواخر الربيع ما أن يبدأ البحر فى الهيجان فكان يخلع حذاءه ويضع صدره العريض والصافى تحت تصرف التيار المعتدل للماء وكان يخالط الأمواج من تحت جسر (بل خشتى) حتى (بل محمود) بخفة وبلا تفكير كأنه جزء من البحر.

يسمع الآن قصص البحر كأنه يجلس بجوار رفيق مقرب يصغى إليه ، قصص الأمواج التى أمامها سفر طويل ، يفكر فى الصيف وجفاف مجراه ثم يفكر فى نفسه وهو الذى أمامه سفر طويل ، ينهض من مكانه ، ويسير صوب داره وما أن يصلها حتى يتنفس ويخاطب زوجته.

يا أم لطيف !

فتجيبه زوجته : ماذا تريد ؟

فيقول كاكا : لابد من القيام بسفر

فتسأله زوجته : إلى أين ؟

فيجيب كاكا : بلاد البنغال

فتسأله زوجته : بلاد البنغال ؟!

فيجيبها : نعم بلاد البنغال.

فتسأله : وأين هى ؟

فيجيبها : خلف الجبال

فتسأله : خلف الجبال ؟

فيجيبها : نعم خلف الجبال.

فتقول زوجته فى نفسها : يا ويلتاه ! لا يقول كاكا شيئًا فى الماضى حين كانت زوجته تتفوه بمثل هذه الكلمة كان يغضب منها ويزمجر

غاضبًا ويلزم زوجته بالصمت ، لكنه لم يقل هذه المرة شيئًا ويسأله ابنه لطيف ذو الأربع سنوات:

- ما هى الجبال التى ستطويها يا أبى فى سفرك ؟

فيجيب أبوه مشيراً إلى جبل عال بعيد : نفس ذاك الجبل ·

فيسأله لطيف : هذا الجبل الذى تسافر وراءه الشمس والقمر؟

فيجيبه أبوه : نعم نفس هذا الجبل

وتشق عينا زوجته طريقها إلى ذاك الجبل · غابت قمة الجبل فى ركام السحاب والغبار واختفى طرفه البعيد فتقول : يا لطيف أبوك سوف يسافر إلى ذاك المكان يقال إن هذا المكان يعج بالذئاب والدببة التى تأكل الإنسان وبها الأسود ، الأسود الضارية المفترسة أبوك يا لطيف يريد السفر فى ذاك الجبل وحيداً بلا رفيق ومعين غير جواده وسرجه وخرجيه آه ، آه ، وتلسع الدموع أم لطيف من منبت أهدابها وتمتلىء حدقتاها وتنظر إلى زوجها بعينين دامعتين ؛ فيصيح أبو لطيف : هذه المرأة ما سبب بكائها ؟ ألا تستحى ؟

وتصمت أم لطيف ، فيمسح بيده اليمنى على فخذها ويلاطفها ، ثم يجلس لطيف على ركبته ويلاطف بيده الضخمة شعر ابنه الناعم·

ويصدر لطيف صوتًا رقيقًا كقطة صغيرة مدللة ويهدأ ويتوقف عن الكلام فيتوجه الرجل إلى زوجته:

– يا أم لطيف إن بكاءك يزعج الولد ويضعفه ، لابد أن يظل لطيف حيًا بعدنا ، ولابد أن يولد لطيف آخر من لطيف ابنك · لابد أن يكون لنا حفيد ، والدنيا بدون كاكا لا طعم لها ، وما دام كاكا في الدنيا فلا تحملي همًا ما دمت حية·

فتنظف زوجته دموعها بطرف عباءتها وتقول :

– إن قلبي يختلع بصدري بسبب هذا السفر

فيضحك كاكا ويقول : قلبك مثل قلب العصفور الصغير

فتقول أم لطيف : صدقت

وفي الصباح الباكر وقبل استيقاظ الطيور والناس ينهض (كاكا) ويطبع قبلة على جبين لطيف وأم لطيف ويعقد بخاصرته صرة الفطير المعد بالدهون الذي أعدته له زوجته منذ الليلة البارحة ويعتلي ظهر جواده وبدون أن يعلم أحد وجهته ومراده ومطلبه يطوى الميادين والسهول والقفار ، ويختفي عن الأنظار ويسافر خلف الجبال نفس الجبال التي رأتها أم لطيف في منامها وتمتلىء بالذئاب والنمور ، نفس الجبال التي قال لطيف عنها إن الشمس والقمر ينامان خلفها وتقع دنيا أخرى في ناحيتها الأبعد· اختفى كاكا أكبر شيئًا فشيئًا كأنه ذهب يبحث عن شيء لا يوجد أصلاً في بلاد غير معروفة ، صار جزءًا من قصص العفاريت والجن ، نفس القصص التي لا زالت موجودة بين معتقدات القدماء وفي أحاديثهم وأخذ الناس يشيعون : ذهب أكبر إلى جبل قاف في الطرف

الآخر من الدنيا بين العفاريت والجن بين العفاريت التى بضخامة الجبال والعفاريت التى بهيئة القمر سعد الأعداء وحزن الأحباء.

صار مقهى (تخته بل) مجالاً للافتخار والادعاء والهراء للأبطال الخاملى الذكر والصفة ، وكل منهم كان يقول : أنا البطل الأكبر أنا كاكا الأكبر ، لكن دينوى القهوجى يصيح :

- اخرسوا ، إن مكان أكبر خال ، أكبر رجل الرجال ، أكبر لا يعدله أحد.

أخذ الحدادون سكان الحارة السوداء المحترقة الساذجون حين عدموا الرئيس والكبير يقصون القصص بشوق بجوار الكيران ، كان أحدهم يقول : ذهب أكبر لقتال العفاريت والجن ومصارعة الجن اللابسين للصوف والعفاريت السحرة ، لكن أكبرهم سنًا كان يقول :

- كان أكبر عدو الأخساء الوضعاء فلابد أنهم سحروه ، رأيته فى منامى فى جب أسود عميق ومن قفص حديدى وهو يتضور عطشًا وجوعًا ، وقد صار عظمًا على جلد.

فيتأوه آخر ويضغط أقلهم سنًا على قبضة سكين كانت لا تزال فى الكور محمرة ملتهبة ويقول :

- لو يقولون أين مكانه ، مكانه الحقيقى لذهبت أبحث عنه ويصمت الجميع ، لكن أم لطيف هذه الزوجة الطيبة الجميلة أثناء نوم لطيف تربت برفق على ظهر ولدها وتحيى ذكرى زوجها فى أغانيها له ضمن الأغانى التى حفظتها عن والدتها ، تغنى قائلة :

- نم نم يا طفلى يا حبيبى ، نم يا حبيبى البهى الطلعة فى مهدك مهدك المطلى بالذهب واللؤلؤ يتناثر فى أرجائه.

وما أن يصحو لطيف فى الصباح حتى ينادى:

- أبى ! أبى الحبيب؟ هل لم يأت أبى ؟

فتجيبه أمه : لم يأت يا بنى

فيسألها لطيف : متى سيأتى ؟

فتجيبه أمه باكية : لا أدرى هل غدا أم بعد غد أم الشهر القادم أم العام القادم أو وقت أن يُزهر البوص.

فيسألها لطيف : أمى متى يزهر البوص ؟

فتجيبه أمه بحزن : حين يأتى أبوك

ثم تأخذ فى النحيب والعويل ويغضب لطيف ويقول :

- أمى ألم يقل أبى إن البكاء سئ ، لا تبكى فسوف يقتل أبى الأسود وسوف يقضى أبى على الذئاب ، ثم يعود.

وتنظف أمه بطرف ثوبها دمعها وتقول :

- إن شاء الله بلا خوف وخطر وبخير وسلامة

أخذت الأيام تأتى وتمضى لكن أكبر لم يأت ، كان القمر يصغر ويكبر ويسافر إلى خلف الجبال ، ولكن أكبر لم يأت من خلف الجبال.

كان اسم أكبر آخذاً فى التوارى فى المدينة واللحوق بالأساطير ، لكن أم لطيف بدون أدنى تعب ظلت تنتظر وقع سير زوجها بحذائه البالى وتصغى من الصباح إلى المساء إلى الأصوات خلف الباب لعلها تسمع سعال زوجها أو طرقات حلقة البوابة فتفتح وهى عجلى السلسلة له ٠

مرت سنة وانفتح طريق الجبال والهضاب ورنت أجراس القوافل فى أذن الصحارى والسهول ثم وصلت فى نهاية إلى المدينة ، لكن أكبر لم يكن معتليًا فرسًا أو بغلاً ٠ ذهب أكبر إلى حيث ذهب يبحث عما لا يوجد أصلاً عن الدجاجة التى تبيض ذهب أو الطائر الذهبى أو ياقوت النجف أو ماء الحياة والخلود أو الإكسير النادر الذى يحيل النحاس الأحمر إلى ذهب خالص٠

لا يعرف أحد أين ذهب غير حاكم العصر الكسول كان يتذكر أكبر حين كان يسترخى كنمر وهو بداخل قميصة الحريرى ، يتذكر أكبر لأنه هو وحده – والله – الذى كان يعلم أين أكبر وعم يبحث٠

حتى مضت بضع سنوات حين شاب شعر أم لطيف من الهم والحزن وكبر لطيف وصار رجلاً ، وصل فى أحد الأيام رجل كثير الإنهاك والضعف إلى بوابة قصر الحاكم وقال بلا مقدمات من الاحترام إلى الحارس:

– لا فى هذه الليلة ولا فى الصباح ولا فى أى وقت آخر بل الآن أريد ابن الحاكم

– فقال الحارس : من أنت وما اسمك؟

فبصق الرجل بعنف علـــى الأرض وصاح كعـــادته القديمة (ابن الحاكم قـــبر يلمه) . أراد الحارس أن يؤدبه بسيفه لكن الرجل وجه إلى قفاه صفعة بلغت من قوتها أن غيبت الحارس عن وعيه .

وصل بعجل شاغاسى النديم والصاحب الخاص للأمير إلى الخارج ووجد كاكا يحيط به البوابون والحراس والجنود ؛ فأمر فى الحال بتركه والابتعاد عنه ، ثم ألقى السلام على أكبر بأدب جم وقال :

– أهلاً وسهلاً ومرحبًا يا بطل الأبطال

فأجاب كاكا : دمت كيف حالك يا والدى ، طيب أن أتيت وإلا عم الحزن كل مكان .

فضحك شاغاسى وقال : إن الحارس لقى جزاءه كما قدر الله له .

وإذ ذاك دخل الاثنان القصر ، وطلب الحاكم فى نفس اللحظة كاكا لوحده فى جناحه الخاص وكان شاغاسى يسعى من فترات طويلة إلى حل لغز علاقتهما ؛ فأخذ يسترق النظر وهو خائف وجل إليهما من شق بالستارة فرأى كاكا قبل أن يلقى بالسلام يبصق على الأرض ويصيح : (ابن الحاكم قبر يلمه) . فتح الحاكم يديه واحتضن بقوة كاكا وقبل كاكا وجه الحاكم وقال :

– كفاك سخرية (اجلس حتى أجلس)

جلس كلاهما واتكأ كل منهما على الوسائد الناعمة الوثيرة وتنبه الحاكم من خلال نور النجفة المنيرة أن أكبر لم يعد ضخماً وبطلاً وقوى القبضة والشكيمة فضرب بيده الثقيلة كتف أكبر بلطف وقال :

– صار جسمك يا بنى أشبه بالشيوخ الضعفاء

فأجابه أكبر :

– يا ابن أمك هذا هو الملعب وهذا هو الكرة والصولجان فأقبل حتى أعرفك من أنا ؛ فقال الحاكم : أيها الولد القوى كنت أمزح معك إنك رئيس كل الرؤساء.

ثم أزال كاكا أكبر الغطاء عن فتحة خرجه أمام النظرات التى تتطاير بالشرر وغير الصابرة للحاكم ودحرج رأساً ذات شعر أصفر ومفصولة أمام قدمى الحاكم ، فقفز الحاكم حين رأى الرأس كأنه شرارة انطلقت بغتة إذا أشعلت النار وصرخ :

– لعنة الله عليك يا ولد الكلب ، ألم أقل لك إننى ابن الحاكم ورأسك هى التى يفوح منها رائحة طعام اللحم المفروم . جميل أنك لقيت جزاءك ثم نهض من مكانه وطير بركلة قوية من قدمه الرأس حتى آخر الحجرة ، وخاطب أكبر كاكا بشىء من الابتسام والسعادة والغرور : لا ترفس النملة وإلا ضحكوا عليك ، ولا تكثر من وضاعتك.

وعاد الأمير إلى مجلسه بأنفاس لا هثة ، ثم أمطر ثانية كاكا بقبلاته أبعد أكبر الحاكم عنه بصعوبة وقال :

- حان وقت انصرافى يا بن الحاكم استودعك الله

نهض الحاكم من مكانه وهبط فى معية صاحبه حتى آخر درجات السلم المرمرى لقصره وودعه ، وما أن ابتعد كاكا بضع خطوات حتى أسر الحاكم بكلام فى أذن شاغاسى وأمر بأن يشايعوا أكبر حتى منزله ، وحين رأى كاكا أتباع الحاكم وراءه سألهم :

- خير ، إلى أين أنتم ذاهبون ؟

فأجاب شاغاسى :

- أمرنا الحاكم أن نتبعك حتى منزلك

فرد كاكا : مرحبًا بكم يا أبى ، ولكننى لا أحتاج إلى رفقتكم

فقال شاغاسى : لا يمكن وإلا قتلنا الحاكم

فقال أكبر : لا تخافوا أنا أنتقم منه لو فعل ذلك ، بلغوه رسالة منى بأن أكبر يسير بدون حاجة إلى حارس ورفيق.

فقال شاغاسى : بحق الله لا تتسبب فى إيذائنا.

فقال كاكا : حسنًا تعالوا واقضوا الليلة معنا إذا أصررتم على المجىء.

فقال شاغاسى : سمعًا وطاعة.

وإذ ذاك انطلق كاكا إلى طريق حارة الحدادين وهو يسير فى المقدمة ويتبعه جنود الحاكم.

كانت الطرق خالية خاوية تمامًا ، ولم يكن يتحرك فى الحوارى الأساسية والفرعية شىء من الأحياء غير ظلال الشجر ، كان أكبر صامتًا ومع تعبه وإرهاقه فقد كان يجد فى السير بخفة وسرعة كأنه طير يطير ويقفز شبراً فوق الأرض.

كان شاغاسى ورفيقان آخران يتعقبونه لاهثين ، لكنه كان يطوى الطريق بعجلة وسرعة بدافع شوقه لأهله وبيته حتى أن شاغاسى لعنه وسبّه مراراً بينه وبين نفسه.

وفى نهاية الأمر وفى أحد المنعطفات حارة صناع الأفران وعلى مسافة بعيدة من سوق (شوربازار) وحارة الحدادين أشار شاغاسى إلى رفيقيه الآخرين إشارة واحدة فهويا فى لمح البصر بسيفيهما المسلولين على رأس أكبر من خلفه دفعة واحدة وحولا العالم قاتمًا فى ناظريه.

قال أكبر : (آه) وقبل أن يتدحرج إلى الأرض قال بصوت ضعيف :

– قبر يلمك يا ابن الحاكم يا أخس الأخساء.

المجلس الأعلى للثقافة

الخفافيش

تعد هذه المجموعة أول نشر من المجلس الأعلى للثقافة لمجموعة من القصص القصيرة المعاصرة من أفغانستان. ولا تُعْزَى أهمية هذه المجموعة إلى أنها الأولى من نوعها فى مصر فحسب، بل لأنها تضم قصصاً تعبر بصدق عن الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى المرير للشعب الأفغانى، هذا الواقع الذى تبلورت مآسيه فيما تشهده أفغانستان حاليًا من صور التمزق والتدهور التى يعانى منها الأفغان البسطاء المظلومون، وهى من صنع أيد خفية فى داخل بلادهم وخارجها. وفى هذه القصص أيضا تسجيل للمعتقدات الشعبية المأثورة والعادات الخاصة الأفغانية، ولعلها جميعًا كانت - ولا زالت - صرخة تطلب الإنقاذ فى واد إن ضاعت اليوم فقد تأتى غداً بالأوتاد.